

أكلو اللوتس

الجزء الأول

فبراير 2017

رواية

417

تأليف: تاتيانا سولي

ترجمة: زهرة حسن

مراجعة: د. أحمد البكري

آكلو اللوتس

الجزء الأول

آكلو اللوتس

الجزء الأول

رواية

تأليف: تاتيانا سولي

ترجمة: زهرة حسن

مراجعة: د. أحمد البكري



نمبر كل شهرين من
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:
م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:
أ. وليد جاسم الرقيب

هيئة التحرير:
أ. د. سليمان علي الشطي
د. ليلى عثمان فضل
د. زبيدة علي أشكناني
د. علي عجيل العنزي
د. حنان عبدالمحسن مظفر

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي
سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978 - 99906 - 0 - 546 - 6

آكلو اللوتس رواية

العنوان الأصلي

Lotus-eaters

© Carlson and Lerner Literary Agency

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016م

إبداعات عالمية - العدد 417

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

المقدمة

مفهوم الوطنية مفهوم خاصّ وعامّ في الوقت نفسه، إذ يختلف الأمر من شعب إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر، فالشعوب الكبيرة تفهم هذا الأمر كفخرٍ بعظمة إنجازاتها، والشعوب الصغيرة التي ترى وطنها تحت خطرٍ محتمل دائم تفهم هذا الأمر كإحساس بالمسؤولية تجاه وطنها، وبهذا يكون الجميع قادرًا على الإحساس بالأمر؛ إذ إنّ جميع الأوطان تعرّضت لخطرٍ ما اختبر وطنية أبنائها بشكل أو بآخر، وهذا ما نجده في رواية «أكلي اللوتس»؛ حيث لا نستطيع إلا أن نتخذ موقفًا إنسانيًا مع كلا الطرفين أمام الحالات التي تقدّمها الكاتبة في إطار الحرب، فهي إذا فكرة صالحة لكل الأزمان من حيث الفكرة واللغة الجميلة. وهذا كان سبب اختياري لترجمتها.

يأتي سبب تسمية رواية «أكلي اللوتس» من الأسطورة اليونانية «الأوديسا» حيث يصل جنود أوديسيوس التائهين عن وطنهم إلى أرض اللوتس التي يعيش أهلها على ثمار اللوتس، فيتذوّقونها فيفقدون كلّ رغبة بالعودة ويتعلّقون بالمكان الجديد من شدّة لذة ثمار اللوتس، كما أنّهم بكوا بمرارة حين أجبرهم قائدهم على العودة، وهذا يتوافق تمامًا مع مضمون الرواية؛ حيث تتعلّق هيلين بأرضها الجديدة وتنسى كاليفورنيا مسقط رأسها، كما يتوافق أيضًا مع متعة قراءتها؛ حيث يتعلّق القارئ بشخصيات هذه الرواية وحالاتها الإنسانية المتنوعة والكثيفة والغنية التي تلامس أعماق عقله ومخيّلته وإحساسه.

في هذه الرواية الساحرة نجد هيلين وحبیبها الفيتنامي لين؛ الواقع في نزاع بين حبّه لها ووفائه لوطنه، يحاولان

الهروب من تلك المدينة التي أدمنت عليها هيلين وعشقتها. وتعود الرواية بتقنية الارتجاع الى استذكار بدايات الحرب حتى لحظة ما قبل سقوط سايجون حيث كان سام دارو الذي رأت فيه هيلين مثلاً أعلى، والطرف الثالث في مثلث الحب الذي تجد نفسها عالقة فيه. سيتعلق القراء بهذه الرواية التي تعرض الشغف والواجب والطموح في ظروف غاية في الصعوبة تمثلها فوضى الحرب. في هذه الرواية المتخيلة بصورة بالغة القوة ترسم تاتيانا سولي ثلاث صور مميزة تجتمع تحت مظلة الحرب المستحيلة. في الأيام الأخيرة لسقوط سايجون تجد هيلين آدامز - الهاوية التي تم الاستخفاف بها - نفسها تتحول إلى نجمة باهرة بفضل صورها العاصفة ويتعبها نزاع طموحها مع رغباتها بينما تتشابك مشاعرها تجاه رجلين مختلفين تماماً، أحدهما لين الغامض وهو صحفي مصور من فيتنام بولاءات مشكوك بها، والآخر هو سام دارو وهو مراسل صحفي أمريكي مدمن على تخدير العنف وعلى حبه الخطير تجاه هيلين. يتحول الثلاثة بسبب الفوضى ويخاطرون بكل شيء لتسجيلها. تكشف رواية «أكلي اللوتس» عن لوحة مشغولة بثلاث أرواح واقعين في فخ شغفهم الشديد وأهوائهم وهواجسهم الغادرة المخادعة. سيذهل القراء بهذه الرواية الأولى الرائعة التي تعكس متضادات الرعب الموجهة للعراك مع قوة الحب المنقذة المخلصة.

تاتيانا سولي: كاتبة الرواية تعيش في مقاطعة «أورانج كاونتي» في كاليفورنيا. نشرت قصصها القصيرة بشكل واسع وتم التنويه عنها مرتين بين أكثر مائة قصة مميزة،

بين أفضل القصص الأمريكية، ورُشحت لنيل جائزة بوشكارت. «آكلي اللوتس» هي ظهورها الأول كروائية، حيث حازت هذه الرواية على جائزة «جيمس تايت بلاك» (James Tait Black Memorial Prize) وجائزة «دانا» كما رُشحت لنيل جائزة لوس أنجلوس للكتاب. نشرت روايتها الثانية «شجرة النسيان» في العام 2012 و«الفردوس الأخير». ظهرت في العام 2015. كان كتابها الأول «آكلي اللوتس» أحد الكتب المرموقة حسب صحيفة نيويورك تايمز لعام 2010 كما أحرزت أفضل مبيعات أيضا. كما ظهرت أعمالها في أهمّ المجلات الأدبية أمثال (Zyzzzyva) زيزيفا وبوليفارد (Boulevard).

وفيما يلي إراء بعض الكتاب والصحفيين بالرواية:
أكثر رواية أولى مبشرة للعام وواحدة من أكثر الأصوات الجديدة استفرازا وجدلا في فنّ الخيال. رواية «آكلي اللوتس» ستغريكم وتسحركم وتنقلكم إلى عالم آخر.

وقالت عنها جانيت ماسلن من صحيفة «نيويورك تايمز»: «رواية أسرة ستسكنك وتسحرك». وجاء في تقرير الكتاب لصحيفة «نيويورك تايمز» أيضا: «رائعة ومشبعة بالإحساس والتشابك الرومنسي، وكتابة رائعة أيضا تضاف إلى متعة قراءة آكلي اللوتس».

وقالت عنها مجلة الناس (people) «بعد خمسة وثلاثين عاما على سقوط سايجون. تقرّينا رواية تاتيانا سولي الأولى لتجعلنا نشعر أننا جزء من المشهد».

وقال عنها ريتشارد روسو مؤلف رواية «السحر القديم لذاك الخليج»: «جميلة ومروعة، عليكم قراءة رواية «آكلي اللوتس» فخصياتها لا تُنسى».

كما قال الكاتب تيم أوبرين مؤلف مجموعة قصصية بعنوان: «الأشياء التي حملوها»: «عالم أسر من الحرب، الخيانة، الشجاعة، الهواجس والحب».

والكاتبة جانيس لي مؤلفة رواية «معلم البيانو»، قالت: «الحرارة ذاتها من أدغال فيتنام تبدو كأنها تخرج من صفحات الرواية الأولى الهائلة القوة لتاتيانا سولي، كتاب جميل».

زهرة حسن

الجزء الأول

(1)

التداعي

28 أبريل من عام 1975

مشيت هيلين في الشارع المهجور، حيث تارجحت المدينة في حالة حلم بينما كان الزمن يمضي، لاحظت انعكاس الشمس على موسى خلقة طويل يهتز داخل مشحذه فوق الأرض، ولم تستطع أن تقاوم إحساسها فانحنت لالتقاطه خوفاً من أن يشق قدم أحد المارة، وحين صرف انتباهها ضجيج كلاب تقلب حاويات القمامة انتزعت موسى دون أن تنظر، أدارت يدها لترى بقعة دم تنتفخ على يدها بمساحة جرح إبرة، فلعننت غباءها ورمت موسى والمشحذ إلى طرف الطريق ومضت مسرعة.

سمح الصمت المطبق للشارع لهيلين بأن تسمع عويل فتاة صغيرة. كان صراخها لاهثاً وعالياً، كان صراخاً بائساً وحيداً مهجوراً يرتفع ويشق الهواء ناشراً احتجاجه وشكواه بين الأبنية. عبرت هيلين الرقاق حول زاوية الشارع لترى طفلة صغيرة يتراوح عمرها بين ثلاث سنوات وأربع، يصعب التمييز لسوء التغذية الشديد الذي تعاني منه تلك الصغيرة. كانت واقفة هناك، أمام باب إحدى الحانات، ووجهها وشعرها غارقان في جهد البكاء، كانت ترتدي قميصاً قطنياً أصفر

واسعاً جداً، عارية من الأسفل ومن دون حذاء، كان الوحل يملأ ما بين أصابع قدميها.

فرض عليها المشهد المثير للشفقة التقاط صورة، لكن هيلين ترددت متمنية أن يأتي بالغ من ذاك الباب لينقذ الطفلة، لم تكن تنوي البقاء إلا لساعات أو أيام في هذا البلد.

تهادت الصغيرة عدة خطوات باتجاه الرصيف، كانت لاهثة، وعيناها غارقتان بالدموع عندما كاد رجل يدهسها بدراجته وهو يعبر زاوية الرصيف بسرعة جنونية، ترنحت هيلين دون تفكير وأمسكت ذراع الطفلة وسحبتهما وتكلمت بسرعة بلغة فيتنامية سلسلة قائلة: «أين والدتك يا صغيرتي؟».

بجسدها الصغير المنهك من عبرات البكاء، بالكاد نظرت الطفلة إلى هيلين. وتقلص حلق هيلين بغصة تردد. من الخطأ التوقف إذ إنها وعدت نفسها بعدم التورط، استدار بهما الشارع فارغاً من جميع الاتجاهات، ولم تقترب أية امرأة منهما.

نزلت هيلين إلى مستوى عيني الطفلة، فاندفعت الطفلة نحوها بتهور ولقت يديها حول عنقها، وهذا بكاؤها إلى هديل خافت.

«ما اسمك يا حبيبتى؟».

لا جواب..

«هل آخذك إلى البيت؟ ها؟ البيت؟ إلى أمك؟ أين تسكنين يا صغيرتي؟».

بدأت الفتاة تذرف دموعاً جديدة بعد أن ارتاحت، لا يذهب فعل خير بلا حساب.

كانت حقيبة الكاميرا ثقيلة وضخمة تضرب ردف هيلين، فأنزلت رباط الكتف، ووضعتها على الأرض، وكانت تمشي في

الشَّارع جيئةً وذهاباً للفت الانتباه، وتكلَّم نفسها لاهثة: ماذا تفعلين؟ ماذا تفعلين؟ ماذا تفعلين؟

مع أنَّ هيلين تمكَّنت من استشعار أضلاعها وعظام الكتف الحادة كأجنحة، إلا أنَّ الطَّفلة كانت ثقيلةً بشكل مفاجئ، وكانت قدمها الملفوفتان حول خصر هيلين لزوجتين، ومَلأت منخريها رائحة بول قويَّة.

وبعد طُعنة من نفاذ الصبر قالت لها هيلين: «عليَّ أن أذهب يا حلوتي، أين أمك؟».

هزَّت الطَّفلة لتهدئها، وأخذت تمشي جيئةً وذهاباً، لم يكن ذهنها صافياً..

لماذا كانت تضيِّع ساعاتها الثمينة وتورط نفسها الآن؟ لماذا وقد مرَّت قبلاً بمئات الأطفال البائسين؟ ولكنَّها سمعت بكاء هذه الطَّفلة بوضوح كبير، أهي إشارة؟ كان سيقول ذلك لين: يبدو أنَّها إشارة إلى أنَّها كانت تفقد عقلها.

عبرت شارعاً وكان المأتم يفيض بالبشر، هل عليها أن تأخذ الفتاة معها إلى البيت؟ ستصبح مسؤوليتها بعد مغادرة هذه الزاوية.

هل تستطيع أن تأخذها خارج البلاد مع لين؟ ماذا خطر ببالها لكي تتوقَّف؟ هل كان فحاً؟ ممَّن؟ هل كان اختباراً؟ مَن.. ماذا؟

ريَّت هيلين على شعر الطَّفلة بارتباك وغضب، كان لها وجهٌ بشكل قلب وأذنان كصدفتين صغيرتين كاملتين، إنَّ حمَّاماً وثوباً جميلاً كفيَّلان بأن يجعلها رائعةً.

بعد مرور ما بين عشر وخمس عشرة دقيقةً بدت فكرة أنَّ ما حدث كان إشارةً، فكرة أكثر غباءً، دقيقةً بعد أخرى لم يأت أحدٌ.

لا شيء إلا فرقة الأسلحة بعيداً، خطر في بال هيلين ترك
الطفلة والمضي في طريقها، فلا بد أن عائلتها قريبة من المكان
وتبحث عنها، لكن لن يضيرها أن تبقى بصحبته لبضع دقائق،
لم يكن ذلك مسؤوليتها بعد كل شيء، وعندما بدأت بالانحناء
لإعادة الطفلة إلى مكانها على الأرض، شدّت الطفلة ذراعيها
حول عنق هيلين إلى حد الاختناق، فاستسلمت هيلين وشدتها
إلى الأعلى.

كان كل شيء خاطئاً، وكان الخطأ فادحاً، ودليلاً على فشلها.
لا بد أن لين قلق الآن، ويحتمل أنه خرج محاولاً البحث عنها.
انحنت هيلين لالتقاط شريط حقيبة الكاميرا، واضعة إياه
على الكتف الآخر لموازنة الثقل، ربّما كانت إشارة مجنونة؟
ولكن ماذا عساها أن تفعل إلا أن تأخذ الطفلة معها؟
عندما وصلت هيلين والطفلة إلى منتصف الطريق، صرخ
صوت امرأة من خلفهما، فاستدارت هيلين لترى وجه امرأة
واضحاً كالقمر، بشفتيها المتشققتين، واتّجهت المرأة نحوهما.
«هل أنت والدتها؟» سألت هيلين، وقالت بإحساس بالذنب:
«لم أكن أحاول أخذها».

سحبت المرأة الفتاة من بين ذراعي هيلين بعينين حادتين،
وتذمّرت الصغيرة حين وبّختها الأم وضربت على رجليها.
قالت هيلين: «لم تستطع أن تخبرني أين تعيش؟»
استدارت الأم ومضت دون أن تلتفت الفتاة أخرى، نظرت
إليها الطفلة من فوق كتف والدتها بعينين داكنتين خاليتين من
أي تعبير، واختفتا بعد عدة خطوات حول الزاوية.
شعرت هيلين للحظة قصيرة أنها على خطأ، فقد افتقدت
وزن الفتاة ورجليها اللزجتين، ثم اختفى الإحساس في لحظته.

كيف كان للأُم أن تكون بهذا الإهمال، امتعزت هيلين قليلاً من أن الأُم لم تشكرها وحتى إنها لم تعترف لها بجميلها، لكن بعد إسقاط ذلك الحمل وغياب الفتاة في الماضي عادت إليها حماستها، عليها أن تستجمع قواها، فحملت حقيبتها وتفقّدت ساعتها ومضت.

في يوم عاديّ تملأ الحركة والنشاط في الشارع عيني هيلين لدرجة أنّها لا تعرف أين تتجه مشتتة الانتباه فيما يدور حولها في الشارع، من اللوحات الحيّة للحلاقين الذين يحلقون شعر الرّيائن على جانب الطريق في الهواء الطلق، إلى بائعي الشاي الذين يتصبّبون عرقاً فوق مواقدهم، والأباريق التي اسودّت من جزاء اللهب، أو حتّى الصّبية ذوي الشعر المصبوغ الذين يبيعون كلّ شيء من المعكرونة إلى الدّجاج والسّجائر، أو كبار السنّ بلحاهم الشّائكة هادئين مثل بوذا، يلعبون الشّطرنج الصّينيّ دون توقّف.

كانت تجد هناك بقايا الحرب غير المتناهية وحطامها؛ متسوّلين وأشخاصاً مقطّعي الأوصال محتشدين في الشارع حيث كان من الممكن أن يعطيهم الأجانب بعض المال.

لكنّ الشارع كان خاوياً اليوم، فالتوافذ مكسورة والأبواب محطّمة كملامح مشوّهة لوجه كان يوماً ما مألوفاً، النّاس رحلوا أو اختبؤوا، كان الشارع مشوّهاً بغيابهم.

كانت مدينة سايغون بالنّسبة لهيلين سوقاً للبيع، مكاناً لبيع الدّجاج، وبيع المعلومات أو حتّى بيع الشّابات الجميلات، لكنّ كلّ ذلك لم يكن مهمّاً.

كانت هذه المدينة تدعى سابقاً لؤلؤة الشرق، لكنّ لمن لم يزرها منذ وقتٍ طويل، لم تكن يوماً باريس، لكنّها أصبحت اليوم

حامية عسكرية، لم تكن من الزوعة في شيء، كانت مدينة أكواخ وملاجئ نتنه، ممتلئة بالغازبين، المخدوعين والمسلوبين، لكن هيلين جعلتها مدينتها، ولم تستطع أن تتحمل فكرة أنها على وشك المغادرة.

كانت هناك حركة بقرب مركز المدينة، حيث انتشرت عصابات النشالين كنسائم الريح، سواء كانوا من المواطنين أو الجنود المغلوبين على أمرهم وقد أودى بهم الحال إلى أن يصبحوا خارجين عن القانون، يقتحمون المخازن أثناء مرورهم، المخازن ذات البضائع التي يرغبون في الاستيلاء عليها.

أسرعت هيلين في مشيتها وهي تمتص الدم من طرف إصبعها، لكنها لم تستطع أن تحبس حماسها، فتوقفت لتتأمل حولها متصورة الأمر في مخيلتها، كان هناك صبية مراهقون، بعضهم يرتدي الجينز وبعضهم الآخر يرتدي ملابس قديمة، يكسرون زجاج نافذة أحد المحلات، والبضائع الوفيرة في الداخل تنتظرهم، لكي يسرقوا الأطعمة، يلتهمون أقفاص الجوافا والجاك فروت، وهناك فتاة صغيرة يسيل على وجهها عصير يبلل سترتها البيضاء. أدهشها دوماً ما يحدث عندما تتداعى الأشياء. ما الوحدات الأساسية للحياة؟

بعد عدة ساعات مشت هيلين بسرعة أكبر وهي تتلمس الرسائل في أعلى حقيبتها، تلك التي أمضت الصباح كله تستجديها، لقد ألقى ذلك حماقتها السابقة برغبتها في البقاء حتى اكتمال التسليم، تمنّت أن لين لم ينس في غيابها أن يأخذ المضاد الحيوي أو المورفين الخاص به، لكنها خمنت أنه لم يفعل، بعد ثورته الصغيرة عليها كان قد سامحها وسامحها مراراً، لكنه الآن وضع حداً لذلك الأمر.

رفعت الكاميرا إلى مستوى عينها في السوق المركزي لعدم قدرتها على التوقف عن السير، وقامت بالتقاط صور سريعة لمجموعة من الرجال الذين يتجادلون ثم يمضون حاملين أكياساً من الأرز المصقول، حزماً من الأقمشة، مراوح كهربائية، راديوهات صغيرة، تلفزيونات، مشغلات فيديو، ساعات يد، صناديق من الكونياك الفرنسي والسجائر الأمريكية، كانت مفلسة لدرجة أنها تمت أن تبيع بعضاً من هذه الساعات في الولايات المتحدة. هبت رياح شرقية، نسيم فاسد متعب ملأ المدينة برائحة الجيف والقمامة العفنة، ربما كانت الخشخشة الآتية من الشمال مقدمة لعاصفة مطرية، لكن أهل سايغون عرفوا أن الضوت ما هو إلا هدير المدفعية، وأصوات لصواريخ وقذائف الهاون الصادرة عن جيوش الشيوعيين المقتربة، ارتفع دوي وحرارة ذهنها وشغلها سؤال واحد، ماذا سيحدث بعد ذلك؟

لم يابه النشالون بما يفعلون لأنهم خمنوا أنهم سيموتون خلال ساعات، فتقاتلوا على البضائع في المحلات، وبعد عدة دقائق تركوها في الشارع خارجاً وقرروا الذهاب إلى مكان آخر للعثور على أشياء أفضل، حتى إن الفقير إلى حد العوز كان يدرك أنه ما نفع ساعة ذهبية على جثة هامة؟!

مشى هيلين في الشوارع المهلهلة دون أن يلحق بها ضرر، كأنها لم تكن أجنبية، بل امرأة، وعوضاً عن ذلك تحركت في المدينة بثقة المنتمية إليها.

كان قد أطلق عليها الصحفيون الرجال قبل عشر سنوات لقب «هيلين من سايغون»، ضحكت فقد كانت الأمريكية الوحيدة التي رأوها منذ زمن، لكنها لم تكن تنتمي الآن إلى مدينة مدمرة، بجسدها الذي أضحى نحيلاً وكثيفها المحذبين من التعب،

عظمة الفك الحادة التي فقدت جمال امتلائها الطفولي،
وعيناها الزرقاوان تحدقان في الظلام العميق.

بدت الحرب منذ عشر سنوات وكأنها لن تنتهي، وكل ما
استطاعت التفكير به الآن كان فكرة: «وقت أكثر، أعطنا وقتاً
أكثر»، كانت ستستمر حتى النهاية رغم أنها أضاعت ثقتها بقوة
الصّور لأن الصور أصبحت في حدّ ذاتها هدفاً لا يؤدي إلى أية
نتائج.

توقّفت هيلين عند شارع «تودو» أحد الشوارع الشهيرة في
سايفون وقد هزّتها الضجوة الكبيرة بينه وبين باقي المحلات، وهو
محلّ للقبّعات النسائية الفرنسيّة، ذاك هو المكان الوحيد الذي
بدا حصيناً، كان كقلعة تقف ضدّ المصائب التي يمكن أن تصيب
المدينة، كان الباب مهجوراً وزجاج الواجهة محطّماً، ورغم وجود
صناديق محطّمة وأدراج مرميّة في الدّاخل لم تصدّق هيلين
الدّمار أمامها حتّى رأت كرسيّين فارغين ومقلوبين.

عندما أصبحت الحياة في سايفون صعبة نوعاً ما كانت
هيلين تذهب إلى ذاك المحلّ لتستمتع بصحبة «أنوك» المالكة
الباريسيّة ذات الشعر الأشقر الغامق المصفّف بعناية، والحاجبين
المرسومين بقلم رصاص، وخديها الغارقين بمساحيق التّجميل،
وأربطة الجوارب الحريريّة التي أصرت على ارتدائها رغم الحرارة،
كانت الأنثى الوحيدة الصّديقة لهيلين طوال هذه السّنوات.

لم تفهم هيلين في البداية مواهب المرأة الفرنسيّة، والتّجربة
الاستعماريّة التي جعلتها تولد بعيداً، حيث عاشت منذ زمن
طويل في الهند الصّينيّة، وقد ازدهرت تجارتها لمُدّة عقدين بعد
أن أتت إلى سايفون عروساً شابّة، وبعد وفاة زوجها أخبرتها أهلها
أنّها ستبقى هناك وحيدة.

كانت الصديقتان ترتادان مقهى عند الزاوية لاحتساء الإسبريسو، حيث كانت هيلين تجلس وتتحمل توبيخ صديقتها على إهمال شعرها وبشرتها، وكيف لهيلين أن تهتم بهما بعد أن كانت تأتي إليها وقد أمضت ساعات في الميدان تعمل تحت حر النار، ابتسمت هيلين للمرأة الفرنسية التي قدّمت لها عبوتين صغيرتين من المستحضرات المعطرة العلاجية، كانتا جميلتين لدرجة أنهما جعلتا هيلين تحب صديقتها أكثر..

ثرى هل أضحى خوف أنوك عظيماً ليجعلها تترك كل شيء وراءها وتخلي المكان وترحل ١٩

كان الكيمونو الأحمر المطرز لا يزال في نافذة المحل المحطمة لم يلمسه أحد، ذاك الذي ساومت هيلين على ثمنه، مع أن الحقائق والأحذية الفرنسية الأرخص ثمناً كانت مسروقة إذ إن الفيتناميين كانوا يفضلون البضائع الأجنبية على البضائع الآسيوية.

لم تعمل هيلين بمشروع له مردودٌ مادي منذ فترة وكان حسابها في البنك خاوياً والدفعة الأخيرة من الصور التي صورتها أعيدت إليها منذ شهر مع الاعتذار: «إنها قصة حزينة.. لكنّها القصة القديمة ذاتها، وربما سيتبدل الحال قريباً».

انزلق الحرير ثقيلاً وناعماً من بين أصابعها، كانت قد أجهدت أنوك ولكن الكيمونو كان لا يزال غالياً، كانت تلك لعبة يلعبها المساومون على سعر قطعة من الملابس لمدة أشهر، وأخيراً استسلمت هيلين واشترتها.

رفضت أنوك أن تبيع القطعة إلى أي شخص آخر، وقد أحسّت هيلين أنّها لصة عندما قامت بخلعها عن تمثال عرض الملابس وأخبرت البائعة أنّها ستكمل ما تبقى من ثمن القطعة عندما

تراها مرّة ثانية، في باريس؟ في نيويورك؟ لم تستطع أن تتخيّل لأنّ أنوك لم تعد تنتمي إلى مكان آخر إلا سايفون.

كانت المدينة بأكملها تحت الجراسة، حتّى الأولاد الذين كانوا عادةً يصخبون مطالبين بالهدايا والمعونات كانوا هادئين، يقضون وقد استندوا بظهورهم على جدران الأبنية، حتّى بدوا وكأنّهم فهموا أنّ الأمريكان خسروا الحرب بأسوأ طريقة ممكنة، الأصغر سنّاً بينهم كانوا يمضّون أصابعهم وعيونهم تتبّع هيلين إلى آخر الطريق، وحالما أدارت ظهرها سمعت طقطقة ناعمة لحجارة رميت إلى مسافة قصيرة خلفها، أسرعت هيلين في طريقها مستخدمةً شوارع وأزقة أقلّ ازدحاماً متجنّبةً بذلك الطرق الأكبر مثل «نجيون هيو»، حيث كان احتمال تعرّضها للمشكلات أكبر.

عندما أتت هيلين إلى سايفون لأوّل مرّة ملّمة بتاريخ المدينة من الكتب، صدمتها قلّة اهتمام ومعرفة الأمريكان بذاك البلد، وكيف تنقلوا في الشوارع ذاتها يوماً بعد يوم (نجيون هيو) و(هاي باترونغ) و(لي لوي)، دون أدنى فكرة أنّ هذه الشوارع ما هي إلا أسماء لأبطال حرب فيتناميين ثاروا على الغزاة الأجانب.

كانت تلك تجربة فيتنام، كلّ شيء واضح المعالم ومعناه واضح لمن يريد أن يفهم.

كانت المدينة كبيرة جداً، مغمورة بأحياء اللاجئين الفقيرة، والمقاطعات التاريخية الصغيرة التي تتمتع بواجهات استعمارية خلابة، تخفي خلفها مساحات كبيرة من سقائف الضفّيح وأكواخ الورق المقوّى، وتهديدات بتفشّي الكوليرا والطاعون، حيث كانت بعض الفنادق تمسح الأرضفة أمامها وتنظّفها بالأمونيا أو البخور المحروق، وكان كلاهما علاجين غير فعالين بنفس الدرجة.

كان جمع القمامة متقطعاً حيث تمّ ذلك آخر مرّة منذ عدّة أسابيع، وكان على هيلين أن تخوض في الطّين إلى أخمص قدميها في بعض الأزقة مستخدمة عصا لتخيف الجرذان وتبعدها عنها.

غطّت شعرها بشال غامق كي لا تجذب الانتباه، كما أنها قامت بارتداء جلباب قطنيّ أسود فوق قميصها لتخفي آلة التصوير، حيث كان الجنود قد قاموا بضرب عدّة مخبرين سابقاً ممّا جعلها قلقة جداً؛ لأنّ الكاميرا كانت مغناطيس الغضب فيما بينهم، والجنود الفيتناميّون الجنوبيّون بوجه خاصّ كانوا أكثر قسوة على الصحفيّين، ويلومون المقالات المتكررة التي تخصّ الفساد، تلك التي أوقفت القطار الكبير للأموال الأمريكيّة.

كان أولئك الجنود لا يحبّون الظّهور، رفضوا تسجيل أية أدلّة على نهبهم للبضائع، كانت وجوههم مبنوثة في صحف العالم، ممّا يقضي على فرصهم بالارتقاء في بلدهم أو بالهجرة إلى الخارج، أشفقت هيلين عليهم رغم أنّها كانت تخافهم بالدرجة نفسها، فلم يكونوا بالكاد إلا رجالاً مساكين، مخدوعين ككلّ الذين تركتهم هناك في سايغون، فكلّ الأغنياء أو ذوي السّلطة غادروا البلاد ولم يبقَ فيها إلا من أهملهم النّاريخ.

عندما وصلت إلى الرّقاق الذي يقود إلى مبناها، طوت هيلين الكيمونو في حضنها ونزلت إلى الكشك كما اعتادت أن تفعل في معظم الأيام، رفعت الكاميرا وأخذت لقطة سريعة للذكرى. «مرحباً أيّها الجدّة سيونغ، كيف حالك؟».. تابعت الجدّة تحريك إبريقها، وبالكاد نظرت إلى هيلين وصبّت لها كوباً صغيراً من الشاي وقدمته إليها.

شعرت الجدّة بأثنا مخدوعة؛ لأنها أحبّت تلك الغربية، تلك المجنونة التي تناقل الناس أخبارها بصفتها شبحاً، لهذا لم تكن قادرة على العودة إلى وطنها.

قالت هيلين لنفسها: «لماذا أضيّع فيلماً على هذه العجوز القبيحة؟.. أنا أصوّر نجوم السينما فقط».

ابتسمت الجدّة ورشفت هيلين شايها قائلة: «اقرئي لي الأوراق»، هزّت الجدّة رأسها ونظرت إلى الكوب ثم قامت برمي محتوياته وأجابتها: «لا يهم، أنت لا تؤمنين، إنها معتقدات فيتنامية قديمة».. فردّت هيلين: «لكن ماذا لو كنت أوّمن؟ ماذا تقول الأوراق؟».

نظرت إليها الجدّة متسائلة إذا كانت الحقيقة ستغيّر شعور هيلين نحوها:

«كل شيء أسود، ليس هناك مزيد من الحظ».

هزّت هيلين رأسها وقالت: «من الجيد أنني لا أوّمن إذاً. أليس كذلك؟»، هزّت العجوز رأسها واكفهر وجهها.

تناقلت الأخبار أنهم رأوا المرأة الغربية هائمة على وجهها في الشوارع وحدها، والريح تطير شعرها، فاقدة البصر، وكانت تكلم نفسها وتدخن الغليون.

«ما الخطب يا جدّة؟».

كانتا صديقتين منذ أن كانت هيلين مريضة وعاجزة عن النزول لإحضار الطعام، حيث كانت العجوز خلال ذلك تغلق كشكها وتعتني بهيلين وتصعد الدّرج لتحضر لها قدرًا من الحساء.

كان الناس يأتون من الأحياء القريبة، فقط للجلوس على هذه المقاعد الأربعة المنخفضة، ويتناولون حساء المعكرونة

الفيتنامي، لأن سمعة الجدة سيونغ في إعداد الطعام كانت الأفضل في (تشولون).

هناك كلمة يتم تناقلها في الشارع «أن الجنود آتون غداً لا محالة، وسيقتلون كل أهل البيت الذي لا يعلق علم الشيوعية أو علم بوذا».

«لا أعرف، سمعت بهذه الإشاعات».

نظرت الجدة إليها نظرة قاسية وقالت: «ليس لدي علم». رشفت هيلين الشاي بصمت وهي تراقب أوراق الشاي السابحة في السائل متخيلة إياها ترسم حتفها المحتوم مرة بعد مرة بعد مرة في أسفل الفنجان المقعر، أتعبها التفكير بالمستقبل.

تسير الأمور بطريقة معينة حسبما علمت في (هيو) و(نها ترانغ) حيث تأتي نساء الكشافة قبل الجنود، يمشطن الشوارع ويوزعن الأعلام، ثم يقوم الناس بتعليقها مرحبين بالمنتصرين الذين يبيعون لهم الحساء.

هرّت العجوز رأسها واسترخت الأخاديد في وجهها، كأن مكواة مرّت على قطعة ملابس مجعدة:

«يقومون بتتبيل الأطعمة بطريقة مختلفة عنا في هانوي». لفّت يدها على يد هيلين برقة وقالت: «اسمعي كلامي، إنهم يقتلون الأمريكيان، حتّى المدنيّين منهم الذين بلا عتاد أو لباس حربيّ، جنودهم وجنودنا، جميع الأمريكيان غادروا إلا أنت بقيت». هرّت هيلين رأسها بسرعة كأنها أرادت أن تطرد منها فكرة مزعجة «لا بد أن لين جائع».

«لقد أخذت له الحساء منذ ساعات فقد تأخّرت كثيراً، إنّ الحرب مرض الرجال».

أنهت هيلين شرب الشاي ووضعت الكوب على القفص الذي كان يستخدم كطاولة.

وحين وقفت هيلين ملأت العجوز قدراً كبيراً من الحساء وأعطته لها: «كلي لتبقي قوية».

«هل قرأت أوراق الشاي للين؟»

ابتسم وجه العجوز: «بالطبع، ادعى أنه لا يؤمن بذلك، وأن كونه غريباً لا يسمح له ذلك بالإيمان بهذه الأفكار، كان كل ما يؤمن به هو النور والحياة الطويلة، لا يهتم القدر به إن آمن أو لم يؤمن».

أضافت هيلين الليمون والفلفل إلى الحساء.

«شكراً سأعيد لك قدر الحساء في الصباح».

«اكسريه، لن أعود للعمل هنا بعد اليوم».

«لماذا يا أمي؟»

«سأذهب إلى القسم الآخر من البلدة فربما ينسون من أنا، فليس الأمريكيون وحدهم في خطر بل الذين عملوا لصالحهم أيضاً، لا أحد آمن، لا أحد حتى الذين باعوا الأمريكيين الحساء».

وقفت هيلين عند الدرج حيث أثقلت صدرها نوبة برد جعلت تنفّسها صعباً. كانت خائفة. لم تكن خائفة من الموت فقد تجاوزت هذا الخوف منذ سنوات خلت، لكن خوفها كان من الرحيل، من الفصل.

حان وقت العودة إلى الوطن، فقد فرغت من الأشياء التي كانت تستعصي عليها، أفرعتها كلمات الجدة عن الهلاك المحتوم.

«وقتاً أكثر، فقط أعطنا وقتاً أكثر».

كانت سمعتها قد ذابت وتضاءلت خلال فترة الحرب، فلم يكن هناك على الإطلاق بيت واحد متوافق مع فيتنام مثل

(بروك وايت وهيغنز) في حروبهم، أو حتى الأسلوب الذي اتبعه (دارو) في عمر الثانية والثلاثين، بمنتصف عمره كان يحترف مهنة شاب صغير. ولم يكن هناك شيء تستعد له هيلين إلا الحرب. كأن طموحها في العالم الكبير قد خبا ولم يبق لها إلا كاميرتها والحرب. لقد كانت ملمة بأحوال تلك الحرب أكثر من أي شخص آخر، فقد كانت على اتصال دائم ومعيشة مستمرة في ذاك البلد، كانت تجوب الميدان تحت الخطر، أرادت أن تبقى حتى النهاية، لتغطي أكبر قصة في حياتها المهنية خاصة أن القوات الجديدة والسفارة أصروا على أنه يجب على جميع الأمريكيين أن يرحلوا.

كان ذلك هو الكأس المقدس الوحيد الذي سيعيد سمعتها المستنزفة ويملاً حسابها البنكي، ولكن ماذا لو وقع حمام الدّم الموعود، كان لين هناك ولم تكن لتعرضه للخطر.

لم تجد أثراً يدل على (تشونغ) الولد الذي عاش تحت الدرج. كانت هيلين تعطيه طعاماً وحلويات مقابل حراسة الشقة وإنجاز بعض المهام المنزلية، وكانت تدفع له أيضاً حتى لا يقوم صاحب البناء بطرده ويسمح له بالنوم تحت الدرج، فتكون هيلين متأكدة بذلك أنه حصل على طعامه.

شبكة المعارف الصغيرة التي ظلت هيلين على اتصال بها كانت تتداعى، وكان غياب (تشونغ) غير اعتيادي. صعدت هيلين الدرج وحاولت تجاهل إحساسها بالرعب حيث تركزت في ذهنها كلمات الجدة: «لا أحد آمن، لا أحد حتى الذين باعوا الحساء للأمريكان».

كانت حسابات العجوز عادة ما تكون دقيقة عندما يتعلق الأمر بالمزاج الجنوني للمدينة. ماذا لو انقلبت المدينة ضدها؟

دَوَامَةُ الشَّائِعَاتِ سَرَتْ فِي الشَّوَارِعِ كَالزَّمَادِ الْمَحْرُوقِ، مَشْعَلَةٌ كُلِّ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ. لَمْ يَغِبْ إِحْسَاسُهَا بِقَبْضَةِ عِظَامِ الْعَجُوزِ عَلَى جِلْدِهَا حَتَّى الْآنَ.

وَضَعَتْ هِيلِينَ قَدْرَ الْحَسَاءِ عَلَى الْأَرْضِ فِي دَاخِلِ شَقَّتِهَا وَخَلَعَتْ حِذَاءَهَا عِنْدَ الْبَابِ وَوَضَعَتْهُ بِجَانِبِ حِذَاءِ لَيْنَ، خَلَعَتْ جِلْبَابَهَا وَأَزَالَتْ رِبَاطَ الْكَامِيرَا مِنْ فَوْقِ رَقَبَتِهَا، ثُمَّ وَضَعَتْ مَعْدَّاتِهَا عَلَى الْكُرْسِيِّ، كَانَتْ الْكَامِيرَا مَغْطَاةً بِالْغُبَارِ. وَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تُمَضِّيَ الْجُزْءَ الْأَكْبَرَ مِنْ أَمْسِيَّتِهَا وَهِيَ تَنْظِفُ الْعَدَسَاتِ وَالْعَيْنَ الْفَاحِصَةَ. كَانَ الْقَفْلُ يَغْطِي الْوَاجِهَةَ فَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَفْصِلَهَا، لِذَلِكَ سَوْفَ تَمُضِي مَسَاءً طَوِيلًا مُجْهِدًا، وَهِيَ تَقْتُلُهَا الثَّعْبُ أَصْلًا.

نَزَعَتْ قَمِيصَهَا وَسَرَوَالَهَا اللَّذِينَ تَبَيَّسَا مِنَ الْعَرَقِ وَالْوَسْخِ. كَانَتْ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَقُومُ بِغَسِيلِ مَلَابِسِهَا قَدْ انْقَطَعَتْ عَنْهَا مِنْذُ أَسْبُوعٍ، فَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَسْتَخْدِمَ عِلْبَةً غَالِيَةً مِنْ مَسْحُوقِ (الْوُولِيَّتِ) لِتَغْسِلَ مَلَابِسَهَا الدَّاخِلِيَّةَ بِنَفْسِهَا فِي الْحَوْضِ الصَّغِيرِ دَاخِلَ حَمَامِهَا. سَحَبَتْ عَنْ رَأْسِهَا الْوَشَاحَ الْأَسْوَدَ وَنَفَضَتْ شَعْرَهَا وَوَقَفَتْ عَارِيَةً فِي الْغُرْفَةِ ذَاتِ الضُّوءِ الْخَافِتِ مُسْتَمْتَعَةً بِإِحْسَاسِ الْبُرُودَةِ وَالْهَوَاءِ الَّذِي يَلْمَسُ جِلْدَهَا. فِي الْخَارِجِ كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَحْمِيَ نَفْسَهَا مِنْ أَنْ تَكُونَ ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ، فَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَخْفِيَ شَعْرَهَا وَرَقَبَتَهَا وَصَدْرَهَا أَوْ حَتَّى لِمَحَةٍ بِسِيْطَةٍ مِنْهُ، كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَخْفِيَ رَدْفَيْهَا وَمُؤَخَّرَتَهَا وَسِيقَانَهَا. فَعِنْدَمَا خَرَجَتْ إِلَى الْمِيدَانِ كَصَحَافِيَّةٍ مَتَمَرِّسَةٍ سَعِيدَةٍ بِخُرُوجِهَا، كَانُوا يَنْصَحُونَهَا بِاسْتِخْدَامِ رِبَاطٍ مَطَّاطِيٍّ فَوْقَ حِمَالَةِ صَدْرِهَا لِتَبْدُو خُطُوطَ صَدْرِهَا مُسَطَّحَةً. حَتَّى فِي الْمَدَنِ كَانُوا يَنْصَحُونَهَا بِارْتِدَاءِ سُرْوَالٍ بِحِزَامٍ قَوِيٍّ لِأَنَّهُ يَصْعَبُ اغْتِصَابُ امْرَأَةٍ بِالسَّرْوَالِ.

خلصت من ذلك كله إلى نتيجة واحدة وهي خسارة الحرب
والعودة إلى الوطن، نبض قلبها بسرعة وبقوة معبراً عن
الاحتجاج على مجرّد الفكرة.

«هل ستعود حقاً للوطن وقد فقدت كلّ ما أتت لأجله؟»

أخذت هيلين الكيمونو ولبسته بسرعة، حاولت أن ترى
أثر الرّداء في المرأة المظلمة دون أن تواجه انعكاس وجهها.
لقد حوّلتها الحرب إلى امرأة عجوز وقبيحة، وكان قد فات
الأوان على أيّ من مستحضرات أنوك العلاجيّة كي تظهر أي
اختلاف، مشطت شعرها وهمت بنزع قرطها الدائري لكنها
تردّدت.

ناداها لين: «هل هذه أنت؟».

أحست بنبرة الغضب في صوته كما أحست بالجهد الذي
يبدّله لإخفائها على حدّ سواء.
«أنا آتية».

ربطت حزام الكيمونو وذهبت لتحضر ملعقة من الخزانة
وحملت طبق الحساء.

وفقت هناك بباب الغرفة بابتسامة عريضة شعرت بزيّفها،
لم يلتفت إليها وبقي مستلقياً على الفراش مواجهاً النافذة
حيث لطّخ الغروب الأرجواني الشجرة المتوهّجة التي وصلت
لتوّها إلى أوج ازدهارها. من المستحيل التقاط فيلم في ساعة
الغسق، وذلك بفعل تأثير الظلّ على الظلّ في تلك اللحظة
الخاطفة التي تسبق حلول الظلام الدامس.

«جلبت لك الحساء مع أنّ الجدة أخبرتني أنّها كانت قد
أطعمتك مسبقاً».

«شعرت بالقلق».

استطاعت رغم معالم وجهه التي حاول إخفاءها أن تتأكد من أن كلامه كان صحيحاً، ولكن ما لم تعرفه أنه منذ أن أصبح حبيس المنزل كان يمضي الساعات في بعدها متخيلاً مكان وجودها، متصوّراً سيناريوهات رهيبّة. كان يصلي صلاة شكر وامتنان كلما عبرت الباب، كأن تعذيب نفسه بتلك الطريقة كان سينقذها، ورغم أن نهايته كانت قد اقتربت ولم يعد يتحمل مثل هذه المخاطر، لكنه كان عاجزاً عن إيقاف هيلين.

«كنت أحاول العودة إلى البيت لكن ما فتئت أشياء تلفت انتباهي في طريقي إلى هنا».

تقدّمت إلى الغرفة خافتة الضوء وجلست على طرف السرير لتأكل، انحنت وقبّلتها بحنان. رغم السنين الطويلة التي جمعتها سوياً لكن إحساساً بالعلاقة الرسمية كان يغلب عليهما في بداية كل لقاء حتى لو كان الفراق لساعات فقط. كان سبب ذلك هو اهتمام لين بها، وأن فكرة عدم عودتها في كل مرة كان من المسلّمات في حياته. اختفى هذا الشعور مع تلك الابتسامة السريعة والطريقة التي مدّ يده بها ليلمسها، كان يرتدي بيجاما قديمة في أسفل جسمه ويغطي صدره بضماد له وهجٌ بدا خافتاً في الغرفة.

كان غير سعيد، وكانت هي سبب عدم سعادته، لكنها مع ذلك امتلكت القدرة على متابعة الحوار، كان الأحاسيس الموجودة بداخلهما لم يكن لها وجودٌ.

لماذا يعشقك شخصٌ ما لأنك على صورة معينة ثم تظهر رغبته بعد ذلك في تغييرك إلى صورة أخرى؟

«كان لدي العديد من المهام لأقوم بها اليوم، يا حبي».

«قرأت العجوز الشمطاء لي حظي، دائماً الكلام نفسه. الحظ الوفير والعائلة الكبيرة»، كانت كلماتها لاذعة.

عندما نظر إليها لين لاحظت حدة وجنتيه وذبول عينيه من الألم. داعبت الندب الهلالي على وجنته بأصابعها، وكلما سألته كيف أصيب به غير الموضوع. «لم تأخذ جرعاتك؟»
«نسيْتُ».

كان بمرضه غير آمن حتى لو بقي في البلاد دون أن يحرك ساكناً. عندما مدّ لين يده رأت الحزام حول معصمه. «ماذا حدث؟»

أمسكت يده ولمست جرحه وأحست بثقل اللحم تحته، والندبة التي تركها هذا الجرح.

فركت الندبة بحدة مبعدة الخيبة عن ملامح وجهها. وقالت: «لقد شعرت بالملل فلهوْتُ قليلاً، تناولُ حساءك».

نظرَتْ إليه، لكن وقت المواجهة لم يحن بعد. أبعدت الفكرة عن ذهنها وتابعت: «سأغير أغطية السرير وأعطيك جرعة، ثم أقدم لك بعضاً من مشروب الجن من أو كلاهما».

كان لين طويلاً ونحيفاً، كانت ملامحه مشكّلة بعناية كهيئة فيتنامية أسطورية لأمير محارب، كان واضح الملامح حتى تلمح العين النّاضرة إليه الندبة الهلالية على خده والشريط على معصمه الذي لم يستطع أن ينساه، كان الألم شديداً، كان مليئاً بالندوب.

«اجلسي معي لدقيقة، تغرينني بالأوراق؟».

لمس أكمام الكيمونو بأصابعه.

«لن تستطيع المقاومة أليس كذلك؟».

كان فزعاً وعاشقاً بالدرجة نفسها من أنها فكّرت بارتداء كيمونو بينما كان عالهما على وشك الانهيار. دفنت وجهها

عند عنقه للحظة، وكانت راحتها الوحيدة الآن أن تغلق عينيها وتتوقف الصور أمامها، أحست بجلده دافئاً ورطباً على خدها. إنه مرض الحمى.

«لقد ذهبت آنوك».

وقف كلاهما للحظة دون حراك.

«بعد يوم أو يومين كحد أقصى سوف أحقق هدفي وسأكون آخر صحافية أمريكية في فيتنام».

«علينا أن نغادر الآن بينما لا يزال هناك وقت».

قالت له: «ما زال مارتن يعد بأن المدينة لن تسقط، ربما لدينا المزيد من الوقت». كان السفير الأمريكي قد فقد ابناً في الحرب وقد أجبرته الغاية التي يرمي إليها على مواجهة أشياء لم يكن يرغب في مواجهتها. أي شيء أفضل من ذلك؟ «أنت تشوشني». قالت له هيلين وهي تعبر الغرفة إلى حقيبة الفيلم الخاص بها. تلمست ما بداخلها وأخرجت مغلفاً سميكاً ورفعته: «احذر ما هذا؟».

«فنحن جاهزون إذاً. لنذهب».

هزّ لين رجليه على الأرض وجلس منثنياً ممسكاً بإطار السرير.

«نعم إنها بطاقة خروجك المجانية من فيتنام»، لديك رسالتان واحدة من (غاري) وأخرى من السفارة، لكن كان عليّ أن أجلس لساعتين على الغداء لأستمع إلى ما يقال: «إن الصحافة أداة هانوي». لا عجب أننا خسرنا. وقفت عند طرف السرير تقفز للأعلى والأسفل على مقدمة ساقها وهي تهزّ ذراعيها محاولة إفراغ طاقة التوتر.

قلت لك: «لا يمكن للمصورين أن يكذبوا»، فقد أكدوا لي أن (نجيون بران لين) سيصل بأمان إلى أمريكا، وكمكافأة سأغادر

أنا أيضاً، سيختفي هذا البلد، سيختفي خلف جدار، وبعدها ستبدأ الأشياء الحقيقية بالظهور. كل ما أرادوه هو بطاقات إثبات الهوية، وكثير من الأوراق الشبوتية. كيف يمكن أن يكون لك خمسة أسماء مختلفة في سجلاتهم.

كرز لين: «علينا أن نغادر الآن».

لم تمض لحظة حتى أعلن المذيع الأخرق بداية الإخلاء، وأن درجة الحرارة ارتفعت إلى مئة وخمس عشرة درجة وأنها آخذة في الارتفاع، وأذاعوا أغنية (وايت كرسماس). مررت أصابعها على جبهته محاولة تخفيف اشتداد الحمى على أسارير وجهه.

ابتسم لين وقال: «ألا يبدو لك هذا إشارة واضحة؟ لقد توقف ذلك كله فلا بد أن جيش الشعب الوطني منكب على المذيع يسمعه منتظراً هذه الإشارة، لا بد أنهم أطلقوا صيحة نصر كبيرة الآن».

«بِهذه السرعة؟»

لمس يدها وسألها: «ابقي إذا أردت البقاء، أنت متعبة؟ أنت ترتعدين».

عرف أن ذلك غير حقيقي، كانت تدور حول نفسها من الخوف وإذا أقدم على حركة خاطئة فسيفقدوها.

«استلقي وارتاحي».

جهزت الإبرة وحقنته وقالت: «هذا هو الأهم الآن».

استلقت إلى جانبه بتردد، ورغم أن أمامها ساعات من العمل على إصلاح الكاميرا، كان جسدها يرتجف مقابل جسده رغم الحرارة.

وبعد أن أجرى المخدر مفعوله على لين نهضت من جانبه وقامت تحسب كبسولات المضاد الحيوي والمورفين المتبقية.

كان ما تبقى كافياً ليوم آخر، لقد كان ثمنه في السوق السوداء يعادل ثلاثة أضعاف ثمنه الحقيقي، ولكن لم يكن هنالك مجالاً للمساومة، وفي كل الأحوال مع حلول الأسبوع القادم لن تبقى هناك سوق سوداء للدواء بأي ثمن كان..

قام أطباء المشفى الفرنسيّ منذ يومين بتنظيف جرح لين وهو جالس على مقعد خشبيّ جاف في الزدهة، وكانت الغرفة مليئة حتى آخرها، ولم يتبقّ هناك أيّ دواء. أخبر الطبيب هيلين أنّ عليها إحضار البنسلين بنفسها، وأعطأها أسماء بعض الصيادلة المناوبين.

كانت الرصاصة قد دخلت من زاوية مرّقت الأنسجة في طريقها. أمر الطبيب الممرضة الشابة أن تخطط الجرح بالإبرة التي أعطأها إياها. لم تكن لديها الخبرة الكافية فخاطت قُطباً عريضة وغير مُنتظمة.

قالت لها الممرضة: «خذيهِ إلى المنزل إذا أردته أن يتعافى، ليس لدينا أيّ دواء أو طعام، إنهم يتركون المرضى دون عناية..» هزّت هيلين رأسها واستأجرت كرسيّاً بعجلات من الشّارع، بينما ساعدها اثنان من الخضر يرتديان ملابس قديمة على إخراج لين من الباب وإنزاله عبر الدّرج، كانت ذراعاه ممدودتين على كتفي الرجلين كالمصلوب.

كانت هيلين تمسح جرح لين بانتظام وأراحها أنّه توقّف أخيراً عن النزف. كان الجلد أحمرّ ومنتفخاً حول مكان دخول الرصاصة وحول الجروح الخارجيّة، وكانت قد جابت المدينة طوال اليوم لتحصل على مضاد حيويّ أصلي بعبوات مغلقة، تعرّفت منذ أن كانت في الميدان على الإشارات التي تعني أنّ حالته بدأت تسوء، كشحوب الجلد، والعرق اللّزج الذي لا يجفّ،

كان لين بخير حتى الآن، مع أن الحمى أفلقتها، كانت إصابته ذنبها منذ البداية.

قادا السيّارة إلى ضواحي المدينة ليصوّرا ما كان الرئيس (ثيو) ينكره رسمياً، من أن ثلاثة ملايين من الناس نزلوا إلى الشارع، وأن سايفون أصبحت فائضة باللاجئين، وأن جيش فيتنام الجنوبي كان يغلق المعبر إلى المدينة محاولاً فرض السيطرة عليها كسفينة في البحر. كان يلوم الجميع على قراره بترك منطقة (الهاي لاندز)، وكانت مشاهد الفوضى على الساحل تتجاوز مطارات (دانانغ)، حيث كان الناس يتمسكون بالطائرات الراحلة إلى الخارج لعدم السّماح لها بالإقلاع. النساء والأطفال الذين وطئتهم الأقدام جعلوا الجميع قلقين من الكارثة التي تحدث في سايفون.

بداية من (مارتن) إلى كل من تعرفهم في السفارة الأمريكية، كان الجميع مذهولين من خسارة الأمريكان الوشيكة، ونسوا أمر الفيتناميين. كان التفاوض ما يزال متاحاً مع أن الفيتناميين الشماليين أبدوا عدم رغبتهم بذلك، حاولت هيلين بيع الصور التي التقطتها للمصيبة التي حلت بمعلمة الفنون التصويرية الفاسدة، لكن غاري أخبرها بصراحة أن اقتتال الفيتناميين فيما بينهم لن يتصدّر الصفحة الأولى بعد انسحاب الجنود الأمريكان. كان العالم قد ملّ طول تلك الحرب الوحشية الغبية. وكانت الصحافة قليلة في البلد حتى منذ عدّة شهور خلت، لكن البلد كانت غارقة بالصحافيين، الآن ينتظرون التسليم ليستطيعوا كتابة النهاية ويطيروا عائدين إلى بلادهم.

كان لين غاضباً طوال الأشهر الماضية، غاضباً من سخافة الحكومة، مع أن هيلين شكّت أنه غاضب من غدر أمريكا

الوشيك. كان أمراً واقعاً أن فيتنام الشماليّة كسبت الحرب، وكان دور الحكومة يقتصر على تسهيل تسليم آمن لتجنّب حالة ذعر يمكن أن تؤذي عدداً أكبر من الناس، تشدّقت الحكومة بالحفاظ على السّلام والنّظام، حتّى بعد أن انتشرت السّلطات كالجرذان تحت الجميع على مغادرة المدينة. أصرّ لين بعد أن فقد مزاجه الهادئ الاعتياديّ على إثبات كذب (ثيو) بأن أسلحة الجنود انقلبت على شعبهم.

انزلت سيارة التاكسي لين وهيلين بعد مسافة عدّة أبنية بعيداً عن متاريس الجنود، فعبروا الرّقّاق ببطء حتّى أصبحوا خلف جنود مدرسة الفنون التصويريّة تماماً، أولئك الجنود الذين كانوا آخر مظهر من مظاهر وجود السلطة الحكوميّة، كانوا مسلّحين ويواجهون بحراً من اللاجئین سواء كانوا رجالاً أم نساءً أم أطفالاً يموتون من قلة الطّعام والماء، والعديد منهم لم يكن لديهم شيء يخسرونه، حاولوا عبور حصار الأسلاك الشائكة والرّصاص.

تمّ تحذيرهم إلا أحد سيساعدهم إذا أوقعوا أنفسهم في المشكلات. أظهر لين غضباً شديداً وجرّ هيلين معه في غضب أيضاً. كانت تلتقط صوراً للحشد حيث كان هناك تيّار من النّاس على يسارهم. ارتعب جنديّ صغير السن لا يبدو عمره أكثر من خمسة عشر عاماً وأفرغ في الحشد مشطاً من مسدّسه الأوتوماتيكيّ، هزّته ردة الفعل كما لو هزّه عملاق يمسكه من كتفيه، فاستدار إلى جانبيه محاولاً إحكام قبضته على المسدّس. ارتدّت رصاصة من جدار إحدى الأبنية.

استمرّ لين في مشيه، تعثّر وتابع المشي. هذه هي الطريقة للبقاء حياً. ينغلق العقل في مثل هذه الحالات. تابع مشيه على

الزَّغَم من كتل الدَّم التي كانت تزيد وتلطّخ قميصه. مشى كأنه سيموت ماشياً.

نادته هيلين «لين». رأت الدَّم فسحبته ليجلس على جانب الطريق ورفعت قميصه. كان الجرح على طرف بطنه. ضغطت إصبعها على فتحة الجرح وشعرت بالمعدن كلما تلوى هو، فأراحها أن الرّصاصة لم تنفذ عميقاً. استخدمت هيلين قميصه لتضميد الجرح. مسحت يديها الملطّختين بالدماء بينظالها. إنه لمن السّخرية أنهم أفلتوا من مواقف أكثر خطورة، لكن هيلين أصبحت الآن مؤمنة بالخرافة أكثر من الفيتناميين وعرفت أن لكل امرئ نصيباً معيناً من الحظ، وأنها ولين تجاوزا مرحلة الحظ في حياتهما.

استيقظت هيلين على أرضية شقّتها، وهي تفرك رجلها بيدها، وقد أربعها كابوس آخر. وقفت على رجلها المتيبّستين ومشّت باتجاه الخريطة المعلقة على الجدار. مازالت فكرة فيتنام بعيدة عنها بعد هذا الوقت كلّه، كما كانت تماماً في صغرها عندما كان والدها يدرس خريطة الهند الصينية الفرنسيّة. كانت بالكاد تذكر وجهه، وتتمنى ألا تكون صورته في ذاكرتها هي صورته الصحيحة، لكنّها تذكّرت أكثر حين مشّت بإصبعها على تلك الخريطة لتري مواقع البلدان، وشعرت بشعور الغازي المتملك بفعل تلك الحركة وحدها. والآن بعد أن قضت عشر سنوات في ذاك البلد جنوب فيتنام، ذاك البلد الذي لم يكن موجوداً في الخرائط، لكنّها مع ذلك لم تملك شيئاً منه، وخلال فترة قصيرة ربّما أيام، أسابيع، أو أشهر سيختفي مرّة أخرى.

لم تتخيّل نفسها أنّها ستعيش تلك الحرب. كان ذلك البلد فكرتها عن ذاتها وسيمرّق جزءاً من نفسها إن غادرته. كان (دارو)

قد استقرأ ذلك، فقد قال لها إنه لن يستطيع المقاومة بالطريقة التي قاومت بها، وقد غيّرت طريقة مقاومتها، الأمر الذي أسعدها. فبالأمس كانت تلك الفتاة التي يمكن أن تضع في جبال (أناميتي) البريّة، تلك السلسلة الواقعة خلف (الهيايلاندز) وتنطوي ممتدةً إلى (لاوس).

عندما أيقظها لين قبل الفجر كانوا على وشك تصوير مهمة حملة قوات استطلاعية، كان الخضر لا يزالون في الخارج يشاهدون شروق الشمس وهي تلون الجبال الغربية بالأخضر بدلاً من الأرجواني الأسود الباهت. مع الكثير من الظلال الخضراء، قال دارو: إن الأسطورة الفيتنامية تقول بأن كل ظلال اللون في العالم قد أتت من هذه السلسلة الجبلية. حتى زمردة التين الخضراء التي أتت منها الشعب الفيتنامي كانت عمياء حتى رأت تلك الجبال، لكن بعد أن رأتها غاصت تحت سطح الحرب ووجدت البلدة.

تنهّد لين في نومه فوضعت هيلين يدها على عضلة ساعده القويّة النحيلة، محاولة إبعاد الأحلام المزعجة عنه. وثرثرتها الطريقة التي تتبعها بها عيناه الداكنتان، كأثمه لم يكن واثقاً بقلبها. منذ زمن طويل تجاوز طموحها الأشياء المحسوسة وأغرمت بالصّور بدلاً من الأشياء الحيّة، ما عدا لين.

تأوّه لين فحاولت إمساك نفسها بأن ضغطت بأصابعها على كفّها حتى تركت آثار جراح هلائية. لقد جلبها موثٌ أخيها إلى الحرب ولكن لماذا بقيت هنا؟ هل لأنها أرادت تجربة لم يكن من المفروض أن تكون تجربتها؟ هي فقط أرادت الانضمام إلى إخوة أبعدها عنهم أبوها وأخوها. ماذا عنت لها كل تلك الصّور من السنوات الماضية. الشيء الوحيد الذي تستطيع فعله الآن هو

إنقاذ لين. لقد أغضبها رفضه أن يغادر من دونها، وعدته ابتزازاً عاطفياً، لكنها افترضت أنه حان وقت التقاط الصورة الأخيرة حتى لو لم تكن هي من ستلتقطها.

رأت انعكاس وجهها في العدسات الغبراء وبدأت ملامحها محدبة. هل كان يمكنه الوثوق بها؟ كانت مستعدة أن تُقتل لأجله. وكانت على استعداد أن تبقى حية لأجله.

أنهت تنظيف وتجهيز معداتها قبل الفجر بساعة. وكان داخلها مختلجاً بمزيج من قلة النوم والأعصاب المتوترة، فغلبها النوم وغفت على الأرض بجانب السرير.

استفاقوا على أصوات قذائف الهاون المجلجلة على طرف المدينة. نهضت بحركة سريعة إثر تأثير وخز من الأدرينالين اعتادت أن تشعر به عند قرب حدوث عملية حربية.

ابتلعت حفنة من المنشطات وهي تسخن الماء من أجل الشاي. وقامت بحزم حقيبة ظهر صغيرة ووضعت بجانب الباب حقيبتين لونهما أسود، وكانتا مختلطتين ومملوءتين بأفلام كانت قد صورتها خلال الأسبوع الفائت. خلال السنوات الثلاث الماضية لم يكن أحد مهتماً بصور فيتنام المدمرة؛ لذلك كان عليهما هي ولين عمل قصص تخص المعونات الإنسانية والأزمة الوشيكة في كمبوديا للحصول على المال. لقد أصبحت كمبوديا الآن خارج القائمة بعد غزو (الخمير الحمر)، لكن عندما سقطت فيتنام الجنوبية بشكل فعلي أصبح تسجيل مقال موثق بالصور عن الحدث مطلوباً جداً.

كانت قد صورت أكوام الجثث التي تحولت إلى اللون الأسود في مدينة (خوان لوك)، ودارت في أنحاء المدينة ملتقطة صوراً للاعبين الأساسيين على المسرح السياسي في حكومة سايفون،

(ثيو) والنائب (كيي)، اللذين أقسما على الصمود والقتال، بينما كان الحمالون في أماكن سكنهم الخاصة يكذبون الأنتيكا والتحف القيمة وتمائيل بوذا المطلية، وتمائيل خيول خضراء ومرجان شفاف منحوت على شكل أسماك وسلاحف، كل ذلك مكذب في حدائق بيوتهم للشحن خارج البلاد. وكان لديها الكثير من صور الناس المحكوم عليهم بلا تمييز وبلا مخرج لهم، وبمجرد النظر إليهم أحسّت بها جس يشبه الماء بسيطاً في الأسنان.

ربما ثبتها ذلك الحال لتبقى شاهدة على الحرب، وربما كان لذلك الحال الفضل في أنها أدت دورها في الحرب على أكمل وجه.

وقفت تحتسي الشاي بجانب النافذة وهي تنظر إلى السماء الملبدة بالغيوم التي يتدرج لونها من القصديري الفاتح إلى البني بلون الطين ويتحول إلى البني الرمادي بلون الأرض المحروقة. صار النسيم حاداً ورائحة المطر تعد بحلول رياح موسمية قوية. كانت سايفون محبوبة لأنه بالتحديد لا أحد يحبها سواء لقدارتها أو لفسادها السياسي أو لنحسها الإنجيلي، أو لحثفها الوشيك الذي يحوم حولها.

نظرت ورات لين مستيقظاً إثر صوت صرير السرير بفعل نهوضها عنه.

سألها: «بماذا تفكرين؟».

«حان وقت الذهاب إلى المطار، حقائبنا هنا وأوراقك هناك في الأعلى».

«اتفقنا أن تذهبي إلى حوض السفن وتصوري إخلاء القوارب ثم نتوجه إلى المطار».

«وهل لصورة إضافية تلك الأهمية؟» قالتها بصوت خافت لدرجة أنه بالكاد سمعها.

«أما ألا يكون لأية صورة أهمية وأما تكون جميعها مهمة.. هزت رأسها ولكن بغير اقتناع: «أحس بشعور سيئ».

«لدينا متسع من الوقت».

كان يسحبها للخلف بلطف من أي مكان يمكن أن تندفع بالذهاب إليه. تحركت بعصبية نحو السرير وكشفت غطاء لين. كان جلده منتفخاً وملتهباً وحاراً الملمس، كان قد تجعد بالقرب من القُطْب التي قامت بعملها الممرضة، كان أشبه بالعجين المختمر. عضت هيلين شفرتها عندما أعادت تغطيته. ورات تجويفاً جديداً حول عينيه.

قالت: «أتريد جرعة أخرى من المضاد الحيوي؟ مع أن الوقت لم يحن بعد».

وأضافت: «سأعود بعد الظهر. أدر المذياع واستمع».

بدا لين شارداً لكنه هز رأسه، لقد خافت هيلين من أن تكون حالته قد ساءت، ساعدته في الوصول إلى الحمام ثم أعادته إلى السرير. عليها أن تستأجر دراجة أو سيارة أجرة لنقله. وضعت إبريقاً وكوباً من الشاي على كرسيّ بالقرب من سريره.

«سأعبر (نيوبورت) وأعود وسوف نبداً حالاً».

قال لها لين: «أذهبي»، وبدأ بالغناء: «أحلم بالكريسماس في ثوبه الأبيض...».

ابتسمت لكنها حسبت حساب كل مشكلة يمكن أن تعترض طريقها. افترضت أنه يمكنها التخلص في أي وقت، لكن أقلقها أن لين بات أضعف من قبل. وستكون الرحلة صعبةً عليه إلى حين وصوله إلى أحد المرافق الطبية.

قال لها: «أسرعي واقضي مهمتك الأخيرة في سايفون دون أي شعور بالندم».

فتحت الثلاجة الوحيدة في المبنى، وملأت جيوب ثوبها بلفافات أفلام جيدة. سحبت رباط الكاميرا عند الباب ولبسته من رقبتها وأغلقت أزرار ثوبها.

فتحت الباب وظلت واقفة، ما زالت مترددة. «إذا تأخرت فاجعل تشونغ يساعدك في تحميل كل شيء على عربة نقالة وسألقاك عند المطار. هل تسمعي؟»
كان صامتاً يحدّق في السقف.

«لين؟»

قال لها: «إذا لم تعودي فسأبقى».
«سأعود بالطبع، فقط كن جاهزاً».
فشلت الحيلة الفاترة، لم يكن ليدعها تذهب بهذه السهولة.
«هل فهمت يا ملكة الحفل؟»

تظاهرت بأنها لم تسمعه وأغلقت الباب بقوة ونزلت على الأدراج الخشبية المتشققة التي تفوح منها رائحة الأرز والكبريت ونيران الطبخ. كانت قد وصلت الشارع قبل أن تسجل الغياب المستمر لتشونغ تحت الدرج، كان هذا ما تخشاه، الاختفاء المستمر لشخص تعتمد عليه.

توقفت دراجة سيكلو عند إحدى الزوايا المزدحمة وقفزت أمامها هيلين قبل أن تعطي فرصة للسائق بالاعتراض. وبعد جدال قبل السائق صعودها معه على مضض على أن يوصلها إلى نهر سايفون مقابل أن تدفع له ثلاثة أضعاف الأجرة الاعتيادية. قرر الناس الخروج من مخابثهم على الرغم من حظر التجول الذي استمر أربعاً وعشرين ساعة، وعلى الرغم

من فرقة الأسلحة الصغيرة المتكررة حولهم. توقف سائق السيكلو على بعد ميل من ضفة النهر ونزل من مقعده رافضاً الاستمرار. وبعد أن تدمرت هيلين وجه إصبعاً ملتويًا إلى جدار البشر الصلب. نزلت وقالت له إنها ستدفع له ضعف أجرته مرة أخرى إذا انتظرها لساعة. لكنه استدار وعاد إلى البلدة دون أن يقول كلمة واحدة. كان الوقت أعلى من المال هذه المرة.

انتشرت شائعة أن رجلين سقطا في الماء ولقيا حتفهما بين قوارب الإخلاء.

كان لذاك الهواء النتن رائحة خوف ورائحة بعض الجيف. وبينما كانت هيلين تقرر ما إذا كان عليها المخاطرة بالدخول إلى الحشد والبقاء هناك لساعات، لمحت (مات تانر) خلف أحد المتاريس الصلبة مع مصوّر آخر. وأسعدتها رؤيته وإن كانت العلاقة بينهما تنم عن صداقة زائفة، فكلاهما عرضة للخطر، لَوْح بيديه إليها.

«مشفى للمجانين، أليس كذلك؟»

كان (مات) طويلاً ومنحدر الكتفين بوجه ذئبي ضيق، وعندما يضحك - وكان ذلك أمراً نادراً - كان يُظهر فماً مليئاً بالأسنان الحادة.

«هذا دمٌ جديدٌ اسمه (مات كلارك). كلانا اسمنا (مات).»

قالت: «لا يبدو الوضع جيداً».

«هل أنت باقية أيضاً؟» سألتها (مات) الجديد. كان صغير السن بشعر أشقر مبيض طويل على شكل ذيل الفرس، ويرتدي كنزة سوداء تملؤها إشارات ورموز التنجيم. لم تكن تحب النُسور التي حوّمت فوق رأسها الآن ولم يكن ذلك خفياً على أحد.

«هل أنت خارج بعد الظهر؟» قالت وهي تشاهد الحشد

ورأسها يلامس الصليب المتداعي للمتراس الخشن، كان ذلك نتاج صفقات رخيصة وعقود حكومية خاصة بفيتنام الجنوبية، كان قد بُنيَ ضعيفاً من أجل الرّيح، وكان يتفكك أصلاً ويتحلل إلى رمال بسبب الرطوبة المستمرة، فكان يجب أن يكون من الفولاذ المقاوم للصدأ لكثرة ما دفعت لأجله المساعدات الأمريكية. نظرت إلى الأسفل ورأت مسحة من اللون الأحمر، كانت الحواف الصلبة للمتراس قد أعادت فتح الجرح في إصبعها.

سحب تانر منديلاً ولقّاه حول إصبعها: «لا داعي أن تنزفي دماً، إنها حتى ليست بلدك». «نسييت».

«المطار أسوأ من ذلك، إن جيش فيتنام يطلق النار على الحشود، خاصة الذين يملكون تذاكر خروج، كان يغضبهم هروب البشر. أليس كذلك؟».

«لم أسمع بهذا». كان هناك خطأ وشيك الحدوث. أخبرتها السفارة أنه بقي أسبوع قبل بداية الأزمة الحقيقية.

«أردت أن أنجو بنفسني بعد أن سمعت ما قالته السفارة، اذهب بسرعة، بسرعة، بسرعة. أعتقد أن حدثاً سيحصل اليوم وهم لا يعلنون عن وجوب تفادي الرعب، كان من الصعب الانسحاب». هزت هيلين رأسها، لم تعجبها الطريقة التي نظربها إليها والغرور الذي بدا في ابتسامته. كان سلك الصحافيتين يعرفون أسرار بعضهم كعائلة ممتدة ومختلة. استخدم (تانر) ظفر خنصره ليحك داخل أذنه.

«لقد أردت الاتصال بك، أما زال ذاك الفيتنامي يعمل لديك؟».

«اسمه لين».

«بقي اثنان انتظاراً للتحول المرتقب. كانوا يقيمون حفلات الكوكتيل على سطح فندق كارافيل ليشرىوا نخب المنتصرين، إنها أحداث ذكورية بحتة. وكنا بحاجة لأحد ما من أجل الترجمة». «إنه ذاهبٌ معي». نظرت هيلين إلى عيني تانر نظرة تحدّ. حدّق هو إليها بعينين نصف مغمضتين وسألها: «هل أنتما متزوجان؟».

الجميع شكّ بذلك ولكن لم يمتلك أحد اليقين. هزت هيلين كتفها.

«إذاً يا عزيزتي كنت قادرةً على الوصول أمس بسرعة». «لماذا تبقى في هذا المكان؟».

«أذهب وأفوت على نفسي أكبر سبق صحافي؟ أنت محقّة. هذا جنون». نظر إلى الحشد وتراجع قليلاً.

«بصراحة عمري خمسة وثلاثون عاماً ولم أربح جائزة (بوليتزر) حتّى الآن. إذا لم أخرج بها من هذا المكان فسيكون من الصعب عليّ العودة إلى (دي موين). سأقامر بحياتي».

كانت رغبتهـا هي أن تبقى، وأن تمشي إلى حافة الماء بينما يتمّ إخراج الجثث، أرادت تصوير الوجوه اليائسة من الرغبة في الرّحيل. وجدت استنتاج (تانر) كريهاً لدرجة أنّه جعلها تأخذ قراراً واضحاً جداً. عضّت خدّها من الداخل وثبتت غطاء العدسة، فالوقت الذي حسبته كافياً لإيصال لين إلى المطار كان قد مضى.

قال مات الجديد: «أنا آسف لأنك لن تحضري الحفلة». «وأنا أيضاً».

نظر تانر إليها بقوة وقال: «اعتني بنفسك، فقد دفعت مستحقّاتك مسبقاً هنا، أليس كذلك؟».

استدارت هيلين عائدةً إلى البلدة وهي تشق طريقها بين الذين تمّ إجلاؤهم. كان هناك نهرٌ من الناس كلّ منهم منكبٌ على متابعة قدره الخاص، لا يرون الذين من حولهم. مع أنّ هيلين بدت أطول من معظم الفيتناميين لكنها واجهت صعوبةً في تفادي التدافع باتجاه ضفة النهر. كان الرجال والصبية يتدافعون بأذرعهم وأكتافهم، وقامت امرأة متوسطة العمر بدفع هيلين بقسوة في كتفها بعربة ممتلئة بأغراضها ومقتنياتهما. هل ظلّوا حقاً أنهم قادرون على الهروب والنّجاة بحياتهم وترك مجموعات التلفزيونات والخزائن المليئة بالثّحف وراءهم؟ لكنّها فهِمت الغريزة الكامنة في داخلهم، فمن العسير التّخلي عمّا تمّ اكتسابه بتلك السهولة.

هي نفسها، ماذا أخذت؟ ما الذي امتلكته بعد عشر سنوات من الثّفاني؟ كيمونو، كاميرا، وبضع صور قديمة عن حياة مضت وانتهت؟

قلّ الازدحام بعيداً عن حوض السّفن. كانوا يحومون حولها كأنها صخرة في جدول. ألمها جسدها من الإرهاق والتعب، حاولت أن توقف (سيكلو)، ولكن جميع وسائل النّقل استولت عليها العائلات لتنقل مقتنيات منازلها بعيداً، لذا عادت إلى بيتها سيراً على الأقدام.

كانت الساعة مازالت العاشرة صباحاً في الوقت الذي عبرت فيه باب المبنى الذي تسكنه، شعرت أنّها لم تخلد للنوم لأيّام عدة وليس لساعات. وعلى الدّرجة الأولى من السّلم كان الصّبي تشونغ واقفاً مذهولاً لرؤيتها. كان واحداً من أولاد الشّارع القلّة الممتلئين، يقترب من حد السمنة، وشعرت هيلين بالكدر لأنّ نقودها هي التي أوصلته إلى الانغماس الشّديد في الطّعام، كانت كنزته الحمراء مشدودةً ضيّقةً على بطنه.

وما إن فتحت فمها لتهمّ بالكلام سمعا صوت جلجلة قويّة
كأنه صوت سقوط شيءٍ ثقيل، نظروا إلى السّقف لكن لم يصدر
صوت آخر.

سألته هيلين: «أين اختفيت؟ لم أرك منذ أيام».

«الكثير من الأشياء المهمة حصلت، فقد أتى عدّة جنود هذا
الصّباح يبحثون عن أشياء أمريكية جيّدة ليسرقوها، فقلت لهم
كلّ شيء قد سُرق وليس هناك في الأعلى إلا عجوز فيتنامي
يحتضر، فرحلوا».

«جيّد»، قالت هيلين وهي تبتلع خوفها بارتجاف سريع، فمن
المحتمل أن يكون تشونغ قد قادهم إلى المبنى ليستولوا على
أشياءها. لم تعد هيلين تثق بذلك الولد، وهي الآن تحاول أن
تعرف فقط مدى خطورته: «أبليت حسناً».

ظلّ الولد واقفاً على الدّرجة الأولى من السّلم كصاحب
مُلْك نَزَق.

«حسناً سأدفع لك الآن». سحبت رزمة سميكة من النقود
مجعدة وناعمة كمنديل. وبينما كانوا تفقد قيمتها يوماً بعد
يوم كانت هناك حاجةٌ للكثير والكثير من الأوراق لإنجاز أيّ
شيءٍ. «خذ، هذه الكميّة كفيّلة أن تشتري لك أشياء بقيمة راتبك
القديم».

نظر الولد إلى النّقود في يدها الممدودة ولم تعجبه، فلحس
سبّابته وسوّى حاجبيه. «هؤلاء الجنود في غاية السّوء يقتلون
كلّ من يكذب عليهم».

أخرجت هيلين نقوداً أكثر من حقيبتها ودفعت له مع أنّه كان
غائباً منذ أيام، ولتحتفظ ماء وجهها كان يجب أن تلخّ عليه لكنّها
فقدت رغبتها، وفي هذه المرّة لم يظهر الامتنان الذي أظهره منذ

سنوات عندما بدأت بمساعدته، وكلّ ما تلقّته منه كان بسمّة متكلفة، وقبل أن تتمكّن من أن تطلب منه إحضار سيكلو قفّز تشونغ على الدّرج ومضى عابراً الباب. كان الهواء داخل شقّتها أزرق وغنيّاً برائحة البخور.

كان لين جالساً بثبات على كرسيّ مواجه للنّافذة. لم يلتفت إليها عندما دخلت وكان ذلك يسبّب لها شعوراً دائماً بالخيبة. سألته: «كيف أصبحت؟».

«هل حصلت على صورك؟».

«بالتأكيد حصلت عليها». قالتها، ووضعت ذراعيها حول عنقه وكانت رائحة الصّابون تفوح منه بدلاً من رائحة العرق والمرهم.

«هل كنت مستيقظاً؟».

«نعم أخذت حماماً وحزمت بعض الحقائق».

جلسَتْ إلى جانب كرسيّه محدّقة في رفرفة الأزهار الحمراء إثر الرّيح القويّة الرّطبة.

«كانت الأغصان الرّماديّة الملتوية تنحني تحت الأزهار السّمينّة الملتهبة، كانت كثيفة جدّاً، ولم يكن هناك أيّ أثر مرئيّ لأية ورقة خضراء».

قال لين: «أتى المطر مبكراً هذه السّنة فالشّجرة تزهّر باكراً».

«هذا نفسه هو ما حدث السّنة الماضيّة والسّنة التي قبلها».

قال لين: «يبدو مبكراً».

قالت هيلين: «أتمنّى أن نبقى في هذه الغرفة ولا نتركها أبداً».

كان هناك مسدّس على الأرض بجانب الجدار، وهو مصدر الصّوت الذي سمعته عند الدّرج، لكنّها لم تسأل. كما أن لين لم يصرّ على سؤاله إن كانت قد حصلت على صور إخلاء القوارب أم لا.

تلك الرقصة الرقيقة المعتادة التي رقصاها حول الحديقة. حقيقتها هي أنها أرادت الاختباء في تلك الغرفة وأن تغدو غير مرئية، كما لو أن ورق الجدران المهلهل والباب الرقيق سيحميها. هناك خارجاً في الشارع شعرت بالضعف من دون كاميرتها، لم يعلم أحد بنوبات الرعب التي تنتابها والتمن الذي دفعته. فضلت أن يتم إطلاق النار عليها من الباب أو من وراء الستارة، وأن يكون سبب موتها غير معروف، كانت تريد أن تموت في خصوصية تلك الغرفة.

ذهبت هيلين إلى الطاولة وبدأت بوضع أسماء على الأفلام التي التقطتها في اليوم الماضي، لا شيء غير اعتيادي أو أن غير الاعتيادي بات عادياً. أعاد لين حزم حقائب الأفلام بطريقة أفضل من هيلين، ووضع قميصاً مطوياً في أعلى الحقيبة، طواه بطريقة كأنه معروض في أحد المحال، رأت هيلين بارقة أمل في الطيات المرببة للملابس المجعدة، قميص جديد لبدء حياة جديدة، كان عليها الذهب، ثم هيمن عليها إحساس كفولاذ دخل جسدها. خرج كل شيء من حب أو خوف من جسدها وكل ما تبقى هو التصميم.

قالت: «أخبرني تشونغ عن الجنود».

«أي جنود؟».

«كانوا في الأسفل وهو قام بإبعادهم».

«لم يأت أي جنود، كنت أتطلع من النافذة منذ أن غادرت».

هزت هيلين رأسها متفاجئة من سذاجتها وسألته مشيرة بذقنها إلى السلاح: «هل كنت ستحرس الشقة؟».

نظر لين إلى المسدس كأنه يراه لأول مرة وقال: «كنت سأقتل نفسي إذا أتوا».

ابتلعت هيلين أنفاسها. رغم أنها تقيم منذ أمد طويل في فيتنام لكنها كانت لا تزال تأخذ الأمور بخفة مواطنة أمريكية. إن قبول لين السريع بالسيناريو الأسوأ ذكرها بأنه لم يكن صعباً أن يكون المرء شجاعاً عندما يتيقن من وجود طائرات الهيلوكوبتر لتأخذه إلى الوطن حيث الأمان.

«سنذهب الآن».

أعطت لين الجرعتين الأخيرتين من المورفين آملة أن تكفيه حتى وصولهما للسفارة وتمكن الأطباء الأمريكيين من إعطائه جرعات أكثر، لبست ثوبها ولقت شالاً على رأسها.

وبينما رفعت حقيبتَي الأفلام فتحت زاوية إحداهما وتسرب منها شرائط أفلام كانت قد صورتها، كانت الحقيبتان مهترئتين وبالييتين، وقد أصبحت أطرافهما الكرتونية أكثر طراوة. كانت هيلين قد رفعتهما بشريط كهربائي لأنه كان الوحيد الذي لا يفسد من الرطوبة.

«لحظة واحدة». وذهبت لإحضار شرائط أكثر لربط الروايا.

سألها لين بعد أن نفذ صبره: «لماذا لا تشتري حقيبة جديدة؟». كانت الحقيبة فقط مثالاً آخر على تعاملها الصعب مع الأمور والذي وضع كليهما في حلقة الخطر. كان يعرف مع ذلك أنه إن ضغط عليها فإنها ستقف فجأة كفرس قوي.

قالت هيلين مستخدمةً سكيناً لقطع ما تبقى من ذيل الشريط الكهربائي: «أعلم، سأفعل».

ككل شيء آخر كان الأمر بسيطاً، أرادت فقط أن تنهي وقتها هناك، ولكن ككل شيء آخر أصبح الشيء الوقتي وضعاً مستديماً.

حمل لين حقائبهما على كتفه السليم، وقامت هي بإغلاق باب الشقة الخشبي تاركة الضوء الأحمر يضيء، وأسرعت نازلةً

على السلم، لقد تغير مسار الرحلة أمامهما كما في حكاية خرافية، حتى أصبح صعباً بما يفوق الخيال.

في الخارج اندمجا في حشد من الناس وتنقلاً معهم، كان الضجيج الشبق يصم الأذان، فالعائلات تتجادل حول أي الاتجاهات تسلك، والأطفال يبكون، والكلاب تنبح، وفوق هذا كله كان هناك دوي زمامير الآلات المتحركة التي تحاول شق طريقها في الشارع، وبعيداً في خلفية المشهد كنبض قلب منتظم كانت هنالك أصوات القنابل التي تنفجر. كانت صورة جيش متعطش للدماء تقترب أكثر وأكثر، وجعلت الجميع يهرول بدل أن يمشي، ويدفع من أمامه بدل أن ينتظر. تشوّقت هيلين وألمها المنظر كمن كان واقعاً في ورطة فقد أرادت فقط أن تلتقط كاميرتها وتبدأ بتصوير المشهد. فما نفع العيش في التاريخ إن لم نسجله؟

مشى لين بثبات، ولكن عرجته كانت واضحة أكثر بسبب ضعفه، كان وجهه شاحباً وجلده رطباً بعرق لم يجف. أخذت هيلين نفساً عميقاً لكي لا تظهر رعبها وتحافظ على هدوء عقلها. فقد كان أهم جزء في عملها كصحافية هي أن تحسب الوقت بين التقاط الصورة وما يكفيها من الوقت لتنجو ولا تُقتل، وهي مهارة كانت تحمي نفسها بها وتشحنها بغريزتها. ومع ذلك كانت تتجاهل غريزتها وتسمع كلام رجال السفارة بأن كل شيء سيتكشف ببطء. كانت قد قطعت ذاك الخط الزمني بنصفه ومع ذلك كانت لا تزال متساهلة في حساباتها. البارحة عندما أخبروها أن المدينة لن تسقط وأن الأمريكيين وتوابعهم سيخرجون مع مرور الوقت، كان عليها الذهاب إلى المطار في ذلك الوقت.

في طريق (تان دا) المليء عادة بالمطاعم كان هناك قضبان معدنية على جميع النوافذ والأبواب.

وكان من الصعب المشي بجانب المبنى بسبب تراكم تلال القمامة، وكان من الصعب أيضاً المشي في الشارع دون التعرض للدهس. تحرّكت هيلين أمام لين لتقوده إلى الطريق الأسهل بين الحطام المتناثر في الشارع. كان الزجاج يتحطّم تحت الأقدام وكان الناس يتركون أشياءهم ومقتنياتهم ويذهبون. الملابس في كل مكان، والأكياس البلاستيكية ممتلئة بالأغراض المنزلية وقطع الأثاث ودراجات صدئة قديمة وآلات خياطة وأغطية أسرة مهترئة. قادته هيلين إلى جدار المبنى. انحنى لين ممسكاً بجانبه وملتقطاً أنفاسه وهو ينفخ الهواء من فمه المفتوح. كانت هيلين تكره نفسها أكثر وأكثر كلما رآته يعاني.

سألته: «هل أنت بخير؟».

«أريد هواءً أكثر».

أحسّت بقميصه المبتل بالعرق وقالت: «أعطني الحقيبة».

«خذي كل الحقائب».

«سنتحرّك أسرع».

هرّلين رأسه وأعطاهما الحمولة. وقفت الحركة أمامهما بسبب نقطة تفتيش. ساعدته هيلين على الوصول إلى باب أحد المباني وتركت الحقائب معه.

وبعد خمس دقائق عادت ووجهها عابسٌ وهي تلتقط الحقائب، لاحظ لين يديها ترتجفان.

«تعال نعد أدراجنا، فبعض ضباط جيش فيتنام يبحثون عن الهاربين من الجندية لإعدامهم على الفور، ولا أريد أن تقع عيونهم على أوراقك».

عادوا مسافة بناية إلى شارع سوق (آن دونغ) وعلى أطراف الطريق كان هناك الكثير من المسنين منتشرين على الأرض

والياس يملأ وجوههم، وعلى زوايا الطرقات أطفال منفصلون عن عائلاتهم يرتجفون رغم اشتداد الحرّ وعيونهم ترفرف بسرعة ممسكين بقوة بما كان لديهم من ملابس أو ألعاب. كان كلّ شيء يتجمّع في تلك اللحظة في الحرب عندما يقاتل الأقوياء من أجل البقاء ويسقط الضعفاء. كانت الحضارة وسيلة راحة في وقت السلم.

كانت ساعة الوقت الذي يضيّعونه تدقّ في رأسها، واكتافها تؤلمها من الحمولة التي معها. عرف الجميع أنّ السفير مارتن كان متوهمًا باختبائه في السفارة خائفاً من أن يستولوا عليها كإبراء للذمّة. لكنّ هيلين حسبت هذا الحساب عندما جاءت الوسطة الصعبة بأنّ الجيش الأمريكي لن يجرؤ على الرحيل حتّى خروج آخر أمريكي وكلّ من يتصل بهم من فيتناميين. فهم لن يستطيعوا تحمّل خسارة إعلاميّة بهذه الصورة، واستمرت الرحلات أيّاماً إن لم يكن أسابيع. لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للسفارة البريطانيّة التي تركت كادرها الفيتنامي وراءها بكلّ برود. كان من المحال توقّع سقوط المدينة خلال ساعات، وبما أنّه كان عليها أن تعبر طريقها سيراً على الأقدام مع حقائبها ومع لين الذي كان يعتريه الضعف أكثر فأكثر، لم يكن من المفترض أن تتداعى الأمور هكذا. وبعد مسافة بنائيتين من آن دونغ دلفا إلى شارع آخر مواز لنقطة التفتيش وأخذوا يسيران جيئةً وذهاباً بين الأزقة لتجنّب الجنود، وهم يستهلكان طاقتهما في المشي. ضلت هيلين الطريق عدّة مرّات واضطرت إلى ترك لين وراءها للتحقق من أسماء الشوارع الرئيسيّة. وفي منتصف الطريق في شارع (تران هونغ داو) كان هناك حشد مذعور من الناس بينما تدوي أصوات إطلاق النّار خلفهم والحشد يدوس من يقع أمامه،

وتمّ دفع هيلين على ظهرها بقوة. وفي خضمّ ذلك مدّت يدها إلى لين واندفعا سوياً إلى الرّصيف ملتصقين خلف صندوق قمامة ممتلئ. جلس لين على الأرض المبلّلة وصدره يرتفع وينخفض بقوة.

تحركت هيلين إلى أمام صندوق القمامة ونظرت خلفها إلى الجنوب في مقدّمة الشّارع حيث كان هناك حوالي عشرة رجال مخمورين يبتلعون زجاجات المشروب مرتدين نصف زي عسكري ونصف مدني، ولم يكن واضحاً إن كانوا من جيش فيتنام يحاولون الانخراط بالحشد المدني أم أنهم كانوا قطاع طرق من رعاة البقر المحليين متنكرين كجنود ليتمكّنوا من نهب ما يستطيعون بأقلّ تشويش ممكن. أطلقوا النّار على الحشد وضحكوا عندما رأوا النّاس يطؤون بعضهم في محاولة يائسة للهرب.

كان أحدهم يرتدي قميصاً من السّاتان فوق سروال مموّه مع حذاء عسكري. وجّه مسدّسه إلى مجموعة من النّساء يرتجفن على طرف الطّريق المواجه لصندوق القمامة. أحاط الرّجال بتلك النّسوة وأخذوا واحدة منهنّ، فصلوها عن البقيّة ودفعوها إلى ظلّ أحد البابين.

نظرت هيلين إلى الشّارع آملة أن يكون هناك أيّ إلهاء لهم لإنقاذ المرأة، ولم يكن هناك شيءٌ بإمكانها فعله دون أن تعرّض لين ونفسها للقتل. اعتادت أن تكون شرطة المدينة (الفئران البيضاء) موجودة باستمرار على كلّ زاوية لكن الآن لا أثر لها. وكانت وسيلتها الوحيدة هي إخراج كاميرتها والبدء بالتصوير. ركضت إحدى العجائز من المجموعة، إمّا أن تكون أم الفتاة أو عمّتها إلى الباب صارخة فأطلق النّار عليها أحد

الجنود. وقامت هيلين بالتقاط المشهد. كانت لعنة الصحافة التصويرية في الحرب أن الصورة الجيدة هي بالضرورة صورة للأذى أو للقتل، طرفت عينا هيلين بمشاعر غامرة.

جمع الرجال بقية النسوة مع بعضهن، والأسلحة موجهة إليهن بنية إعدام الشهود كلهم، وفي الصورة في إطار ذلك كله ركضت الفتاة من الباب وانضمت إلى باقي المجموعة بوجه مدمى وسروال ممزق.

وفي صورة أخرى التقطت الوجه الحاد الغاضب لأحد الرجال، وفي صورة أخرى التقطته يدير رأسه وينظر حوله ليتأكد أن لا أحد يرى ماذا سيفعل بعد ذلك، وبعدها ثبت عينيه على هيلين وهي تلتقط اللقطة بعد الأخرى.

صرخ بها «توقفي». فترك الرجال مجموعة النساء وركضوا بأسلحتهم الموجهة إلى الطرف الآخر من الشارع، فهربت النسوة بعد أن تمّ الانتهاء عنهن.

وقفت هيلين وقالت: «أنا من الصحافة والصحافة محمية». كل شيء أصبح أسود وعندما استعادت وعيها وجدت نفسها ملقاة على الأرض ونتوءات الشارع الحادة تنغرس كالأظافر في جلدها، ووجهها مغطى بسائل دافئ ائضح لاحقاً أنه دمها، الجندي الذي ضربها على رأسها صرخ وأشار إلى الكاميرا بمسدسه لكن كل شيء بدا بعيداً حتى الجندي بدا بعيداً كل البعد وكانت هيلين منفصلة عن نفسها بعيدة مستمتعة بسخف الموقف، وكيف أن الجندي أطلق النار على الكاميرا. ألم يعلم أنه هناك دائماً كاميرات أخرى؟ الفكرة الوحيدة التي دارت في بالها الآن أن هؤلاء ما كانوا إلا جنوداً لأنهم لو كانوا قاطعي طريق عاديين لما اهتموا بالصور. أتى جندي آخر وجهه مستدير كوجه

طفل مع انتشار البثور على خديه ووجهه مسدسه قريباً جداً من صدغها لدرجة أنها استطاعت أن تحسّ بحرارة فوهة السلاح الموجه إليها وأن تخمّن بأنه هو السلاح المستخدم ضد المرأة التي قُتلت في الشارع.

أوضح مرور الزمن كلّ شيء، هل أغمي عليها مجدداً؟ أخبراً وجدّته بعد كلّ تلك السّنوات، ذاك الإحساس بالأمان، لم تكن تشعر بالخوف لأي سبب كان، ألم يكن ذلك شيئاً مثيراً للإعجاب بالنسبة لفتاة مسكينة خائفة من كاليفورنيا؟ ربّما لم يكن ذلك أسوأ من إغلاق كتاب. ولكن كلّ شيء الآن صبّ في اللحظة الحاضرة. مزة أخرى كانت في الشارع تشعر بالغثيان حتّى معدتها، كان الإسفلت تحت رأسها وحولها القطران في الشارع والقمامة ودخان الأسيد من الأسلحة المستعملة، مع أنها لا تتذكّر أنّ أحدهم استخدم السلاح. شعرت بخوف طفولي من أن تموت في الغربة.

اعتقد الفيتناميّون أنّ أسوأ طريقة للموت هي أن تموت بعيداً عن وطنك، فعندما تسافر روح الإنسان في الأرض تضيّع إلى الأبد، لكنّ هذا المكان كان وطنها مثل كاليفورنيا تماماً، فقد عاشت أهمّ لحظات حياتها هنا، وإذا لم يكن هذا المكان مؤهلاً لأن يصبح وطناً فما الذي يمكن أن يؤهله؟ لقد عرفت رجال حرب متقاعدین عادوا إلى فيتنام وتزوّجوا من نساء فيتناميّات وأصبحوا آباء، ولم تكن لديهم أيّة نيّة للمغادرة مع أنّهم كانوا لا يزالون يعدّون (أوهايو) وطناً لهم، كان ذلك خطأ. كانت كاليفورنيا بعيدةً بشكل لا نهائي، كانت كاليفورنيا غائبة. حتّى أحلامها شكّلتها هذه الأرض، حقول الأرز التي تمتدّ على مرمى البصر، الجبال والأدغال وحقول براعم الأرز الخضراء وحصاد

الأرز الذهبي كحقول القمح الممتدة التي تنتج صفوفاً من الأرز الموسمي التي شكّلت مخابئ جرداء ضيقة لجاموس الماء. وازقة سايفون السميكة والطرق المدمرة المرصوفة بالأشجار. وفيلات الباستيل المتهاوية بفعل القصف الناري. وحتى شقّتهما الصغيرة الملتوية المرسوم على بابها طواويس وتمائيل بوذا. الناس المحبّون والخونة ومن يتعرّضون للقصف. ولين، لين الذي يحتل مركز قلبها. كلّ ذلك شكّل شرعية لا يمكن إنكارها لاحتمال نهايتها وملاقاة حتفها هنا.

رأت ضوءاً أبيض مُعمياً للأبصار صادراً عن انفجار، وعندما نظرت إلى الجندي الذي يتحلى بوجه طفل كان قد رحل، أو أنّ أجزاء منه قد ذهبت، فنصف رأسه ورقبته جُرفتاً بعيداً ثم سقط وارتدّ مسافة بوصة عن الرصيف قبل أن يستقرّ جسده على الأرض. كان قطاع الطرق صامتين، أصبحوا فجأة هادئين كمجموعة من الكلاب الوحشية، ومثلما يتقلب العنيف بطبعه، هرولوا بعيداً واحداً تلو الآخر.

رفعت هيلين نفسها وأدارت رأسها حيث كان الألم يعرّش فيها ويلوي رقبتها، وهناك رأت لين جالساً مقابل الجدار ورجلاه مطويتان مقابل صدره والمسدّس الذي كان في شقّتهما موضوعاً بشكل متوازن على ركبتيه. ما الذي طرأ عليه واستوجب منه إنقاذها مرّة بعد أخرى؟ كان الأمر ضربة حظ. لقد علمت هيلين أنّه كان بإمكان الجنود أن يقرّروا إطلاق النار عليهما بكلّ بساطة. إن آخر صيد مضيء لها من الحظّ قد استهلك الآن، ولم يبق لها إلا صوت حقيبتها الفارغة مع كلّ خطوة.

عادت النسوة ليحطن بصدّيقتهنّ التي تعرّضت لإطلاق النار، وما كان من هيلين إلا أن أخرجت الكاميرا المتبقية من

إحدى حقائبها وقرفصت فوق المرأة وبدأت بتصويرها وهي تحدّق في عدسات الكاميرا بعينيها الداكنتين الفارغتين اللتين تخفيان سرّاً ما. وضعت إحدى النسوة يديها أمام هيلين ومن دون تفكير أبعدتها هيلين عن طريقها فبعد مخاطرتها بحياتها وحياة لين استحقّت أن تأخذ تلك اللقطة، كان ذلك من مستحقّاتها. أحاطت النسوة بصديقتهنّ وبعد لحظة سُمع صوت ندب وعويل.

حاولَ لين النّهوض على قدميه بصعوبة بالغة ودون أيّ اعتراض. حملت هيلين الحقيبتين السوداوين وبأقي حمولتهما وأخذاً يركضان.

وبعد أن عبّرا بناية قلّلاً من سرعتهما، ثم توقّفا بعد فترة لالتقاط أنفاسهما. تعثّرا وظهرت بقعة دم صغيرة على قميص لين.

لهث قائلاً: «أنا بحاجة إلى الماء».

بحثا بيأس متزايد في واجهات المحلات، وبذاك الدّعروفي تلك المنطقة المنخفضة سمعت صوتاً أجنحة هيلوكوبتر كصوت مقطوعة موسيقىة ورفعت رأسها لتراها فوق الأبنية، كان الصوت لا يزال بعيداً فحطّمت باباً زجاجياً لأحد المطاعم وذهبت إلى البار، وأحضرت كأساً من الكؤوس المصفوفة بأناقة والمقلوبة على رأسها وملأته بالماء من الصّهرج الطّيني الموضوع فوق البار. تضاعف حجم بقعة الدّم فأخذت قميصاً قطنياً نظيفاً من حقيبتها وقالت: «ضع هذا على الجرح». وعندما أنهى كأس الماء استدار بسرعة للنّاحية الأخرى وتقيّاً، حملت حقائب الأفلام وتركت وراءها بقيّة الحمولة لعدم احتمالها ثقل الوزن على كتفيها ورقبتها أكثر من ذلك.

تباطأ مشيهما الآن أكثر، كانا يمشيان ببطء لدرجة أن
أيّاً من المسنين الماشين في الشارع كان يستطيع اللحاق بهما.
انتفض رأسها من أثر عقب المسدّس ولمست قشور دم جافّ على
أطراف شعرها. هل يجب عليها تجاهل الحقيبتين السوداوين
والمضيّ قدماً؟ ولكن بدا الأمر لها وكأنّها تهجر كلّ شخص
قامت بالتقاط صورة له. تذكّرت لقطة معينة وهي بالثّديد
لطفل داسته أقدام حُشود اللاجئين في ضواحي المدينة. وقد
وضع الحُرّاس حواجز بجانب الجثّة دون لمسها حيث استلقى
على جانبه كحيوان ملتفّ بأوراق الغابة. قصصٌ لا تحصى من
هذا النوع. كان الإنسان قد ذهب مسبقاً ما عدا بقعة سوداء على
خلفية أفتح من نسخة الصور السلبية، إذا نُشرت تلك الصورة
فسيحقّ ذاك الطّفل نوعاً من الخلود حتى ولو كان مهلهلاً.
كانت كلّ صورة من تلك الصور تُضعف من يلتقطها.

حملت هيلين حمولتها على كتفيها وكانت رياطات الحقائق
تفرك جلدها لكنّها تابعت المشي. وضع لين ذراعه على معدته
وسند نفسه على عصا ملقيّة في الشارع.
قالت له: «ضع يديك على كتفي».

مشيا إلى مركز الطّريق الرئيسيّ غير قادرين على سلوك
طرق دوّارة أكثر أو المرور من طرق صغيرة وأزقة ضيّقة. لحسن
الحظّ لم تمرّ أيّة حافلة من الطّريق بعد ذلك وإذا أتى أيّ جنود
أو قطاع طرق فلن يستطيعا هما الهرب، وكان الازدحام يقلّ كلّما
اقتربا من القسم السّكنيّ حيث كان موقع السّفارة الأمريكيّة.

هنا بدت الشّوارع مهجورة، وشعرت هيلين بشيء من البهجة
بأنّ الجزء الأكبر من المحنة قد انتهى تقريباً. انهار لين عند
جذع شجرة تمر هندي. كان الحيّ قديماً هنا حيث كانت أغصان

الشَّجَرِ الملتوية فوق الشَّارِعِ تشكِّلُ مظلةً حاميةً من الشَّمْسِ.
العديد من الأشجار كانت قد قَلَمَت من أجل ترك مكاناً للدُّبَابَاتِ.
مرَّت طيَّارتا هيلوكوبتر وراتهما هيلين بوضوح قريباً من الأرض،
وسمعت صوت إحداهما تحوم فوق أرض السَّفارة منتظرةً الأولى
أن تهبط.

أمسكت يد لين بقوة وقالت له: «إننا قريبان الآن».
استند هو على الشَّجَرَةَ ممسكاً بها وواقفاً إلى جانبها ووجهه
مبللٌ كأنه صبَّ عليه الماء، ويقعة الدَّم على قميصه تتسع وتكبر
مثل يد ممدودة. أشار لها بإيماءة قوية.
فَقَالَتْ له: «لَا نستطيع التَّوقُّفَ الآن سنتوقَّف في الدَّاخل».
كان ذلك أسوأ جولة لها، كلَّ خطوة تخطوها كانت من دافع
إرادة قويَّة ودافع غامر يحثُّها أن تستلقي على الأرض.
وبعد عبور بناية قريبة من السَّفارة سمعا صوتاً آخر انضمَّ
إلى صوت هدير الهيلوكوبتر والمدفعية البعيدة، كصوت خشخشة
ناعم مستمرٍّ، لكنه متبدل كهدير المحيط.
عُبرت هيلين مع لين الزَّاوية الأخيرة وتوقَّفا عند طريق
مسدود.

كَانَ هناك بحرٌ من النَّاسِ أمامهما ولم تكن هناك بوصة
واحدة من الأرض فارغة، والنَّاس في كلِّ مكان وهم يدفعون
بعضهم من جوانب المباني الممتدة من أبواب السَّفارة إلى الطَّرَفِ
الآخر من الشَّارِعِ، لم يكن حشداً كسولاً بليداً بل بحرّاً من النَّاسِ
يستدير حول الدَّرَاجات، وشكَّلت حقائق النَّاسِ المتراكمة جزراً
صغيرة، وهم يتلاطمون ويتدافعون حول البوابات الحديدية
الثابتة للسَّفارة. كانوا كأمواج تتحطَّم على صخرة شاطئٍ وعِ.
تتحطَّم وتعود لتسقط على نفسها.

وقفت هيلين مخدرة من منظر الأمريكيين الذين يحبسون أنفسهم بعيداً ويهربون. نظرت إلى لين الذي لاحظ بالكاد تلك الاضطرابات من حوله. وإذا فقد الوعي فسينتهي الأمر بالنسبة إلى كليهما.

قالت له: «أعطني المسدس».

كان ضعيفاً جداً لدرجة أنه لم يستطع الجدل، وإذا استخدمه أحدهما فلا بد أن تكون هي. سحبت هيلين مفتاح الأمان ووضعت سبابتها على الرنّاد. طوال السنوات التي قضتها في هذا البلد لم تحمل سلاحاً أبداً ورفضت أن تقرّر أن تدافع عن نفسها. ومع ذلك قام لين للتوّ بالقتل من أجل أن ينقذها.

كانت هيلين تشق طريقها في مؤخرة الحشد وتتحرك باتجاه المدخل الجانبي، ويدها تمسكان معصم لين بقوة، وفكرت أنهما حتى إذا وصلا إلى الداخل فسيضطران للتضحية بحقائب الأفلام، ولكن ليس بتلك السهولة، وليس من دون عراق.

ما إن شعرا أحدهم بأنهما يضغطان عليه حتى استدار كل من في الحشد، ونظروا إليهما نظرات حادة، لكنهم ابتعدوا ما إن وقعت أعينهم عليها.

نظرت إلى الأسفل حيث ثوبها المغطى بالدماء، مدركة أنه لم يكن دمها، لكنه دم الجندي ذي الوجه الطفولي فانقلبت معدتها وأرادت أن تخلع الثوب، ولكن لم يكن هناك مكان لترفع يديها حتى، وإذا أرخت قبضتها المسكة بيد لين، فمن الممكن أن يسقط تحت أقدام الحشد، لذا أرخت قبضتها عن السلاح ووضعت في جيب الثوب، ورفعت يديها لتخلع عن رأسها الشال الأسود. مسحت الدم الجاف عن وجهها ومسحت الثوب ورمت

الشال وراته يتدلى بين أجسام الناس قبل أن يختفي عن الأنظار كأنه غرق في رمال متحركة.

حرّكت الزياح الحارة شعرها، فعرفت الوجوه حولها أنها أمريكية أو على الأقل غربية، وكان إدراكهم أن البقاء بقربها بطاقة خروج ونجاة أكبر من استيائهم منها. «أفسحوا الطريق للأمريكي المحتضر وأعطوه مكاناً». وبذلك كانت هيلين ولين مدفوعين ومحاطين بالحشد، وبعد ساعتين وصلا إلى القضبان الحديدية للبوابة الجانبية.

شعرت أنها وصلت إلى بر الأمان وأنها ممتنة للقوات البحرية الذين كانوا قد حلقوا شعرهم حلاقة عسكرية، وهم يرتدون النظارات ذوات الإطارات السوداء، معجبة بمنظر زيتهم الموحّد ومطمئنة لوجود شعار «الفرقة السادسة عشرة» على صدورهم، وشعرت أن محاولتها الشخصية لأن تحمي نفسها كانت محاولة سخيفة، شعرت أنها تكاد تهذي، وأن رأسها يخفق، وأن قدميها كالورق، وأدركت أنها لا تزال على الطرف الخاطئ من البوابة وأن انتباه الحراس كان مُشتتاً جداً ولم يشعر أحدٌ بوجودها.

كان هنالك أصواتٌ حولها ترتفع حادة تترجى المساعدة، كلماتٌ فيتنامية تقع على آذان صمّاء يستجدون الإنقاذ بلغة إنجليزية مبسطة. الناس يساومون ويحاولون رشوة الحراس في هذه الساعة المتأخرة؛ إن كان بالمجوهرات أو بالساعات الذهبية أو بأوراق النقود القذرة التي يدفعونها عبر بوابات السفارة، كانت أشياء قيّمة جداً يتم دفعها هناك في بلد قلت فيه الثروة.

كان هناك رجلٌ بالقرب من هيلين يحمل طفلاً ويقول: «خذوا الطفل لا تأخذوني، أنقذوا ولدي». كان على استعداد أن يدفع مليوناً أو مليونين، ولكنه قوبل بالصمت أيضاً على الطرف الآخر

من البوابة. ثم نادى «خمسة ملايين، خمسة ملايين». إِمَّا أَنَّهُ قَضَى عَقُوداً يَجْمَعُ هَذِهِ الْأَمْوَالَ وَإِمَّا أَنَّهُ سَرَقَهَا خِلَالَ دَقَائِقٍ. فَتَحَ كَيْساً وَرَمَى حَزْماً مِنَ النُّقُودِ خِلَالَ الْبُؤَابَةِ لِيُضْمِنَ حِمَايَةَ ابْنِهِ، غَيْرَ وَاعٍ لِحَقِيقَةِ أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالَ لَمْ تَكُنْ ذَاتَ قِيَمَةٍ بِالنِّسْبَةِ لِأُولَئِكَ الْأَمْرِيكِيِّينَ، حَيْثُ كَانَتْ أَقَلُّ قِيَمَةٍ مِنْ ثَمَنِ لَعْبَةِ (الْمُونُوبُولِي)، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْجُنُودِ كَانُوا مَرْعُوبِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّعَاعِ سَوْدَ الْوُجُوهِ، وَغَيْرِ قَادِرِينَ عَلَى مَنْحِ الْأَمَانِ حَتَّى لِطِفْلِ وَاحِدٍ، وَكُلُّ مَا أَرَادُوهُ فَقَطْ هُوَ حِمَايَةُ مَنْ كَانَ فِي الدَّخْلِ وَالنَّجَاةِ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ نَكْتَةِ الْحَرْبِ هَذِهِ. ارْتَعَشَتْ يَدَا هِيلِينِ بَيْنَمَا انْهَارَ لِينُ خَلْفَهَا وَالتَوَتِ رِجْلَاهُ وَصَرَخَتْ بِاللُّغَةِ الْفِيْتِنَامِيَّةِ نَاسِيَةً تَشْوِيشَ اللُّغَاتِ ثُمَّ مَتَدَارَكَةً خَطَأَهَا وَصَارَخَتْ بِهِمْ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ: «أَدْخُلْنَا، أَنَا صَحَافِيَّةٌ أَمْرِيكِيَّةٌ».

اسْتَدَارَ وَجْهُ جَنْدِيِّ الْمَارِينِزِ بِأَتْجَاهِهَا وَقَالَ: «يَا إِلَهِي مَا الَّذِي حَدَثَ لَكُمْ؟».

وَبَيْنَمَا فَتَحَتِ الْبُؤَابَةُ أَتَى عِدَدٌ أَكْثَرَ مِنْ جُنُودِ الْمَارِينِزِ يَدْعُمُونَ زَمِيلَهُمْ مُوجَّهِينَ أَسْلِحَتَهُمْ إِلَى الْحَشْدِ. «أَدْخُلْنَا».

«افْتَحِ الْبُؤَابَةَ». قَالَ مُشِيراً إِلَى الْحَارِسِ الَّذِي خَلْفَهُ. وَضَعَ الْحَارِسُ يَدَهُ عَلَى صَدْرِ لِينِ قَائِلاً: «هُوَ لَا يُمْكِنُهُ الدَّخُولُ».

«هُوَ يَعْمَلُ لِمَصَالِحِ شَبَكَةِ التُّقَارِيرِ الْأَمْرِيكِيَّةِ وَلَدِيهِ أَوْرَاقُهُ». قَالَ: «تَأَخَّرِ الْوَقْتَ عَلَى تَقْدِيمِ الْأَوْرَاقِ، فَانْصَفِ النَّاسَ هُنَا لَدَيْهِمْ أَوْرَاقٌ».

صَرَخَتْ هِيلِينُ: «عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ، لَقَدْ جَرَحَ هَذَا الرَّجُلُ وَهُوَ يَنْقُذُ حَيَاتِي».

«لا أستطيع».

«إنه زوجي».

«أفترض أن لديك عقد زواج، أليس كذلك؟».

«إذا بقي فسأبقى، وإذا قتلني جيش فيتنام فإن قصة رفض السفارة إدخالنا ستكون في كل صحيفة وسيكون اسمك متضمناً في المقال».

غطى العرق وجه الحارس الذي كان صغير السن ومتعباً وضيق الصدر جداً بالنسبة لعمره.

«اللجنة لم يعد الأمر مهماً لتلك الدرجة، ادخلا هيا».

تقدم عدة خطوات وأمسك بهيلين ولين ورماهما في الداخل كالألعاب. حاول الرجل الذي كان معه طفل أن يمسك بيد هيلين لكن جندي المارينز لكمه معيداً إياه إلى شبكة الحشد. وبينما هما يعبران البوابات استغل خمسة أو ستة فيتناميين الفوضى ليتمكنوا من الدخول. ودخلوا وانتشروا في الحشد غير مرئيين كطيور الغابة قبل أن يتسنى للحراس التقاطهم.

حصل إطلاق نار وتمت هيلين أن يكون في الهواء وألا تتسرخ يداها بمزيد من الدماء لهذا اليوم. أغلقت البوابات مرة أخرى برئة معدنية كبيرة. الفرصة الضائعة جعلت الحشد في الخارج يهتاج أكثر فحاولوا تسلق الجدران وقام جنود المارينز بإبعادهم بضربهم على رؤوسهم بأعقاب البنادق.

كان الداخل مزدحماً أيضاً لكن أكثر هدوءاً، حيث وقف الأمريكيون بجانب تجمع المباني بينما توزع الفيتناميون على كل جزء فارغ من العشب. حيث كان يتم تفتيشهم وإجلاسهم على الأرض. قال لها أحد الحراس: «عليك تسليم هذا يا سيدتي».

نظرت هيلين إلى الحارس بحيرة إلى أن أدركت أنهم عثروا على السلاح المنسي في ثوبها. وليس فقط هذا بل استطاعت أيضاً الحفاظ على حقيبتتي الأفلام. قادهما الحارس إلى مسبح المبنى حيث رمته هناك لينضم إلى خمسين أو ستين قطعة سلاح مرمية هناك في القعر مسبقاً.

قالت هيلين: «أحتاج طبيبياً».

هز الحارس رأسه وانصرف. أمسكت هيلين بكثف لين وساعدته على أن ينزل ويتمدد على الأرض. كان قميصه منقوعاً بالدماء من الأمام ويعد عدة دقائق أتى أمريكي بقميص أبيض وحقيبة سوداء: «هل تعرضت للأذى يا آنسة؟».

«لست أنا، إنه لين قد جرح منذ عدة أيام وهو ينزف».

ساعد الرجل على فك قميص لين وفك الضماد عنه: «أستطيع تنظيف جراحه لكنه بحاجة للعناية من الأطباء على السفينة».

قالت هيلين: «وكم بقي من الوقت على ذهابنا؟».

«سيصلون بك».

هزت هيلين رأسها.

«ما رأيك أن ألقي نظرة على الضربة التي على رأسك؟ يبدو أنك بحاجة إلى بعض القطب. لا نريد لها أن تترك ندبة».

مضت ساعات وهيلين ولين جالسان على العشب مسنودان على حقائب الأفلام. كان يتم حرق الأوراق داخل مجمع الأبنية ومعها أسرار الحرب التي لا تنتهي وكان الدخان والرماد يتناثران في الهواء ويستقران على الناس وعلى الأرض وعلى حوض السباحة كهطول ثلج رمادي. أحست هيلين بالتعب في عظامها بعد نفاذ الأدرينالين، فقضمت بعض الطعام وأحضرت مياهاً

غازية دافئة وسندويشات عفنة من خدمة الطعام المؤقتة التي
تعمل خارج مطعم السفارة المهجور.

«لقد نجونا. فعلناها، أنا سعيدة. سعيدة».

استند لين إلى جانبه ووجهه منهك ونعس من الألم الشديد
وأجابها:

«ما زلنا في سايفون وما فعلناه فقط هو التسلل إلى قفص
جديد».

استلقت هيلين بالقرب منه: «لقد تماديت، لكن الأمور نجحت
ولم يحدث أي ضرر».

«لا ضرر».

«عندما صوّرت تلك المرأة كنت غاضبة أن الصورة يمكن أن
تضيع، ثم فكرت ما الذي دهاني؟».

«فقط كوني معي».

«أريد ذلك».

«لم تبدئي تلك الحرب ولم تنهها أيضاً وكل ما حصل بين
البداية والنهاية ليس ذنبك أيضاً».

كان وجه هيلين خالياً من أي تعبير والدموع تملؤه دون مشاعر.
«أنت لا تصدقيني أليس كذلك؟ لا أحد منا له علاقة بتلك
الحرب نحن عابرو تاريخ ليس إلا». قالها وهو يجفف دموعها
لكن انتباهها كان ينصرف عنه شيئاً فشيئاً.

أظلمت السماء واستدار رأس لين إلى اتجاه واحد بينما
استغرق في نوم خدر عميق.

كان الناس بجانب هيلين قلقين من عدم تمكن المارينز من
إبقاء حشد الناس خارجاً. كان الفيتناميون في الخارج مصنفين
على أنهم تابعون للأمريكان، ومع أن الأمريكيين في السنوات

العشر الأخيرة كانوا معتمدين عليهم للبقاء والنجاة في هذا البلد القاسي لكنهم كانوا خونةً بشكل جمعي. كان عدد الناس في كل رحلة ضئيلاً بالنسبة لمن ينتظرون، كمن يأخذ قطرة ماء من دلو ممتلئ في كل مرة.

كان الهدير الصادر عن الهيلوكوبتر يصم الآذان ولكن كان بإمكان هيلين أن تسمع من وقت إلى آخر صوت دمدمة بعيداً آتياً من جهة (غيا دن) و(تان سون نهوت). كان نقرأ مستمراً كالذي في رأسها. كان الضجيج أقرب مما كان عليه صباح اليوم. بدا أن حياة كاملة قد مرت في تلك الساعات الفاصلة. ارتجف لين في نومه.

مر بجانبهما موظف السفارة فأوقفت هيلين الرجل وسألته: «كم من الوقت علينا أن ننتظر أكثر من ذلك؟ هذا الرجل يحتاج إلى عناية طبية».

«من الممكن أن ننتظر طوال الليل». أجابها ناظراً إليها بحدة وهو ينقر بقلمه الرصاصي على دفتر الملاحظات الذي كان في حوزته. «يتم نقل الأمريكيين الآن، اذهبي إلى الداخل وسوف تتم العناية بزميلك لاحقاً».

كان ذلك في لغة السفارة المعقدة يعني المتاعب. أيقظت لين وسحبته ليقف على قدميه مستخدمةً أريطة حقائب الأفلام الملتفة حول رقبتها، ثم انضموا إلى مؤخرة خط طویل يصعد الدرج إلى السطح، لوحت إلى أحد حراس المارينز وقالت له: «أحتاج أن أنقل هذا الرجل إلى المروحية».

«كلُّ يأخذ دوره».

فركت جبهتها وقالت: «لا. فقد تعرض إلى إطلاق النار وسوف يموت إن لم يتلقَّ عنايةً طبية».

«هناك العديد من الناس متلهّفون للّصعود إلى متن الطّائرة
يا سيّدتي وليس لديّ أيّة أوامر تخصّه».

جاء رجلٌ أشعث معه لوحةٌ، كان في العشرينيّات من عمره
بوجه منهك، وقد بدا أنّه لم يذق طعام النوم منذ أسبوع.

«أنا هيلين آدامز من طاقم تصوير لايف وهذا نجيون بران
لين الذي يعمل مع صحيفتي لايف والتّايمز، وهو جريحٌ ويحتاج
إلى التّرحيل فوراً». افترضت هيلين أنّه في الظّروف الرّاهنة
لا أحد سيكتشف كذبها وأنّ جريدتها التي تعمل بها قد سحبت
منها كلّ أوراقها الاعتماديّة. ألم يكونوا يحاولون إخراجها من
هذا البلد في نهاية الأمر؟

خطّ شيئاً ما بتعجّل على لوحه وقال: «بالأكيد». حكّ
رأسه واستدار إلى جنديّ المارينز. «ترحيلٌ طبيّ، أحضر أحداً
ما ليرافقهما إلى مقدّمة الطّابور وأحضر أحداً آخر ليشرح
للجميع سبب تقديمهما إلى الأمام، أخبرهم أنّه هاربٌ فارٌّ أو أيّ
شيء».

قالت هيلين: «أنت أوّل شخص اليوم فعل ما قاله فعلاً».

«أنا من أكبر المعجبين بك يا سيّدة آدامز».

«لم أعلم أنّ لديّ معجبين».

«لقد قمت بتغطية ما حدث لأخي الكبير الذي كان أحد
جنود المارينز في الفرقة ستّ وثمانين، (تيرنر) تم وضعه في
الفيلق الأوّل».

«حقاً».

«كان يدير كراجاً في رينو في أمريكا، لديه ثلاثة أولاد، أخذت
له ولزملائه صورةً عند الجدار، لقد تحدّث عن لقائه بك، وأنا
أتابع أخبارك وعملك منذ ذلك الوقت».

قالت هيلين: «أشكرك على هذا، حظاً موفّقاً».

«سنحتاج ما هو أكبر من الحظ بكثير».

حمل أحد جنود المارينز حقائب الأفلام والآخر سند لين وساعده على صعود الدرج المزدحم. عبروا باباً معدنياً سميكاً وأدراجاً أكثر وانتظروا قليلاً ثم تسلّقوا درجاً معدنياً مهلهلاً حتّى وصلوا إلى السطح حيث كانت رائحة الهواء تفوح بالبخار، وكانت الأشياء المحترقة مثل نار مخيم مخيفة. رأت هيلين في الاتجاه الشمالي الغربي وهجاً حمزراً لمئات الشعلات النارية وعدة آثار لنيران صديقة ضدّ سيل من نيران العدو الزرقاء الصادرة نحوهم. ويبدو أنّ الفرصة كانت ضدهم. أصبح الأنين في رأسها أزيزاً مستمراً لكنّها لم تُرد أن تتناول أي شيء، فقط أرادت أن يبقى ذهنها صافياً. حطّت المروحية على السطح كما لو أنّ خيطاً مرّ من ثقب إبرة وأصبح جسد هيلين متصلّباً. كان دوران وصوت المحركات عالياً جداً حيث كان جنود المارينز يملون تعليمات الصعود غير المفهومة صراخاً لدرجة أنّه لم يكن لديها الوقت لتشرحها لرفيقها الذي رفّت عيناه نصف المقمضتين، وقف بجانبها شابٌّ صحافيٌّ مسافرٌ على متن الرحلة نفسها.

أشار جنود المارينز لمجموعتها بالتّحرك فأنحنوا وركضوا تحت هواء دوران المحرك الحارّ، أمسكت هيلين بذراع الصحافي عند باب المروحية.

«أوصل هذه الأغراض إلى أيّ أحد من جريدة لايف على متن

السّفينة».

«بالتأكيد ولكن لماذا؟».

«سأتبعكم على رحلة لاحقة». ولم يكن في بالها إمكانية فعل

هذا الشيء حتّى انفلتت الكلمات من فمها.

بدأ جنديّ المارينز بسحب حقائب الأفلام حيث أصبح رباط
الحقائب واسعاً ومهلهلاً كما لو أنه خيط تزيين حفلة. «أسرعوا
يا جماعة. اصعدي يا سيّدتى».

تراجعت هيلين وشعرت بتقيؤ في معدتها، فقد كانت تشعر
بالغثيان إلى أقصى درجة.

صرخت بالغريب: «اعتن به. اسمه نجيون بران لين، يعمل
لصالح صحيفة لايف، أحضر له طبيباً على الفور».

نظر لين إليها بخيرة، فهو لم يفهم لماذا لم تودّ هيلين الصعود
على متن الطائرة وحاول الخروج هو أيضاً وقال: «لا يمكنك فعل
ذلك».

صرخت هيلين وهي تتراجع: «أوقفوه». كان الدم ينبض في أذنيها
وتشعر بالغثيان من قدرتها على الخيانة من جديد. أجبر الشاب
الصحافي وجنديّ المارينز لين على العودة إلى متن الطائرة، ووضع
الأحزمة حوله. شاهدت ما جرى بعجز الأطفال وكيف تمّ تقييد
لين وكيف ارتخى وجهه إلى أحد الجوانب، وأراحها أكثر أنه غاب عن
الوعي. ركضت عائدة إلى الطائرة وطلبت قلماً لتقوم بكتابة عدّة
أسطر على ورقة ووضعت أوراقه مع الرسالة في حقيبة بلاستيكية
وعلقته بخيط حول عنقه بالطريقة نفسها التي تعاملت بها مع
الحالات الشخصية لعدد لا يحصى من الجنود.

وأمام حشد الرّجال المنتظرين انحنى هيلين وقبّلت جبهة
لين وأغمضت عينيّه وقالت: «سامحني، أحبك». في الخارج
وعلى لوح صعود الطائرة هبّت الرياح على شعر هيلين وأحدثت
صريراً في جلدها. وأغلقت عينيها لكنّ الألم كان مريحاً.

وقف جنديّ المارينز إلى جانبها وقال: «استقلّي الطائرة
التالية الجميع هنا لن يغادر».

قالت وكتفاهما ترتجضان عندما رأت المرج الكبير الممتلئ:
«وماذا عنهم؟».

«من الأفضل أن تكون كلباً حياً على أن تكون أسداً ميتاً. وهم
يأكلون الكلاب في فيتنام».

أغلق باب المروحية وانحنى جندي المارينز وقاد هيلين إلى
الباب وأشار لها برأسه لتتابع طريقها نازلة السلم.

وقفت هيلين عند المرج وشاهدت للحظة الكتلة المظلمة للآلة
التي تحلق في الجو والشيء الوحيد الدال على وجودها هو
الأضواء الحمراء على جانبيها وذلك بسبب الخوف من تعرضها
لإطلاق النار. كان الطيارون يقلعون في الظلام ويستخدمون
الأضواء الكاشفة على السطح لمسافة خمسة عشر قدماً
الآخيرة فقط قبل الهبوط.

قالت لنفسها: إنه خطأ ألا تكون على تلك الطائرة، خطأ،
خطأ، خطأ. كان يسري ارتعاش كهربائي في داخلها كما لو أن
فقاعات تجري مع دمها.

بقدر ما جهزت نفسها لتلك اللحظة كانت خاسرة. ما الذي
كانت تبحث عنه؟ وما الذي ظنت أن باستطاعتها تنفيذه إذا لم تكن
قد وجدت ما أرادت تحقيقه مسبقاً، ما فرصة تحقيقها له وتغيير
أمورها إذا بقيت عدة أيام إضافية؟ افترضت دوماً أن حياتها ستنتهي
في الحرب وأن الحرب ذاتها ستبقى حاضرها الدائم كما كان الأمر
بالنسبة لدارو وبالنسبة لأخيها. أرعبتها فكرة استمرار الوقت وخبو
ذكرياتها وتحول صورها عن المعارك من حياة إلى مجرد تاريخ.

لقد سُفكت دماء من كلا الطرفين. ولكن ماذا يعني ذلك؟
مالَت المروحية وانخفضت مقدماتها وهدرت بصوت الزجاج
والمعدن المرتعد ثم طارت إلى قمم المباني القريبة.

كانت آمنة صغيرة وهشة كحشرة في سماء الليل، شعرت هيلين أنها تكلى لأنها خدعت لين وكل ما استطاعت أن تتمناه هو أن يتدثر بالهذيان قبل أن يدرك ما فعلته.

تذمر الفيتناميون على الأرض من طول مدة الانتظار، واشتكوا أن الأمريكيين لم يكونوا يعدونهم بأي شيء إلا الجملة الوحيدة: «سيكون كل شيء بخير، سنعتني بكم». وعندما أبدوا اعتراضهم وقالوا إن العطش أصابهم قادهم المارينز إلى حمام السباحة. أعاد وقوف هيلين على العشب الطمانينة إلى القريبين منها؛ لأنه من الواضح أن الإخلاء لم ينته بعد حتى ترحيل آخر أمريكي، وبخاصة النساء.

ارتعبت هيلين من إعادة المشهد مع الحشد في الخارج وإمكانية أن يصبح الموقف عنيفاً، فمشت إلى أحد الجدران الإسمنتية للمبنى واستلقت تحت شجرة على العشب الميت البارد. خفت الجلبة أكثر فأكثر، اختلط الهدوء الخارجي مع حالتها الداخلية حتى اقتربت من استعادة إحساسها بنفسها. غطت في نوم عميق في منتصف تلك الفوضى واستيقظت على غيوم رمادية ودخان يعكّر صورة القمر والنجوم الخافتة في سماء تلك الليلة.

التقطت كاميرتها وثبتت الفلاش وبدأت بالتقاط الصور. أصاب الفيتناميين السخط الواضح بعد أن رأوها، فتلك الصحافية لم تكن أمريكية حقيقية والجميع يعرفون أنها مجنونة.

لاحظت في ساعات الصباح الأولى - عندما نعس العديد من اللاجئين أو استسلموا إلى نوم متقطع - أن عدد المارينز الموجودين على الأرض قد قل.

وقبل بزوغ الفجر بساعة انسحب آخر جندي حدودي، وبينما تابعت هيلين التقاط الصور تم سحب المتراس وإغلاقه

بصوت مدو حيث تم حبسها هي والجميع. لقد كان الناس خارج السفارة أول من لاحظ نقص عدد الحراس لأنهم لم يخلدوا للنوم مطلقاً وظلوا مسعورين ومهتاجين حتى اندفعوا الآن إلى أبواب السفارة. وبعد أن سمع الناس داخل المبنى الصخب ذهبوا إلى الداخل ليجدوا غازاً مسيلاً للدموع وجداراً فولاذياً يحول بينهم وبين المهرب.

أحلامهم المعلقة ووعد الأميركيان السّاخرة لهم سحقت تحت الأقدام كقطع أوراق صغيرة. انفتحت البوابات الخارجية المكسوة بالصلصال بقوة من الداخل بعد تحميل آخر مروحية على السطح. كان هناك موجة طوفان من الناس الغاضبين الذين ملؤوا حرم السفارة. أخذت هيلين صورةً للجندى الفيتنامي الذي يصوب سلاحه على المروحيات المختفية في سماء الليل وهو يسحب الرناد والدموع تملأ عينيه. والآن كانت الطلقات النارية تملأ سماء الليل يخضبها لون الفجر من جهة الشرق. وبعد أن أدرك الحشد أن فرصتهم قد انتهت بدؤوا بالتدمير والنهب.

شاهدت هيلين امرأة فيتنامية صغيرة تسحب كرسي مكتب ضخماً على رأسها خارج درب مبنى السفارة، ورجلاً ترك خلفه صندوقاً من رقائق البطاطا. لقد كانت نهاية أحقر من التي تنبأ بها دارو.

عبرت الأبواب ذاتها الآن دون أن يأبه بها أو يعترض طريقها أحد، مشت إلى الشوارع المهجورة كأنها تمشي في حلم. كان كل شيء غير قابل للتصديق حتى النهاية الأخيرة. انتشرت شائعات بأن جيش فيتنام الوطني سيعتقل أي صحافي غربي ويطلق النار عليه على الفور، وهذا هو حمام الدّم الذي حذر منه الأميركيان، لكنها اعتقدت أن الواقع لن يكون بهذا العنف.

مشت وحيدة إلى مدخل الرقاق الهاللي مبللة بمياه المطر. ثم دخلت إلى الممشى الضيق للطريق المرصوف. وعند المبنى المحدب نظرت إلى الأعلى ورأت نافذتها مضاءة بنور أحمر من المصباح فتسارعت دقات قلبها غير الطيع؛ لأنها إشارتهم القديمة عندما كان دارو يعود من الميدان، لكنه الآن متوفاً منذ سبع سنوات. انهار الوقت بعد رحيل لين وانتابها شعور غريب بأن الآن هو بداية القصة وليس نهايتها. كان دارو قد اعتاد أن يأتي مرهقاً لينام في فراشهما وهو ما يزال رطباً بعد أن يأخذ حماماً، وعند دخولها الشقة كانت تذهب إليه فوراً.

وصلت إلى باب الشقة المطلي بصور بوذا ووجدت الخشب الجاف مكسوراً عند مستوى الركبة كأن أحداً ما ركله بقوة باستخدام حذاء. انكسر بعد كل هذا الوقت ولم يكلف أحد نفسه السرقة من ذاك المبنى، فكّرت أنه من الممكن أن يكون تشونغ هو من فعل ذلك بسبب غضبه من رحيلهما.

مررت أصابعها على الخشب المتشقق متلمسة الطواويس وأزهار اللوتس التي رمزت إلى الازدهار والحياة الطويلة والحكمة. نظرت إلى الوضعيات التئويرية المتعددة لبوذا. كانت سايفون في ظلام تام في هذه الليلة الأخيرة من الحرب كوحش حامل. كانت رسالتها إلى لين بسيطة جداً: «أحبك أكثر من الحياة، لكن كان علي أن أرى النهاية».

بتلك الطريقة يفقد المرء وطنه. فأول ما يفقده هو المشاهد ثم تليها الزوايح. يختفي اللمس وبالطبع الذوق يتبعه مسرعاً. حتى صوت لغة المرء الخاصة في مكان أجنبي يثير الحنين فقط. لم يتذكر لين أي شيء عن الرحلة الأخيرة فوق سماء سايفون ولا إحساس لديه بأن حربه قد انتهت. وعندما حاولت

ذاكرته استعادة أي شيء رآه أو بالأحرى شعر به، وكان صوت دوران الماكينات فوقه يتحرك بطيئاً كنبض أجنحة طائر عظيم، نبضة قلب ثم ظلام ثم ظلام دامس ثم ظلام.

كان ذلك هو الإقلاع المألوف للمروحية، شعور بالغثيان، لكنه للمرة الأولى لم يشعر به؛ لأن داخله استقام بعد الارتفاع العمودي للمروحية. انتابه خوف من أنه الآن يحتضر؛ خوفاً أنه بإقلاع الطائرة من سطح السفارة ربما فانت روحه وبقيت هناك. مرّت أمام عينيه صور أناس لا يمكن عدّهم وصور عائلته، صور أمه وأبيه، إخوته وأخواته، وماي ودارو وهيلين التي انسابت من بين أصابعه في الدقيقة الأخيرة وضاعت منه، فتساءل بكسل ووهن أليس من الأفضل أن يموت من فوره خلال طيرانه في سماء ذلك الليل.

ارتفعت السفينة الأمريكية مع الأمواج، ورغم الحمى التي أصابت لين لكنه أمسك بقضبان السفينة، بعد أن قام الأطباء بتضميده استطاع أن يمشي ببطء إلى سطح السفينة. ذكّرتة غرفة المرضى بالكفن والدواء الذي أعطوه إياه، جعله ذلك يشعر بدوار، ولكن كان عليه أن يرى السماء ويتنفس الهواء. أغمض عينيه نصف إغماضة ليرى ما تبقى من المساحة الظاهرة للعين بشكل ظهر محدّب لتنين مغمور في الهواء الضبابي، لكن السفينة كانت قد بدأت رحلتها مسبقاً إلى الفيليبين. لم يستطع أن يميّز إن كان ما يراه في الأفق ظلّ شكل الأرض أم أنه البخار الوهمي للغيوم.

قالت الأساطير النسائية: إنه إذا سافر المرء بعيداً عن مسقط رأسه فإن روحه ستطير وتعود للوطن وتتركه مجرد شبح، لكن إذا كان ذلك صحيحاً فإن العالم كلّه مليء بالهائمين

بالأطراف الخاوية. شعر أن العزلة ستأخذ جزءاً كبيراً من نفسه كطرف إضافي من أطرافه. كان بين الأمريكيين على متن السفينة فيتنامي حتى بين اللاجئين، ولكن لم يكن بينه وبينهم أي شيء مشترك. معظمهم كانوا سعداء لأنهم هربوا. بعضهم ضحك بكل شيء ليكون على متن السفينة بما في ذلك عائلاتهم. لكنه لم يكن ليأخذ صفاً أحد ضد آخر أو يحاكم أحداً، إخلاصه الوحيد كان لهيلين وها هي قد هجرته.

مشى إليه شابٌ صغيرٌ ليصافحه ولكن لم يكن لدى لين أية خلفية أو ذكرى عنه من المروحية، كان شاباً بوجه طفولي رقيق جداً لم تنبت له لحية.

قال الشاب: «ألا يجب أن تكون في الأسفل؟».

كان يفكر لساعات متأسفاً على نفسه أن الحرب فاتته وأنه لن يستطيع أن ينظم قصة مثيرة للاهتمام عن القدر القليل الذي رآه، وعندما رأى لين برقت عيناه لأنه الآن من الممكن أن يتغير ذلك.

سأله: «هل تعرف أين هيلين؟».

كانت رجلاً لين تهتران وكان يمسك بقضبان السفينة ليبقى واقفاً.

«لا تقلق فقد أعطيت الحقائق لمحقق من مكتبك ويتم نقلهم الآن أثناء حديثنا. ليس لدي أدنى فكرة من هي يا رجل، إنها أسطورة».

سأله لين بحدة أكثر مكرراً سؤاله: «هل هي على متن السفينة؟». كزرها مغلقاً عينيه بسبب توتر وضغط الأفكار على رأسه المشوش. «لا إنها ليست على متن هذه السفينة على الأقل، ألم تبق لتغطي التغيير الذي حدث؟».

لم يقل لين شيئاً، فقط اكتفى بالتحديق إلى سطح الماء الأزرق الكامد. لقد شكَّ أنها ستحاول فعل ذلك لكنه لم يظنَّ أبداً أنها ستفعلها من دونه.

نظر الشاب إلى لين آملاً بجواب وقال: «لقد وصلت إلى سايفون منذ أسبوعين».

حافظ لين على صمته. لقد شكَّ بحبها عبر السنوات، إذا كان الحب يوجد في وقت الحرب، ولو أصرت هي على البقاء جزئياً كان من الممكن لحيهما الاستمرار فقط في بلده. لكنه عرف الآن أنها أحبته. ومن الواضح أنها كانت معتمدة كأي مدمن على مخدر الحرب. كما أنه كان قد استخف بالضرر الذي لحق بها.

ضحك الصحفي وتابع: «حتى إنني استعجلت وغادرت في اليوم الذي تخرجت فيه لكن الحرب الملعونة كلَّها فالتني».

كيف سيستطيع لين العودة إليها؟

«ربما يمكننا التحدث لاحقاً عندما تستعيد عافيتك؟ أخبرني، لقد عرفت من أنت فقد عملت مع الجميع».

أشار لين بإيماءة كبيرة وأفلت قضبان السفينة فشعر برجليه تنزلقان من تحته.

أمسك الشاب به عندما كاد ينزلق تحت القضبان: «انتبه يا سيّد، ستأتي معي الآن إلى قسم المرضى». أمسك الشاب بذراع لين وأخذه.

قال لين: «أنا بخير». مع أنه كان من الواضح لكليهما أنه كان ضعيفاً جداً ولا يستطيع الوقوف.

«عذراً ولكنني مسؤولٌ عنك، لا تقلق عليها فالشائعة تقول إنها مسحورة. من المرجح أن يتم طردهم من البلد خلال أربع

وعشرين ساعة. هي معروفة جداً والشيوخيون لا يرغبون بأي
دعاية سيئة».

أغلق لين عينيه ورأى حقول نبات الثيوم الأرجواني الضخم
تتحرقها الشمس، وأوراق النبات المفردة تنهك نفسها وتنحني
أكثر وأكثر في ابتهاال. هكذا كان المرء يحافظ على حياته ومع
ذلك فإن هيلين لم تتعلم الانحناء يوماً.

«إن ما لا يريدونه هو شهود عيان عما سيحدث بعد ذلك».

(2) (أنغكور)

يُحكى أنه كان هناك جنديٌّ يُدعى لين لم يرغب بالعودة إلى الحرب، وقف أمام كوخ القش الخاص بوالديه في الصباح الباكر، وكان لا يزال يشعر بلمس شفّتي زوجته على شفّتيه عندما اشتّم نفحةً من رائحة الكبريت، رائحة الحرب، كان من المفترض أن يكون هذا الجزء من (بين دونغ) آمناً، فلم يسمّع أي صوت لإطلاق النار، ولكن لم يكن أي مكان آمناً لفترة طويلة في فيتنام.

كان صوت (ماي) يرتفع من داخل الكوخ مُتحدّياً بأغنية رقيقة رائعة، بينما أوراق الأشجار تشقّ طريقها في الهواء تنشرُ نغماً حزيناً، وكان صوتها يزدهر مع مقدمة الأغنية التي كرّرتها مرّة بعد أخرى.

خرج رجلٌ من كوخه على الطرف الآخر من النهر، وتوقّف عند سماعه الصوت الذي كان مثل قوس ينزلق على آلة نفخ، وهو يتذكّر وجه زوجته الحبيبة كبرعم زهر مغمض منذ أربعين سنةً خلت.

«لكي نعبّر النهر نعتمدُ على الزورق.
وفي الليل نمضي إلى صاحبة المنزل الشابة.
وفي الحبّ نعاني من القدر.
أما عن القلب.. فأنا أعرف أن هذه هي قريّتك».

كانت الحرب بمثابة منافس يسرق منها زوجها ويبعده عنها، اقتربت (ماي) من الباب وصار صوتها أكثر وضوحاً، حيث إنها كانت تريد إغواءه ليعود إلى ذراعيها كأنهما يعيدان أيام المدرسة من جديد، فقد استطاعت إغراءه بأن يترك الحصص الدراسية ويذهباً سوياً إلى ضفة النهر طوال اليوم ليسمع أغانياتها. ستنتهي الحرب قريباً وسوف تكون بأمان.

ظهر (كا) أخو لين الأصغر على طرف الكوخ، وقلد غناء ماي واضعاً يده على خده، وقدماه ملتصقتان ببعضهما بشدة، محرّكاً فخذيه كالمطربة الفرنسية التي سخرها منها في مدينة (دالات). انفجر لين وماي ضاحكين، كانت دموع ماي مؤلمة جداً فقد منعها لين أن تراه لتودعه، كان بطنها منتفخاً بمولودهما الأول الذي كان ولداً كما توقّعت القابلة بسبب علو بطنها أثناء الحمل حتى وصل إلى مستوى قلبها. في الليلة الفائتة قامت العائلة بتأدية المسرحية التي كتبها لين ورقص القرويون على الأرض، وأطلقوا الصيحات واثملوا استحساناً. وحينها أحسّ لين بوخز من المتعة في يديه ووجهه لمجرد فكرة نجاحه، لكنّ ماي لم تدعه يستمتع بدقيقة منها، فصخب الجمهور طالباً غناءها السولو مرة أخرى قد شجّعها، وأرادت المغادرة إلى سايفون في اليوم نفسه. «كيف سأستطيع المغادرة، أهرباً؟ إنهم يطلقون النار على الهاربين. إنهم يطلقون النار على الجنود أيضاً».

أمسكت ماي بطنها واضعة يديها على جانبيه وأخذت أنفاساً عميقة مغمضة عينيها وتلك العادة الجديدة لديها هي التي أفقدته أعصابه.

«ليس لديهم وقتٌ للجنود المساكين مثلك، ففي سايفون سيكون لنا أسماءٌ وهميةٌ بعد ولادة الطفل وسأحصلُ على عملٍ كمغنية».

لم يعرف لين ماذا عليه أن يفعل، أراد أن يكون رجلاً بسيطاً فقط، لكنَّ القدرَ كان يُثقلُ كاهليه. قوى نفسه بفكرة أنه ذاهبٌ ليقا تل حتّى لا يكون هناك حربٌ في مستقبل ولده. لم تفهم ماي أن عائلات الهاريين كانت تُعاني أيضاً، ولم يخبرها هو أن أختها (ثاو) كانت قد سبقتها في طريقها إلى سايفون، مع أن صوتها كان أكثر خشونة بعدة درجات من صوت ماي. لو علمت ذلك الآن لانفجرت الأرض مفتوحة بعويلها، ولين لا يتمكن من التعامل مع النساء الآن.

هكذا يتكشف التاريخ، كان الشكُّ مختلطاً باليقين ولم يعلم أحدٌ أيّ قرار كان القرار الصحيح.

تفقد الهواء مرةً أخرى ليميز آثار رائحة السلاح الكريهة، لكنَّ الرائحة كانت قد ذهبت، هل كان الأمر حقيقياً أم كان في مخيلته فقط؟

في سن الخامسة والعشرين. كان قد مضى على وجود لين في الجيش أربع سنوات. كان قد انضم إلى الجيش الشمالي وهرب إلى الجنوب فقط ليكون مجنّداً إلزامياً من قبل جيش فيستنام الشعبي، كان جندياً باهتاً متخماً من الحرب حتّى السأم، لكنَّ أيّ شخص آخر لديه قدرةٌ جسدية لم يكن لديه أيّ خيار آخر ليبقى حيّاً، فثياب الشاعر الفضفاضة ناسبتة أكثر من بزة الجندي الضيقة.

كان عليه أن يكون مغنياً برأي ماي، يغني في الصباح ليُجعل النساء يغمنَ عليهن. لم تعرف كيف غيّرتِه سنواته في الجنديّة،

والعرجة الطّفيّة في قدمه الّتي تظهر عندما يكون مُتعباً والّتي حدثت له من جرّاء شظيّة أصابته، والنّظرة في عينيه الممتلئة بعدم يقين جديد. كان كرجل بلسان ذهبيّ طُلب منه فجأة أن يؤدّي عملاً بلغة غير معروفة.

كان والده عالماً؛ بروفيسوراً يدرّس الأدب في هانوي، وكان قد أظهر لين في شبابه شغفاً بكتابة الشّعرو تأدية المسرحيات، لكنّ الحرب دمرت كلّ شيء في النّفوس، وكلّ شاب كان مجبراً أن يكون مع فريق ضدّ الآخر، إمّا الجيش الشّماليّ أو الجيش الجنوبيّ. وفي بعض الأحيان خلال السّنوات الماضية كان ينتهي الأمرُ بالبعض محارباً لكلا الطّرفين في أوقات مختلفة، مفارقةً اكتشافها لاحقاً ولم يستطع الأمريكيّ أن يقبلها.

كان مجروحاً في القدم وفي ذلك الوقت بدّل سلاحه - وهو سعيدٌ - بعمل إداريّ يخصّ الجيش وقريب من عائلته. كان ضغط العمل خفيفاً ولم يتراكم عليه العمل قط، وبعد فترة قليلة لم يكن في الأمر أيّ عناء بالنّسبة له فعاد إلى المسرح. كان شاباً رومانسياً حالماً دائماً بأحلام اليقظة، وكان يأمل بأن يتمّ غرض النّظر عنه وإهماله ونسيانه.

كان هو وماي قد خططا للهروب من سايفون، لكنّه لم يستطع أن يخبرها أنّ الأمر قد تأجّل بسبب خوفه. نفذت أموال الرّشوة الّتي كان والده قد كسبها بعد سنة، وأعلمته عائلته أنّه حان وقت حمل السّلاح مرة أخرى.

وقف لين أمام المرأة ببزّته العسكريّة وهو يمثل دور الجنديّ رافعاً ذقنه، أراد أن يبدو شجاعاً ولكنّه بدا متوتّراً أكثر من أيّ شيء آخر.

كانت مخاوف ماي صحيحة جزئياً، ففي آخر مرة غادر فيها لم يكن قد رأى عائلته أو عروسه الجديدة لمدة سنتين، وعندما غادر الآن لم يكن معروفاً متى سيرونه هم مرة ثانية، حمل حقيبة كعك الأرز التي أعطته إياها ماي، مع تعليماتها له بأن يعود قبل أن يأكل كل ما في الحقيبة.

كان الأمريكيان قد بدؤوا بالخروج كمستشارين مع جيش فيتنام الشعبي في مهمات خارجية، كانوا كالعملاق الذي يفوق لين وباقي الجنود عندما يعطونهم العلكة والسجائر. تعلم لين أن يميز الأمريكيان لأنهم كانوا يبتسمون أكثر من الفرنسيين بأسنانهم الثامة المستقيمة ناصعة البياض، كانوا متهورين دائماً، أما لين فقد حكم أن هؤلاء الأجانب كانوا وجوهاً مُحسنة من أسيادهم القدامى. وقف المستشارون بأرجلهم المتباعدة المغروسة في أحذية كبيرة وأيديهم على أفخاذهم يومئون برؤوسهم ويتباحثون مع قائد لين المدعو (دونغ) والذي كان الجميع يدركون أنه أحمق. كان يرتدي شالاً أبيض حريراً طويلاً حول رقبته كما في الأفلام الأمريكية القديمة، وكان جل اهتمامه منصباً على الحفاظ على نظافته، كانت فُكوك الأمريكيان تصطكُ مع مضغ التبغ، وقد وقفوا فوق الأجساد مبتورة الأرجل من جماعة (الفيت كونغ) بأجسادهم الرمادية الصغيرة الخالية من الحياة كطيور النهر، سراويلاتهم القصيرة الممزقة بالكاد تغطي أفخاذهم، هل غاب عن انتباه الجميع أن فيتناميي الجنوب كانوا يشبهون أعداءهم أكثر مما كانوا يشبهون حلفاءهم؟

بعد كل هذه السنوات الطويلة التي قضاها في الحرب ما يزال لين لا يحتمل منظر الموتى، فكان يسرع بعيداً ليتأكد من كفاية الدخائر.

كان (سام دارو) أول أمريكي التقى به لين، وكان رجلاً طويلاً شبيهاً بطائر، ولم يكن كثير الابتسام كباقي الأمريكيان، مع أن دارو انحنى لكُنه كان يبدو أطول من باقي الأمريكيان، كان نحيلاً ولديه أطرافٌ حادةٌ تبرز من بين أكمامه المرفوعة، كان الجلد ممتداً امتداداً على مساحة كبيرة عند معصمه العظمي، وكانت نظارته سميكة الإطارات تغطي جزءاً من وجهه ورأسه الذي يتحرك من جهة إلى أخرى كراس طائر.

حدّق لين بالاسم (دارو) وياسم أخريدمي (لايف) مخطوطين على سترته، تعلّقت في رقبتيه كاميرتان كان لين يحلم بامتلاك واحدة مثلهما، كان الرياط الأول مطرزاً بالهامونغ والآخر كار رياطاً جلدياً بسيطاً. ناداه أحد المستشارين قائلاً: «تعال خذ لن بعض اللقطات».

تحقق دونغ من شعره في مرآة ذهبية صغيرة سحبها من جيبه، جمل نفسه وهو يقترب من دارو وقال: «لا أعتقد أن..»، فقال المستشار: «لا تشغل بالك بالاعتقادات. صوّر فقط، هل فهمت؟».

نزع دارو غطاء الكاميرا وتحقق من الأفلام بحذر وبنقرة محسوسة بالكاد بإصبعه قام بكشف فتحة الكاميرا كلّها حتّى يظهر الفيلم كلياً في الضوء ويحترق، وفي الدقائق العشر الأخيرة كاد لين أن يختنق عندما أدرك أن لا أحد كان لديه أية فكرة عمّا فعله، وعندما رأى دارو يلتقط صوراً لدونغ في كل أنحاء المخيم حتّى إنه وصل الأمر به إلى تصويره فوق أجساد الجثث، «يكفيك ذلك» قال له معيداً الفيلم للخلف ومعيداً غطاء الكاميرا إلى مكانه ومبتسماً في النهاية.

قال لين: «هل تدريب أمريكا الناس للحرب أفضل من تدريبهم على التقاط الصور؟».

ابتسم دارو وقال: «شاب ذكي».

«أنا لين، تران باو لين».

«أنت ماكزيا لين، ما رأيك أن أطلب من دونغ أن يعينك

لمساعدتي اليوم، وتحافظ على سرنّا؟».

قررت الشركة أن تقيم مخيمها تلك الليلة على نية التحرك صباحاً إلى مسافة ساعة من قرية لين، ولم يكونوا قد خلدوا إلى النوم عندما انفجرت القنابل الأولى قريباً منهم. استخدم المستشارون الجدد أجهزة اللاسلكي الخاصة بهم ليبلغوا عن قنابل تنفجر من حولهم، لم يكن لين سيتحدث عن الأحداث في تلك الليلة، قبعَت الذكرى عميقاً في داخله وبقيت صامتة.

هكذا ينتهي العالم بلحظة واحدة ويبدأ مرة أخرى في اللحظة التي تليها.

الطريقة الوحيدة التي عرفها لين عن كيفية قطع الطريق من الحياة السابقة إلى الحياة التي تليها هي أن يأخذ خطوة ثم خطوة ثم خطوة تليها.

والآن عندما لم يبق شيء ليحفظه هاجر وترك كل شيء، ولم يهتم أكثر بما فعلوه به، وتابع على الطريق السريع جنوباً غير مرتبط بالخمسة والعشرين عاماً من عمره، كان وحيداً بشكل تام، كان كل يوم يأكل واحدة من كعكات الأرز التي صنعتها ماي حتى بدأت مؤنّه تتقلص، ثم قسّمها إلى أنصاف، وبينما كبر العدد الذي لا يزال صغيراً قسّمها إلى أرباع وأثمان حتى وصل إلى أكل حبيبات صغيرة من كعكات ماي يومياً، طعامها الذي كان له طعامها هي فقط، وليس طعام أي أحد آخر، حتى انتهى أخيراً الطعام كله.

كان يتجول في الشوارع خلال أشهره الأولى في سايفون، ويعمل نادلاً في مطعم وصاقلاً للأحذية، وسائق سيكلو. لم يكن لديه عائلة أو أية حمولة تثقل على حياته، كل شيء كان قد تم دفعه. وفي الليل كان يشعر أن لا قيمة له لدرجة أنه كان يتلمس نفسه من الجانبين ليتأكد أنه لم يطر في الهواء بعيداً كقشة. دخلت إلى نفسه روائح المدينة وأصواتها وطعمها لكنها لم تصبح جزءاً منه. فكرته الوحيدة كانت أن يكسب ما يكفيه، ما يطعمه ويؤويه لا أكثر. دخل بمحض المصادفة في دوامة حرب، ومجرد تفكيره بالماضي أو المستقبل كان يتسبب في ضياع نفسه.

في فراغه هذا أمسك بحبل نجاة واحد ألا وهو حضور دروس اللغة الإنجليزية عصر كل ثلاثاء وخميس على شرفة جيرانه، ومع أنه كان نوعاً ما أكثر سلاسة وفصاحة من جاره، لكنه كان يحضر تلك الدروس، لأنها كانت تشعره بأنه لا يزال ولداً، وكان له هدف جدي أيضاً من تلك الدروس والذي حثه عليه والده المحترف للغتين هما الفرنسية والإنجليزية لأنه كان يقول لأولاده إنه إذا أردت أن تهزم أعداءك فعليك أن تتعلم كيف تتحدث لغتهم.

احتاجت المعلمة كمية قليلة من المال لتُعيل نفسها وأبويها، كانت شابة جميلة وكان شكل وجهها يذكّر بهماي، والساعات التي أمضاها وهو ينظر إليها كانت مثل البلسم، وكان يتأكد من ألا يدع إنجليزيتته تفوق إنجليزيتها، كانت أخطاؤها تسحره فبدل أن تقول: «لا تفعل»، كانت تقول: «لا تشارك»، فمثلاً جملة «لا تذهب إلى الشارع». أصبحت «لا تشارك في الشارع». أراد ألا يستيقظ وهو يحلم بهماي.

كان يستمع إلى معلّمته ذات الوجه الجميل في تلك الأشهر الفضيلة وهي تصرّف الأفعال (أنا أكون، أنت تكون، هو يكون). وخطّته كانت أن يعاود الانضمام إلى وحدته في الجيش ويتطوّع للمشاركة في أكثر المهام خطورةً فربّما يُقدّر له أن يُقتل خلال أشهر إن لم يكن أسابيع.

نحن مسالمون وهم الأعداء، نحن نقتل وهم يموتون موتاً مشرفاً وجديراً. لكن مع أنّه لم يعد خائفاً لكّنه لم يذهب. في أحد الأيام حين كانت السماء صافية، وكان الجو لا بارداً ولا حاراً، في ذلك اليوم وهم على الدرج ابتسمت له المعلّمة ذات الوجه الجميل، كان لين يمرّ بجانب مكتب خدمات إخباريّ أمريكيّ عندما ثبت في النقطة التي وقف فيها حيث تعرف على اسم لايف مكتوباً بخطّ اليد على ورقة وملصقاً على النافذة، كان فالاً يذكره باليوم الذي انتهت فيه حياته الطّبيعيّة.

فكر بينه وبين نفسه، أولاً «لا تشارك»، ولكنّه عدّ الأمر إشارة ومشى إلى الدّاخل، حيث وجد رجلاً أمريكيّاً ضخماً منكبّاً على مكتبه ووجهه يشعّ بالعرق وهو ينظر إلى حفنة أوراق. قال لين: «هل لديك عمل؟ أنا صديقٌ جيّدٌ للسيد دارو».

بدا غاري مدير المكتب وكان الحرّ يغليه من الدّاخل إلى الخارج وكرشه مضغوطٌ بحزامه، نظر إلى لين وابتسم له ابتسامةً عريضةً برزت فيها أسنانه وقال: «لم أكن أعلم أنّ لدارو أيّ أصدقاء». ثمّ فكر أنّه في الوقت المناسب يحدث دوماً شيءٌ غير متوقّع. وبعد ذلك تمّ توظيف لين خلال الدقائق العشر التّالية. وفي عصر ذلك اليوم كانوا على متن طائرة حمولة متّجهة إلى كمبوديا.

كان غاري يُفرغ طاقته النارية في علكة يمضغها، ويمسح العرق الذي يتصبَّب منه بمنديل كبير رطب.

«هذا جيد يا رجل. كيف عثرت علينا؟ هذا المكتب مكانٌ مؤقتٌ، إن الأمر كالقدر، لولا وجودك لكنتُ أنا بنفسي أجزأغراضه».

ظنَّ غاري أنَّ صمت الفيتنامي الشاب يخفي وراءه شيئاً غير سار وأنه عليه أن يتعامل مع هذا الأمر لاحقاً كسجل إجرامي، لسوء الحظ أنه لم يستطع أن يقلق على هذا الأمر الآن، فقد كان لديه مساعد جديد.

لم يقل لين شيئاً، نظر من باب طائرة الحمولة إلى الأدغال المندفعة تحتهم دون أن يبدي أية إشارة، إن معدته كانت مقلوبة وإنها المرة الأولى التي يستقل فيها الطائرة.

انطلقوا على الطريق الفارغة التي تمتد كشرع أحمر شفاف خلفهم وهم متدلّون في السماء النحاسية.

قال غاري موافقاً على الصمت المستمر: «أنت بالتأكيد على حق، استمتع بالرحلة، على أي حال الناس يثرثرون كثيراً». إنه رجل لم يكن يسمح لذاته بالوقوف في وجه عمله، لم يتساءل الناس عنه كأنه تصرّف كراعي بقرو وهذا ما فعله بالضبط، كيف كان يمكن له أن يؤدي عمله وفريق العمل يعرف أنه يتصبَّب عرقاً في كل مهمة كأنه كان يرسل أولاده إليها؟ ودون أن ينزعج من صمت لين غير ظنه به أن يكون مجرمًا، لربما كان أسوأ.

كان البلد الملعون كله مصاباً بارتجاج في الدماغ على حسب علمه، على الأقل كان قد ضمن لنفسه عدة أسابيع من السلام بعيداً عن صورة مغنية الأوبرا الرئيسية.

في الوقت الذي وصلت فيه سيارة الجيب إلى مدينة إنغكور كانت الشمس تنبض كطبل قوي بعد ظهر ذلك

اليوم. كان القرويون يحاولون فكّ حزمة كثيفة من أربطة معدات ملتصقة فوق الوحل، أوراق قصدير كثيرة مبعثرة على الأرض تزيد من حرارة الهواء الحار مسبقاً إلى حدّ الاحتراق، وثلاثيات قوائم الكاميرات منتشرة كطيور أرجلها طويلة ومتباعدة والأفلام تملأ المبردات، وفي منتصف كل ذلك كان سام دارو واقفاً كالمايسترو الذي يدير تلك الفوضى.

أعطى غاري زجاجة كوكا كولا فاترة للين ونسيه فجأة تاركاً إيّاه واقفاً بين مجموعة من العمال الكمبوديين. تدمّر أحدهم وهو (سامانغ) بأن الكولا تُزال من المبردات ليتمّ وضع الأفلام مكانها، فريّت على كتفه أخوه (فيسنا) باستخدام إحدى أرجل ثلاثي القوائم وقال: «أنت دائماً متدمّر ولكن ليس عندما يكون هناك بقشيش».

جلس لين في الظل وهو يشاهد دارو ينظر خلال كاميرته الموضوعية على ثلاثي القوائم بعناية ويبتعد قليلاً ليُجري تعديلاً وينظر من خلال العدسة الإضافية مرة أخرى، وفي النهاية ضغط الكابل لتحريره وفتح مصراع الكاميرا ليلتقط صورة واجهة بعد أخرى للثحت الغائر على جرف الصخور التي ألقت ظلاً عليه، وكانت النكتة التي سرت بين العمال هي (لماذا يلتقط الكثير من الصور لصخرة لم تتحرك بوصة واحدة منذ آلاف السنين؟). أدرك لين أن هذا العمل قد يستغرق ساعة وأكثر، وربما لا ينتهي أبداً حيث إنه كان يجري تعديلات دقيقة على إطار الصورة بصبر لا ينفد، بينما كان هناك ثلاثة رجال يرفعون حامل الضوء العاكس ويبدلون زاويته بوصة بوصة في كل مرة.

خلال فترة الاستراحة، انطوى العمال جالسين تحت الظل وكان سامانغ ينشر النميمة بين زملائه العمال بأن الغريبي

سيقتلهم بالعمل في ذاك اليوم الحار، أطلق دارو قهقهة عالية ويخطواته الواسعة مشى ليحيي القادمين الجدد. كان أطول ممّا يتذكّره لين وأكثر نحولاً منه، كأنّ قوامه قد ضُغف وهزل خلال الأشهر التي مضت، أم أن سوء حظ لين هو السبب في هزاله؟ ممّا جعله أصغر حجماً في هذا العالم؟ لقد تعرف توّاً على المعصمين العظميين الكبيرين للأمريكي.

وفي الصباح الباكر كان في مكتبه يدقّ عليه فرحاً عندما أخبره لين أنّه كان يعمل مع دارو، كلّ من كان يعرفه يتفادى العمل مع ذاك المصوّر النجم، وكان غاري على وشك إغلاق مكتبه والدّهاب مع دارو ليحمل معدّاته عندما ظهر له لين في الوقت المناسب، هو لن يتفحص تلك الموهبة عن قرب كثيراً، فمعاونو دارو السابقون استقالوا؛ لأنّه كان يكلفهم تغطية أصعب النّزاعات وحمل الكثير من المعدّات والعمل لساعات لا تنتهي.

«أنت أحمر كسرطان البحر!» قال دارو.

«هذا المناخ يقتلني. انظر ماذا وجدت!».

استخدم غاري يديه للثبّاهي وكأنّه استخرج لين من الدّخان محاولاً تغطية شعودته وتابع قائلاً: «إنّه نجيون بران لين، أليس ذلك جيّداً أم ماذا؟».

«بالأكيد». ابتسم دارو وقدمّ للين سيجارة وقطعة من العلكة.

كان ذلك هو أساس الفارق البسيط. فمن الوقاحة المتناهية الإجابة عن ذاك السّؤال الصّريح: «إن كانا قد التقيا من قبل فعلاً أم لا؟». قام دارو بغمس منديلته في ماء المبرّد ليمسح وجهه وهو راض بالانتظار، كان عصر ذاك اليوم هادئاً ومسالماً ولكنّه شعر بثقل أسود على كتفيه لدى سماعه صوت سيّارة الجيب

الخاص بغاري، حرك رأسه من جهة إلى أخرى قليلاً محاولاً
تحديد مكان لين: «كيف حالك يا صديقي القديم؟»
«لم لا تقوم بعمل أغطية من القصدير لكل جهة بدلاً من
الإضاءة من الأسفل فقط؟». أخذ لين السيجارة وهمّ بإشعالها
بسرعة حتى لا يلاحظ أحد ارتعاش أصابعه.
ضحك دارو ضحكة كبيرة وقال: «إنه بالطبع خبيري الثقني
من (بين دونغ)».

ابتسم لين لكنه لم يتفوه بكلمة.
«أتعرفان بعضكما حقاً؟» سأل غاري.
«ولم تُحضر شخصاً لا أعرفه أنا حقاً؟» قال دارو.
تنقل غاري بنظره بين الرجلين، «أنت شابٌ مُضحكٌ وهذا
ما أحبه فيك، إنه ذاهبٌ معك إلى الدلتا ومقاطعة كوتشي.
هناك الكثير من الأشياء الجيدة التي تصلح موادّ للغطية، إنها
(كونغو) أخرى، كيف يمكن لأحدنا أن يكون لديه هذا الحظ؟
اضرب، اضرب».

«فهمت». كان هنالك مزيجٌ من المشاعر من غضب وتعب وأشياء
أخرى، وشعورٌ غريبٌ ورقيقٌ بأن دارو كان مهيباً، هل أحسّ غاري
أنه كان يختبئ؟ محاولاً أن ينسى هنري؟ أم أنه كان ينتظر شيئاً
ما؟ إن هذا ما كان إلا إشارةً إلى أن الأمور كانت آمنةً من جديد.
لم يخاطر غاري بأخذ حمولة العمل إلى كوتشينغ ليعرض
نفسه لخطر التفجير؟ وبدلاً من ذلك قام بتكليف شخص آخر
من سكان البلد مع أنه لا تجربة لديه ليكون معاونه، كان عمل
دارو مع الوجوه واكتشافها ومع ذلك لم يتمكن من التعرف إلى
لين بسهولة فقد تغير بشكل متطرف كما لو أنه قد تم إغراقه
في الجحيم.

«كم تظن أنك تحتاج وقتاً أكثر؟» سألته غاري وهو يمشي إلى سيارة الجيب الخاصة به.

«حتى أحصل على الصورة». أجاب غاري مماًزحاً ومداعباً إياه من ذقنه مُمتعضاً من الضَّغط عليه دون إنصاف. مع هذا كله لم تكن أزمة الأعصاب ذنبه، فقد قام هنري بتحطيم الوهم الذي يشعرون بأنهم مسحورون لأنهم كانوا يحملون الكاميرات بدلاً من الأسلحة، سيمر هذا كله، فقد مرّ داروبه من قبل، كان الأمر يعتمد على انتظار مروره، إن ما نال منه هو تراكم الموت والرعب والغضب وليس شيئاً آخر، كانت لعنة اللعنات التي حلت عليه أنه كان جيداً في الحرب وأنه أحب متطلبات عمله، والذي كان مُرعباً أكثر أنه أصبح لديه شهية للحرب كرجل يتضور جوعاً وهو ينظر إلى طاولة ممتلئة بالطعام رافضاً أن يأكل على أساس أخلاقي، فالشهوة ستريح في النهاية، ورئيسه الحاذق في العمل كان يعتمد على ذلك.

وقف غاري أمام سيارة الجيب، وبإشارة دالة على التَّبَجّح قام بضرب يده بعنف على صندوق السيارة، وبالكاد استطاع منع نفسه من الجفول والصراخ من الألم.

«إن الأمر يوشك على النهاية الآن يا رجل، ويجب أن تكون أنت الرابع، وأكوام الصّخور القديمة هذه لن تتحرك إلى أي مكان بعد نهاية الحرب».

هزّ دارو رأسه وقال: «هل تعلم أن الفرنسيين الذين اكتشفوا إنغكور سألوا الفلاحين كيف نشأت المدينة؟ فأجابوا: (لقد نشأت هنا فقط)». واتضحَت الصورة له أكثر فأكثر بامكانية المكوث والبقاء هناك حتى تنتهي الحرب.

مسح غاري وجهه وهزّ رأسه وقال: «هذا جنون تام».

«لا يمكن أن تعرف بشكلٍ مؤكّد».

«كيف ذلك؟ من يهتم بأمر هذا السائح السخيف؟ فقط أسرع بالعودة إلى الوطن، حسناً؟ وخفف عن الشاب الجديد، فحدسي يُخبرني أنه خدعني ليحصل على العمل، ولنقل إنه فعل ذلك فليس هناك طابور طويل بانتظار هذا العمل». ريت غاري على كتف السائق ليدير المحرك.

«هل أنت متأكد أنك لا تريد قضاء الليل هنا؟ ألا تبقى ليومين آخرين؟». في الحقيقة إنه أحب قسوة غاري، وسيفعل أي شيء للحصول على الصور؛ لأنها كانت تلك طريقة دارو المعتادة، وهو لم يُرد أن يبقى وحيداً ليلية أخرى، ولم يكن لديه ثقة كبيرة بلين كنديم للشرب.

أجاب ساخراً: «نعم، هذا صحيح فهذا ما أريده، المكوث في هذا المكان المهجور (إنفكور)، ماذا؟». «ستصيبك اللعنة بسبب ذلك».

«أضف هذا إلى القائمة يا عزيزي، لا يهمني جودة ما تدخنه فقط. أعدني إلى سايفون حيث مكيفات الهواء ومكعبات الثلج، القيادة العامة تؤنّبني على توظيف النساء، أعتقد أن لديك مشكلات؟».

«أنا مجروح، ظننت أنك تريد أن ترى عبقرياً يقوم بعمله». ضرب دارو بيده على غطاء محرك سيارة الجيب. «لن تتأخر لأسبوع؟ صحيح؟». «أسرع يا غاري أذهب من هنا قبل أن تغيب الشمس وتظهر الوحوش».

وبعد مغادرة سيارة الجيب عاد الصمت ليستقر في المكان كالغبار، لكن ما كان سيئاً في الأمر هو الثقل الأسود الذي أثقل على كتفي دارو ومصائب الحرب قد وصلت.

كان على دارو أن يقيّد نفسه بإحدى تلك الصّخور ليبقي نفسه هناك، وذلك لكي يتفادى اتّصال دارو الشّبيه بصفّارة الإنذار. ابتسم إلى لين الذي كان واقفاً في الظّل ولم يستطع أن يميّز تعابير وجهه بسبب قوّة الضّوء في عينيه، ففي اليوم الذي التقيا فيه كان دارو بالفعل منغمساً في الجحيم، ودارو كان مكلفاً تغطية عمليّات المستشارين الأمريكيّين الذين ساروا مع جيش فيتنام الجنوبيّ في مهمّة بحث أساسيّة، عندما كان يتمّ إطلاق النّار عليهم كان المستشارون يستدعون القوّة الجويّة، لكنّ قصفها كان يسقط عليهم وعلى المدنيّين أيضاً، كان الخراب مجانياً للجميع.

دُمر جيش فيتنام الجنوبيّ وبدأ بإطلاق النّار على الذين كانوا معه، وعلى المدنيّين الذين انسحبوا على الأرجح منذ مدّة، بدلاً من إطلاق النّار على الأعداء. وعندما تجمّعوا في اليوم التّالي قام الرّجل بتعيين معاونه على أنّه الغائب الذي لا يحمل إذناً بالتّغيب، فلم يكن بالإمكان العثور عليه في أيّ مكان، بدا أنّه جنديّ غير متحمّس، فلربّما كان قد استغلّ الفوضى كعذر للتّسرب والهروب.

عظيم، ضحك دارو ضحكة عالية، فأخيراً حصل على المعاون الذي يستحقّه.

في الأسبوع التّالي عاش لين مع دارو في الأدغال جنباً إلى جنب، كانا يستيقظان عند الفجر ويتناولان إفطاراً بسيطاً مؤلّفاً من الأرز والسّمك والخضار والقهوة العربيّة الغامقة التي أدمنها دارو في الشّرق الأوسط مصراً على تخميرها بنفسه. عملوا جميعاً خلال اليوم عملاً جماعياً مؤلّفاً من اثني عشر عنصراً بما في ذلك الأخوان اللذان كانا مفضّلين عنده، حيث

كان يأخذ مئات اللقطات مُمضياً ساعات عدة ليضيء مادة ما، وأحياناً إلى درجة إرسال (فيسنا) ليتسلق شجرة ويزيل غصناً أخضر كان يحجب الشمس.

في أحد الأيام أمضى فيسنا خمس ساعات وهو يقلّم شجرة ورقة ورقة، وعندما نزل كان مصاباً بالجفاف فقام لين بتقديم الماء له كأساً بعد أخرى، بينما أسرع دارو لالتقاط ضوء العصر المتأخر بشكل صحيح.

حسب دارو أنه على ذلك المعدل بإمكانه قضاء حياته في الطبيعة وتصوير الأراضي وليس مضطراً لرؤية جندي ميت آخر، مع ذلك كانوا يسمعون الرعد ليلاً عند الأفق، كان نبض الحرب هو الذي يُغيرهم.

تشارك الرجال بغرفة صغيرة كصومعة راهب وكانت تُضيّق عليهم المساحة كثرة معدات التصوير التي أصرّ دارو على إبقائها نظيفة ونقلها إلى الغرفة كلّ ليلة حتى لا تتم سرقة أيّ منها. اعتاد فيسنا على البقاء صاحباً ليساعده في التنظيف بينما كان سامانغ يعود إلى البلدة لمطاردة النساء.

«إذاً يا زعيم، هل قمنا بعمل جيّد؟» قال فيسنا.

«سأثني عليك في سايفون بالتأكيد» قال دارو.

«لا ليس في سايفون فأنا رقم واحد في كمبوديا».

«لكن لا يوجد شيء هنا، لا حرب».

«المنافسة أقلّ إذاً».

عندما كان دارو يتعثر بلين في إحدى الروايات البعيدة عن الطريق وهو يكتب على قصاصات أوراق كان يبعدها عندما يقترب أحدٌ منه، التقط منه لمحات كلمات وفأجأه أنها بالإنجليزية. كان صديقه الذي يغيب بلا عذر لغزاً لا ينتهي. وكانت الليالي في

المدينة الحجرية عندما يعود العمال إلى القرية تبدو مسكونة في نظر لين. كان دارو يتابع عمله غير واعي بالبيئة التي تحيط به، فالهوس بعمله أبقاه بعيداً عن إغراء الهوس بالحرب، لكن لين كان يشعر بعدم الراحة في ذاك القبر الضخم، كان المكان في سكون الليل مليئاً بالظلال المنزقة، كان هو وسامانغ وفيسنا يتناولون وجباتهم في القرية، وفيسنا يتحدث عن الكيفية التي دمّرت بها العائلة المالكة الحياة الكمبودية التقليدية، وعن حاجتهم للعودة إلى جذور القرية والحياة العائلية المشتركة، قال: «إن سامانغ أصبح فاسداً بامضائه الوقت في (بنوم بنه)». كان لين يبقى ليشرب الشاي ويتحدث إلى الآخرين من فيتناميين وكمبوديين عن المشروع، كثيرون تحدثوا عن عائلات مفككة وصعوبات، وعن الهروب من الحدود لتجنب التجنيد في الجيش.

عاد لين باكراً في الليلة الأولى ورأى امرأة من القرية تغادر غرفة دارو، أضواء نور المصباح جسدها وهي واقفة خارج الغرفة ممتلئة ومستديرة مثل (أبسازاس) ربة الغيم والماء المنحوتة على جدران المعابد، أتى دارو إلى باب الغرفة وسحب الملابس التي كانت تغطي ردفها وأعادها مترنحة إلى الغرفة وبعد ذلك تعمد لين ألا يعود حتى منتصف الليل.

«أين تأخرت حتى الآن؟» سأل دارو عندما دخل لين.

لم يحب لين خبث ذلك الرجل.

«هل وجدت حبيبة؟»

«أنا متزوج».

«أسف بالطبع لا، ابق للغداء معي. أحياناً أحب الحديث وأنا

عادةً أطبخ».

هز دارو رأسه وقال: «أنديك أصدقاء؟».

ابتسم دارو «رائعة، أليس كذلك؟ يا إلهي كأنها وهي عارية
نسخة من ذاك التمثال القديم وقد عادت إلى الحياة، كأن الوقت
لم يمر منذ بناء هذا المكان».

بعد ظهر أحد الأيام حيث كان الهواء ثقيلاً كالحجر، وقف
لين على إحدى الشرفات وحيداً بعيداً عن المكان الذي يعمل فيه
البقية. كانوا قد استيقظوا قبل الشمس ليلتقطوا صورة الضوء
على الأبنية عند بزوغ الفجر.

كانت عيناه مثقلتين بالنعاس، ويرتد إلى مسامعه فقط صوت
السكون الذي تكسره أحياناً الصرخات العالية الحادة للقردة
التي كانت تتراكم على الصخور الدافئة بحثاً عن الفاكهة، كان
الجميع يخافون القردة لأنها كانت مسعورة، وتعض أحياناً، فكان
العمال ينصبون لها الضخاخ ويصطادونها، ويقومون بشيء من
يتمتع بصحة جيدة منها ليأكلوه.

كان قد ربط عقدة من قطع صغيرة من نبات الجوت ووضع
يديه في الحلقات وتابع طي العقد وشدها أكثر فأكثر حتى
شكّلت رقم ثمانية حول معصميه، وعندما كان يشدها كان يشعر
باحترق ثم براحة، فعقله كان مليئاً بلسع حار أبيض بدلاً
عن الألم العميق الذي كان موجوداً في نفسه دائماً، ولأنه كان
مشغولاً بالحرارة والألم لم يلاحظ مرور دارو.

اختفى دارو ثم عاد بعد عدة دقائق وهو يتصبب عرقاً.

«ما الأمر؟» نادى لين من الحديقة وهو يدعي الجهل، فصعد
الدرج بخطواته القافزة الكبيرة حاملاً زجاجتين من الجعة.
كان لين مذهولاً لدرجة أنه لم يلاحظ التنفس القوي لدارو،
ولم يعرف أن دارو ركض عائداً إلى غرفته كالمجنون وفتح المبرد

وأحضر زجاجتين من الجعة ثم عاد راكضاً. ولأنه كان مربوطاً
أوما برأسه فقد تأخر في إخفاء الحبل.

انحنى دارو ممسكاً بسكّين ليقطع الحبل الملتوي بين
معصمي لين الذي تحوّل لونهما إلى الأرجواني، متظاهراً بأنه
أمر طبيعي جداً في هذا العالم، ثم قام بنزع أغطية الزجاجات
وأعطى لين واحدة منها، كان قد لاحظ تجدد ندوب لين عند
بداية وصوله، لقد عرف دارو حطام الحرب.
«لنتحدث».

فرك لين يديه ببعضهما وشعر باهتزاز معصمه اللين، حيث
يسيل الدّم في عروقه بطيئاً كالزّمال.
«أنت (تران باو لين)، عندما التقينا آخر مرة كنت جندياً في
جيش فيتنام الجنوبي».

«ذاك الرّجل ميت، أنا الآن نجيون بران لين».
«حسناً».

«لم يكن عليّ أن أكذب وأقول: إني أعمل لديك».
فرك دارو وجهه وأجاب: «لقد كان يوماً ملعوناً ذاك اليوم
الذي التقينا فيه».
«نعم».

أشار دارو إلى الحبل وسأل لين: «هل لهذا علاقة بتلك اللّيلة؟
لقد اختفيت».

أشاح لين بنظره وقال: «ألا أقوم بعمل جيد؟».
«أنت أفضل مساعد عمل لديّ حتّى الآن».
«هل هذا ثمّن إبقائي أعمل معك؟ أن أخبرك؟».
رشف دارو رشفة طويلة من الجعة ونظر إلى الأدغال القريبة
وقال: «أنت لا تثق بي بعد، لا بأس بذلك».

سأله لين: «هل أنت سعيدٌ هنا؟».

«كأنني حصلت على فرصة لاكتشاف الأهرامات، غاري رجلٌ طيّبٌ لكنه لا يستوعب الأمر، لقد مللْتُ من الحرب، هل تفهمني؟ بالطبع تفهمني، الأمر فقط أنني لا أستطيع التعود على الإقلاع والثوقف. لذا أياً كانت أسباب وجودك هنا فأنا موافقٌ عليها».

رشفَ لين رشفةً جعةً طويلةً من زجاجته وقال: «تظنُّ أنك في جنةٍ مسالمةٍ هنا، لكنك مختبئٌ في المقبرة، فعنفُهم ببساطة قد انتهى هنا وعنفنا نحن يحدث الآن، وكلُّ حجرةٍ مبنيةٍ هنا مبنيةٌ على الدم، العنف حولك في كلِّ مكانٍ لكنك لا تستطيع التعرف عليه، وهذا من السهل عليك لأنك لا تنتمي إلى هنا».

«أنا لم أصنع الحرب، كنت فقط مجرد مصوِّرٍ عاديٍّ يثَّجه إلى تصوير الأعراس، الحرب هي التي صنعت شهرتي».

«ماذا عن الواجب؟».

«حسب وجهة نظري أنت لا تنتمي إلى هذا المكان أيضاً. ويمكنك الاختفاء بشكلٍ رسميٍّ، لماذا لا تهرب؟» حدّق فيه دارو.

أنزل لين رأسه وبقي صامتاً لفترةٍ لدرجة أن دارو ظنَّ أنه لن يجيب.

«لا يمكن الهروب ممّا مررت به، فأني مكانٌ أذهب إليه هو جحيمٌ، حتّى أنا نفسي جحيمٌ».

لم يجد دارو ما يقوله أمام اقتباس لين لشعر (جون ملتون)، الجندي الغائب من دون عذر أصبح معاونه «ماذا بحقِّ العالم كان يمكن أن يكتشفه أكثر في هذا الرجل؟».

في يوم عطلتهم كان لين يستيقظ على رائحة القهوة المعطرة بالهال وهي تغلي، وبعد أن تغلي تصدُرُ رائحةٌ أخرى حلوةٌ مثل رائحة المخابز الفرنسيّة في سايفون، وجد دارو في الخارج يرعى مقلاة على نارٍ مشتعلة.

قال دارو دون أن يستدير: «أنا أحضر (البانكيك)، لقد أرسلت لي زوجتي علبة من المزيج الجاهز حتى إنه يحتوي على حبات توت أزرق مجففة، وأرسلت لي زجاجة شراب (فيرمونت)، أحضر شوكة».

«هل أنت متزوج؟».

«اعتقدت أن ما أرسلته سيصيبني بالحنين، تعرف كيف تفكر النساء».

«لن أنسى أبداً حب زوجتي».

نظر دارو إليه وقال: «أنا آسف».

لوح لين بيديه مؤشراً إلى عدم وجود داع للاعتذار، لم يرد أن يكون واحداً من أولئك الناس الذين لم يستطيعوا احتمال سعادة الآخرين. «كانت تحضر لي كعكات الأرز في كل مرة أغادر فيها».

عندما جهز الفطور نظر لين إلى الكعكة الذهبية على صحنه وإلى بركة الشراب البنية حولها. قال دارو: «كُل».

أخذ لين قضمته وتقياً، كان كل شيء غريباً عليه؛ الحلاوة والنكهة والطعم. غرز شوكته في بقع الفاكهة الموجودة في الكعكة وشعر بالغثيان، أكل دارو خمس كعكات مع كأس وراء كأس من القهوة. «هذا يأخذني إلى الوطن».

عندما استدار دارو رمى لين الكعك في الشجيرات التي خلفه، وعندما استدار إليه مرة أخرى ورأى الطبق فارغاً ابتسم ووضع واحدة أخرى عليه رغم اعتراض لين، قال له: «أنت تصبغ أمريكياً أكثر مع مرور كل دقيقة».

ولاحقاً في ذاك الصباح سأل فيسنا عن المواعيد المرتقبة، لكنه لم يجد دارو في أي مكان وبعد البحث لمدة ساعة وجده

أخيراً حيث كان واقفاً أمام صخرة منحوتة على هيئة الإله (أفالو كيتشفارا) التي تجسّد بوذا، أشار لين إلى فيسنا بالابتعاد وراقب دارو وهو يدرس الملامح المنحوتة بعينه الفارغة التي لا ترى، وابتسامة هادئة ترسم على شفتيه، كان يتفحص الرقائق والشقوق والظلال التي تغيّر التعابير المنحوتة كلما عبرتها الشمس وحتى حلول الليل، يستطيع لين أن يعمل مع رجل كهذا.

اعتاد لين في تلك الساعة المتأخرة أن يعود من القرية ويتمدّد على بساطه، وكان دارو دائماً مستيقظاً ويطالع شيئاً ما، وهناك زجاجة ويسكي إلى جانبه، وكان دوماً يصرّ على أن يشاركه لين بكأس صغير. كان لين يبلّل شفتيه بالكحول ويشربه حتى لو كان سماً ليُرضي من أمامه ومن ثم يغلق عينيه ويشعر أن الجدران تدور من حوله.

وعندما كان دارو يصل إلى جزء مثير من كتابه كان يقرأ تلك الأجزاء بصوت عال بغض النظر إن كان لين مشوشاً بعد الشرب أو كان قد غفاً، لذا اكتسب لين معرفته من تاريخ كتب المؤرخ (موهوت) الذي تحدّث عن الآثار في مقاطع شبيهة بالأحلام، لم يكن ليتأكد إن كانت قصصه حقيقية أم محض خيال.

(كان ملك كمبوديا وحاشيته التي وصل عددها إلى الآلاف يذهبون إلى صيد الفيلة في الغابات الشماليّة الكثيفة لبحيرة تونلي ساب العظيمة في عام 1550، وكان المرور محدوداً في بعض الأماكن لدرجة أن عبيد الملك اضطرّوا إلى قطع الخضرة والأشجار ليمرّوا من خلالها، وعندما أتوا مرّة إلى مكان كثيف بالنباتات ولم يستطيعوا تحقيق أيّ تقدّم فيه أدركوا أخيراً أن تلك ما كانت إلا جدراناً صخريّة صلبة تحت الخضرة الكثيفة

التي كانت جدار إنغكور الخارجي، الذي أعاد اكتشافه الخمير
الاحمر بعد أن كان منسياً منذ القرن الثاني عشر).

كانوا قد أنهوا عملهم باكراً في أحد الأيام، وعندما استدار
دارو عابراً زاوية أحد المباني ركض مباشرةً باتجاه لين، وحشر
قصاصة ورق في جيبه بسرعة. «ماذا تكتب طوال الوقت؟».

«لا شيء مجرد خريشة، قصائد وقصص».

«حقاً؟».

«كنت أكتب المسرحيات».

«دعني أقرأها، أنت تكتب بالإنجليزية اليس كذلك؟».

نظر لين إلى الأسفل واحمرت بشرته «بعض الأحيان ربّما»،
ويده على جيبه توحى بالرفض القاطع، وعندما أتى إلى غرفته
لينام ليلاً وجد دفترًا لولبيًا سميكا ورزمة أقلام حبر على
سجّادته.

أخيراً تمّ التقاط الصورة الأخيرة وتمّ وضع الأفلام في
علبها، ولم يستطع دارو تأجيل القدر المحتوم أكثر من ذلك،
فأخيراً سوف يرحل، لن يحرم نفسه أكثر من ذلك، لكنّ عليه
أن يتخّم نفسه بالحرب. في اليوم الأخير لهم وبينما كان يتمّ
تحميل الشاحنات، مشى دارو بين العمّال وقدمّ لهم هدايا
صغيرة، لكنه لم يجد سامانغ وفيسنا في أيّ مكان، وبما أنّ
لين أخذ فترة الصباح إجازة ذهب دارو وحيداً مع مترجم إلى
القرية، كان يأمل أن يلّمح الشّابة التي كانت تأتي إليه خلال
الليالي، تلك التي أطعمته فاكهة (الكاكايا) اللينة وفاكهة
(المانجوستينز) الاستوائية، لكنّه عرف أنّه لا يستطيع السّؤال
عنها. أراد أن يقدمّ للأخوين هديّة الوداع ألا وهي كاميرا
(روليفلكس) قديمة كان قد دربهما على استخدامها، وبما

أنه لم يستطع العثور عليهما طلب دارو من المترجم سؤال القرويين عنهما، أخذت دقائق طويلة عويصة تجيء وتذهب، وبينما كان دارو جالساً على صخرة يتعرق ويضرب الذبابات التي لم ينتبه لها كثيراً وهو مسحوراً بعمله، اهترت الأغصان القريبة منه وظهرت الشابة من خلف شجرة (البانيان) واثكأت على جذع الشجرة وفركت فخذيها بيديها وهي تبتسم، فشعر دارو بالانزعاج المضاعف لاضطراره للرحيل، وأخيراً هزه المترجم من كتفيه.

«ماذا؟» قال دارو بصوت مرتفع وكان غضبه مخالفاً للباقة، أنزلت الفتاة يديها عن فخذيها وهربت مسرعة. اللعنة على الكاميرا، كلن كل ما في نفسه أكثر من أي شيء آخر هو رغبته العارمة أن يجري خلفها من أجل لقاء واحد أخير.

«مات سامانغ منذ يومين إثر لدغة من أفعى وفيسنا في العزاء الآن». كان أخوه يتسلق جهة جدار كبير من الآثار فترنحت كوبرا خارجة منه وعضته في فخذه.

ضرب دارو كفيه في الهواء وقال: «لم لم يخبرنا أحد؟ لدينا مضاد للسّم والطبيب يبعد عنا مسافة عدة ساعات فقط». «لقد مات بسرعة ولم يريدوا إزعاجك».

عاد دارو إلى المخيم مهزوزاً ورمى مقتنياته كلها في حقائب، لقد تهشمت تعويذة المكان (الفتاة - المعابد - البانكيك) كل شيء كان سخيلاً ويقوده إلى الجنون وكل ما يريده الآن هو العودة إلى العمل الواقعي.

دخل لين وراه. قال دارو بغضب: «هل سمعت ما حدث لسامانغ؟».

«إنه أمر يدعو إلى الحزن».

«ليس الحزن! إنه غباءٌ وجهلٌ لم يكن هناك من داعٍ لحدوثه، انس هذا المكان».

«كان من الممكن أن يكون سامانغ يقوم بعملٍ آخر عندما وجدته الأفعى».

«لكنه لم يكن مكلفاً شيئاً آخر لقد كان يعمل معي».

حمل لين حقائبه: «سأتحقق من المعدات على الشاحنات»، استدار مبتعداً ثم عاد: «إنه محظوظ فقد كان يؤذي واجبه ويكسب ليعيل عائلته، عليك إعطاء الكاميرا لفيستا، وإذا نجح في عمله فبإمكانه كسب المال، وهذا كل ما يهم سامانغ الآن». تدمر دارو وهز رأسه ودفع حقيبة ثقيلة مُخرجاً إيّاها من الباب بدفعة قوية من قدمه: «أمل ألا أكون محظوظاً مثل سامانغ». أمسك منشفة ومسح عرقه وأعاد ارتداء نظارته: «اللعنة، أنا لم يحالفني الحظ».

«هناك تلك الشابة التي استضافتها، زوجة أخيهم الأرملة التي لديها طفلان لتطعمهما، وسيكون من المناسب إعطاؤها بعض المال لكي تتمكن من إعالة نفسها وعدم الاضطرار إلى بيع جسدها للأجانب».

عندما اكتشف الأوروبيون إنغكور رفضوا تصديق أن أهلها قد بنوا معابدها الأصلية، فقد ظلّوا باختصار أنهم وجدوا مدينة أفلاطون الضائعة (أتلانتس).

كانت الشابة تُسقط قطع الفاكهة الدافئة في فم دارو لتعطيه إحساساً مزيّفاً بالفهم والذي سرعان ما فقده، إحساس لم ينقله إلى العالم الحديث حيث كان فاصل الموت بين الحقنة ورجل يحتضر أكثر من فاصل المسافة. شعر أن الملك القديم يضرب الأدغال وأن جدار الصخور الخاص بكنزهِ يسد الطريق.

قبل مغادرة إنغكور وضع لين مغلف دفتر ممزق في حضان دارو.

(عاش الأخوان تام ولانغ خلال فترة حكم الملك هونغ، وكانا مخلصين جداً لبعضهما، كانا قد تيثما في سن صغيرة وجاء للعيش مع سيد طيب لديه ابنة جميلة، وعندما كبرا كلاهما عشقا الفتاة سرّاً لكن الملك زوجها للأخ الأكبر تام. أحب الشاب والفتاة بعضهما بسعادة لدرجة أن تام نسي أمراخيه الأصغر لانغ، وعندما أصبح غير قادر على تحمل تعاسته؛ وهي فقدان أهم الأشخاص في العالم بالنسبة إليه وغيرته من سعادتهما، هرب لانغ، وعندما وصل إلى البحر ولم يتمكن من متابعة الطريق وقع على الأرض ومات من الحزن، وتحول إلى صخرة كلسيّة طباشيريّة، وعندما أدرك تام أن أخاه قد رحل شعر بالعار من إهماله له وذهب باحثاً عنه، وبعد أن يئس من العثور عليه وقف عند البحر وجلس على صخرة بيضاء كلسيّة طباشيريّة، ويكى حتى مات، وتحول إلى شجرة بجذع مستقيم وأوراق نخيل خضراء، شجرة أكيرا).

«هل هذا من تأليفك؟»

«إنها أسطورة فيتناميّة شهيرة كما أذكرها، أخبرك إياها فقط

لكي تفهم أين أنت.»

«إنها حزينة ومأساويّة.»

«إنها رموزنا الوطنيّة، نحن نأسّ اعتدنا الحزن متوقعين أن

يتمّ تعويضنا بما يوازيه فرحاً.»

عندما عادوا إلى سايفون، سارع غاري إلى استدعاء لين؛ لأنّ

القيادة العامّة لجيش جمهوريّة فيتنام طلبت مثوله، فأوراق

هويّته التي قدّمها كانت كلّها مزيفة؛ «عرفت، لقد عرفت أنّك

أفضل من أن تكون حقيقياً، من هو تران باو لين؟ أخبرني، هم
يظنون أنه فاز من جيش فيتنام الجنوبي». «أنا لا أعلم فعلاً، لقد عمل لين لدي السنة الماضية». «كيف ذلك وأنا عرفتكما ببعضكما منذ عدة أسابيع؟». «سنة كاملة، سوف أذهب للتحديث مع جيش جمهورية فيتنام، أنت تعلم بقليل من المداينة لن يعيروه أي اهتمام». «تبع لين دارو إلى الخارج: «كيف التقينا؟...». «لقد عملنا مع بعضنا لمدة سنة». «هل أنت متأكد؟». «هل تريد أن تكون جندياً مرة أخرى؟». «لا».

«بعض الإطراء وصور للزعيم يمكن أن تساعدنا كثيراً، لاحظت كيف بقيت مستيقظاً إلى وقت متأخر حتى لا تلتقي بصديقتي». أغلق دارو عينيه نصف إغلاق بسبب ضوء الشمس وابتسم: «إننا معاً نشكل فريقاً جيداً، ولا أحد يستجدي العمل معي». عندما أصبح لين معاوناً لدارو كانت الحرب صغيرة وحديثة، حرب إعلامية فقط، حرب أهلية في بلد راكد، كان الوجود الأمريكي الشيء الوحيد الذي قاد دارو إلى هناك، لقد كان موقفاً أخيراً متردداً قبل التقاعد من العمل في الحرب. جلسا في ظل أشجار المطاط في كوتشينغ في منطقة المثلث الحديدي، توقف لين ليلتقط صورة بعد قيام معركة قبل أن يبعده دارو، ومع ذلك أصابته شظية ثلمت وجهه وعنقه، حتى كاميرا (اللايكا) التي كانا يصوران بها تضررت، انحنى دارو فوق الطبيب ليتأكد أنه نظف الجرح الهلالي على خده: «لديك الآن علامة جمال، النساء تحب الندوب».

قال لين: «أستطيع إصلاح الكاميرا».

سحب دارو سحبة طويلة من سيجارته: «ألا ترى كيف؟».

أمسك لين غلاف الهيكل المحروق وشوكة معدنية، وراقبه دارو باستمتاع: «أين تعلّمت هذا؟ جيش فيتنام الجنوبي لا يعلم مثل هذه الأشياء».

ارتجف لين.

«أنت رجل البصل فعند تقشير طبقة تجد لغزاً آخر وراءها».

«ما من لغز».

قال دارو: «لقد قرأت أن جيش فيتنام الجنوبي يدرّب المصوّرين على العمل تحت أية ظروف».

«قرأت ذلك أيضاً».

ضحك دارو: «يصطنعون اللقطات لتصويرها ويصنعون الأبطال، ليسوا مثلنا فنحن نعرض الحقيقة».

كان باقي الصّحبة خارج مرمى السّمع، ومع هذا تحدّث لين برفق: «تخيّل أنّ والد أحد الرّجال كان يعمل بروفيسوراً في جامعة هانوي، وأثّه حارب الفرنسيّين ليحرّر بلادنا، وأنّ الفرنسيّين أصبحوا الأمريكيّين، وأنّ الوطنيّين أصبحوا الشيوعيّين، وتخيّل أنّ الابن تعلّم تصليح الكاميرا باستخدام الغلاف والشوكة، ثم وجد أنّ وعودهم أكاذيب فهرب واضطرّ لأن يحارب لصالح جيش فيتنام الجنوبيّ. وافترض أنّه بعد كلّ هذا الوقت الذي قضاه في القتال كلّ ما أراده هو الهرب من الحرب، إذا كان ذلك صحيحاً، فهل كنت سترضى بتعيينه معاوناً لك؟».

«لماذا لا يهرب؟».

«هو مرتبطٌ ببلده». فرك لين يديه بمعصميه.

سحب دارو سحبة أخرى من السيجارة وأعطى لين واحدة:
«لقد عانى هذا الرجل بما فيه الكفاية وسيكون فخراً لي أن
أعمل إلى جانبه».

أشاح لين بنظره، لم يستطع مقاومة الإحساس أنه فقد ماء
وجهه بالبوح بالكثير من أسرارهِ، ومع ذلك عرف أن الأمريكي
توقع ذلك واحتاج إلى الإذلال ليشعر بالراحة.

قال دارو: «لدي سؤال، هذا الرجل الخيالي الذي عمل في
الشمال هل سبق له أن رأى القائد الأعلى؟».

«أظن أنه رآه.. نعم». كلما زاد الشخص في عرض تفاصيل
القصة قل قبولها كقصة واقعية.
«أين؟».

«خارج مدينة هانوي وهو يزور صديقه الذي عمل حارساً، كان
في قرية صغيرة مؤلفة من سلسلة من عدة أكواخ ممتدة على
طول قناة، وفي حديقة صغيرة كان ينحني على المزروعات لعدة
ساعات وهو يقوم بالتعشيب، كان فقط في الخمسينيات من
عمره لكنه كان مريضاً بالسّل وبدأ معمرّاً جداً، ويلمحة واحدة
يظهر أنه عجوز يقوم بتعشيب حديقته، كان مختبئاً، مختبئاً
لأن الجميع استطاعوا رؤيته بشكل واضح».

خرجوا جميعاً في دورية استكشاف طويلة الأمد إلى مقاطعة
تسيطر عليها العصابات.

كان دارو يفضل هذه المجموعات التي تذهب مكتسبة الطباع
الحضارية للبلد، لأنهم سمحوا له أن يفهم طبيعة مكان ما أفضل
من المجموعات الكبيرة التي حوّلت كل مكان إلى قاعدة أمريكية.
وافقت القوات الخاصة أن تدع دارو يذهب على شرط عدم ذكره
لمهمته ودون التقاط صور. لقد عرف من تجاربه السابقة أن

الأمريستحق ببساطة أن يرى مواصفات الأرض والمكان مع أن هذا الأمر قاد غاري إلى الجنون وأغضبه.

مشوا في صمت لأيام دون أن يلتقوا بإنسان آخر في الأدغال المظلمة، والخوف من الأماكن المغلقة يسيطر عليهم. مرت أيام تبعثها ليال وتلتها أيام، لم يعودوا يحسبون الوقت، يتبعون مسارات عنكبوتية وهم غير قادرين على الحركة أو الكلام، والصوت الوحيد الذي كانوا يسمعون هو صوت المطر الذي يضرب أوراق الشجر.

فكر لين بالوجوه الصخرية الفارغة في إنفكور التي لا تنظر إلى أي شيء. مرت قرون دون أن يتدخل صوت بشري واحد، أراحه مجرد المجهود الجسدي حيث استلقى نائماً في الليل على الأرض ليستيقظ صباحاً ويجد يديه ملتفتان حول معصميه وجلده مرضوض ومحكوك.

كان تأثير الدورية على دارو غير متوقع فلربما حان الوقت له أن يشحن عينيه بعد أن ابتعد عن إنفكور، فبعد كل الحروب التي غطاها، شعر بتواصل مع ذلك المكان، كان ذلك بسبب نوعية الضوء على الوجوه الأمريكية الشابة في تلك الأرض القديمة التي كانت أيضاً جميلة ومرعبة، لقد وجد حريه.

أمضت الدورية الليل في أرض صغيرة مقطوعة الشجر في قرية مؤلفة من ستة أكواخ على ضفة رافد صغير، كان الناس لطفاً حتى إنهم ذبحوا دجاجة على شرفهم بينما شارك الجنود بمؤنهم، أحضر الشيف زجاجة خمر مهيبة للشرب، وبعد أن غادروا فجراً توقفوا مرة أخرى بعد خمسة أيام ليحتموا من المطر ووصلوا إلى أطلال يتصاعد منها الدخان، ودزينة من القرويين كانوا موتى ورائحتهم عفنة وهم غارقون في بحر كثيف

من الطّين، وبما أنّه لن يكون هناك من يعرف أنّ الأمريكيّين كانوا في المقاطعة التي تلي الحدود المسموح بها، لم يكن هناك أيّ أخبار عن ذاك العنف، كان العدو يراقبهم وقد أخذ بثّاره، فالعدوّ الذي لا يرحم يجد من أعدائه رهبةً معيّنة. أدرك دارو أنّ فيتنام ستكون شيئاً مختلفاً عن الحروب الأخرى التي غطاها، كانت واجهة الأشياء بدايةً فقط دون أن تمثل شيئاً، كان لين محقّقاً فالأشياء كانت مخيفةً لأنّها كانت واضحة الرؤية.

اختفى أربعة جنود على طريق باثجاه الغرب أملين العثور على آثار للعدوّ الذي رحل، والتّقوا بعد ستّ ساعات، تبع دارو ولين وبقية الجنود خطاهم حتّى وصلوا إلى منطقة الهبوط الأصليّة.

انتظروا يوماً آخر بين نباتات الفيل العشبيّ غير قادرين على التكلّم أو عزف الموسيقى أو إشعال النّار لتسخين الطّعام، كانت حرارة الشّمس تشوي ظهورهم والهواء ثقيلٌ محمّل بطبقة رطبة تطنّ بطنين الحشرات، كان لين مختبئاً بين العشب الطّويل حاملاً بالهرب، لكن أين سيذهب وأخيراً فإنه طبقاً للبروتوكول كان على الجنديّ أن يبعث برسائل لاسلكية من أجل إخراج المجموعة، مع أنّ ذلك سيفضح وجودهم ويهدّد الآخرين بالخطر.

ثمّ ظهر الجنود المفقودون عن بعد كثلاثة ذئاب نحيلة جائعة حاملين الجنديّ الرّابع، كانوا يناضلون مُرهقين وكلّ منهم يتعثّر برجل أو ذراع للجنديّ الرّابع الذي كان فاقداً الوعي الآن. كان دارو سيّلتقط الكاميرا بشكل طبيعيّ ويبدأ بالتّصوير ما إن تبدأ الحركة، لكنّه الآن وضعها جانباً وركض إلى الميدان لحمل الرّجل الجريح، كان قراراً بلا تردد، فقد فعله من قبل هو وغيره آلاف المرّات.

وبالفريزة نفسها التي جعلت دارو يركض عبر الميدان، نسي لين حلمه بالهرب وتبعه، كانت قد جفت الخطوط والطين على وجوه الجنود ونظرات عيونهم لا ترف وتُظهر أن الحرب قد بدأت والمعاناة قد بدأت.

لم يتسن الوقت لأي منهن لأن يلاحظ أن لين التقط صورة لدارو وهو يساعد في حمل الجندي الجريح، كان الوحيد في الصورة من دون سلاح أو خوذة عسكرية أو سترة واقية من الرصاص، شعر لين بشيء يتحرك في داخله للمرة الأولى منذ أن غادر قريته، كان تخدير الحزن قد ازداد لوقت قصير، كل ما أحسّه هو خوف على دارو. ليحافظ المرء على حياته في هذه الحرب يجب ألا يكون بالغ الشجاعة.

كان دارو حزيناً بعد العودة إلى سايفون و«كانت الصور ستُظهر ما يحدث. والآن ليس هناك ما يمكن عمله، فإذا لم نقم بتصوير الشيء فكأنه لم يحدث».

«لا يهتم أولئك القرويون إن كان قد تمّ تصويرهم أم لا».
قال دارو دون أن يفهم أن الأسوأ كان قد حدث للين مسبقاً:
«لديك وقت لتفادي هذا الأمر».
«وأنت أيضاً تستطيع ذلك».

لكن ذلك لم يكن صحيحاً، لقد علم دارو أن كليهما كانا متورطين في هذا الأمر ولا يستطيعان الإفلات.

(3)

حرب صغيرة رائعة

سايفون، نوفمبر من عام 1965

أقلت شمس الظهيرة المتأخرة ضوءاً منصهرًا على الشارع،
طلت كل شيء بلون نحاسي مذهب معثق صدئ، لونت الأرصفة
وكراسي المطاعم والأكشاك المتهاكة التي كانت تباع سجائر أو
أفلاماً أو كتباً، حتى إنها أعطت آلات السيكلو الصدئة الواقفة
في الشارع بلا حراك والوجوه الهزيلة للسائقين النيام خاصية
ريفية غير موجودة إلا في الصور الأثرية العتيقة. كان بعض
الفيتناميين متمددين على أسرة صغيرة متنقلة في الشارع
يقرؤون الصحف بكسل أو يلهون بالنوم وينتظرون راحة حلول
الليل.

كان هذا الجزء من المدينة عائداً للغربيين وكان عمل
الفيتناميين هنا هو كسب المال منهم إما بإطعامهم في المطاعم
وإما ببيعهم أشياء من الأكشاك المتهاكة أو بإيصالهم إلى
أطراف المدينة بآلات السيكلو الصدئة أو بممارسة الجنس معهم
أو بالتجسس عليهم أو بمزيج من كل هذه الأشياء.

أتت سيارة الجيب العسكرية الغبراء إلى أحد المواقع السريعة
أمام فندق كونتيننتال حيث المشاة وآلات السيكلو منتشرون

كالنار، وخرج موظفٌ عريض الكتفين ومدّ يده لهيلين ليساعدها على النزول من مقعد المسافرين، قالت هيلين ضاحكة: «يا لها من خدمة! كم علي أن أدفع بقشيشاً؟».

«فقط عديني أنك ستذهبين لتناول مشروب معنا».

«أعدك».

«نحن متمركزون هنا لعدة أيام أخرى فقط».

«سأفعل».

قالتها ونظرت إلى الطريق الذي يقودها إلى الفندق. صرخ الجندي ضاحكاً: «تذكّري أننا نعرف أين تعيشين، أنت هيلين من سايغون».

ابتسم الأمريكيون الموجودون على الشرفات الأقرب إلى رصيف المشاة وهزّوا رؤوسهم، لكنّ الفيتناميين في الشارع اكتفوا بالتحديق ببساطة، وتعابير وجوههم تستحيل قراءتها. كان لين جالساً على طاولة مع باو يرى المشهد يمر أمامهم بصمت في الشارع، رأيا المرأة الشقراء الطويلة ذات الروح العالية تنفض يديها على سروالها وتملّس شعرها المنسق على شكل ذنب الفرس، تفرّق الحشد بينما مشّت هي على الرصيف متخطية أدراج الفندق. هزّ باو رأسه وداس في بركة طين بنية حمراء ممّا أغضب النادل الذي أسرع لإحضار خرقة لتنظيفها. «يظنون أنّ هذا ملعبهم». أشار لين إلى النادل لكي يحضر له زجاجة أخرى من المياه المعدنية؛ لأنّه كان قد تعب من لقائه مع باو وكيف حدّق ذاك العجوز في وجهه مباشرة مهاجماً إيّاه بنفخات أنفاسه الدافئة القديمة كسمكة غير طازجة، قال باو: «زجاجة ويسكي أخرى أيضاً». بالنسبة لشخص أفصح عن أنه (بروليتاري) بدا باو مرتاحاً لاستخدام فندق كونتinentال كمكان إقامته الخاص.

«أضف زجاجة أخرى من ويسكي (جاك دانيال) إلى حسابي». كان لين يعمل لدى دارو لمدة سنة، وأخيراً انتقل الآن إلى شقته الخاصة في سايفون وبدأ بممارسة شيء من طبيعته الحياة عندما ظهر باو فجأة في أحد المقاهي التي كان يتردد عليها. ومع أنه لم يكن واضحاً في أي جهة كان يعمل، لكن ما كان واضحاً أنه تلقى عرضاً يستحيل رفضه من الشماليين، قال لـ (لين): «تران باو لين، لم نكد نتعرف عليك، من الجيد بالنسبة لنا أن نرى كيف ازدهرت أحوالك في العالم منذ مغادرتك المفاجئة للحزب». كان له وجه فلاح مريع متبلد الذهن، وكان لديه أيضاً ولاء الجهلة لخط الحزب وكانت مفاجئة لـ (لين) أنهم لم يقتلوه حتى الآن. قال: «لدينا مخططات كبيرة تخصك، ستجعل أرض أجدادك فخورة بك». كان العمل غير ضار نوعاً ما، ولمرتين في الشهر، حيث كان ينقل التقارير إلى باو عن مكان وجوده مع دارو، وأي قارئ اعتيادي لمجلة أو جريدة كان سيتمكن من معرفة هذه المعلومات. الفكرة كانت بمعرفة العدو، فتأكد لين من أن باو قد أصابه الضجر بإخبار التفاصيل الثافهة غير المهمة لدرجة أنه لم ينقل له أي شيء له أدنى أهمية، كان يقضي معظم وجباته متحدثاً عن الطعام. أوضح باو له أنه لن يسمع أبداً صوت الطلقة التي ستقتله إذا اختار ألا يكون متعاوناً: «أنت محظوظ لأنك تملك عملاً وإلا لما كنت جالساً تتحدث معي الآن».

كان لون السماء قد تحول إلى الذهبي الغامق عندما نزلت المرأة مرتدية ثوباً حريراً أزرق كلون المحيط ساعة الغسق، كان لحذائها العالي صوت طقطقة رقيقة على الأرض عندما مشت إلى البار حيث الرجل الذي كانت على موعد معه واقف بانتظارها وهو (روبرت بودرو).

حُيِّلَ إلى لين أن الهواء أصبح أكثر لطفاً في المكان الذي كانت تمر فيه، قال وهو ينهض: «علي الذهاب الآن». كانت الحانة مزدحمة فلم يكن هناك إلا مكان للوقوف، لكن هيلين تمكنت من رؤية روبرت في الراوية. قالت: «أنا آسفة، فلم أستطع العثور على وسيلة نقل من المشفى فاضطرت إلى أن أطلب من بعض ضباط الجيش أن يقلّوني إلى هنا». استدار روبرت ونظر إليها والمشروب في يده وقال: «تبدين جميلة، وتستحق أجمل فتاة في سايفون أن أنتظرها». كان روبرت يعمل في إحدى المحطات ويضيّع وقته في المكتب الأمامي عندما أتت هي باحثة عن عمل حرّ، وبعد أن أحس أنها خالية الذهن كلياً جعلها بسرعة تشعر بأنها لا تستطيع الاستغناء عنه. كان جسمه ثخيناً قصير القامة بأكتاف عضلية وصدر ممدود ممّا اضطرّه لأن يتحرك بمشية ثقيلة ثخينة كمشية رياضيّ سابق، وأيضاً كرياضيّ سابق كأن يشعر بأن أفضل أيّامه باتت خلفه، كانت أناقته زائدة قليلاً، ووطنيته وانتماؤه إلى الحزب الجنوبيّ كذلك، فلم يكن متناسباً مع جوّ الصحافيين الأصغر سناً الذين بدؤوا بالتسرب إلى المدينة. كانت هيلين من نوع الفتيات الذي حلم بأن يريها للجميع في وطنه ولكنه شعر أنّه على حافة معجزة بعد أن التقى بها في سايفون. كان فيما بعد ظهر ذاك اليوم يخطّط أن يجعلها تقع في حبه بشكل كامل حتّى تنتهي مهمّته ويعود متأبطاً إياها إلى الوطن كعبدة، كغطاء لمهنته الخارجية غير المثيرة. ابتسمت هي، فقد كانت تعيش في الوطن حياة سهلة، لكنّ الانتباه الذي كانت تتلقّاه هنا لكونها نادرة كان شيئاً لم تعتد عليه. «خذي رشفة مشروب الروم من أجل الطريق».

أعطاها كأسه المرتعة الثقيلة ذات القاعدة الكريستالية الصلبة التي جعلت يدها تهبط من ثقلها المفاجئ: «مممم، كنت بحاجة إلى ذلك».

«يجب عليك العودة معي إلى الوطن إلى (نيو أورليانز) فكل الأشياء الجيدة تحدث هناك، يمكننا العيش في أحد البيوت الأثرية الكبيرة ويمكننا أن نملاه بالأطفال». قالت وهي تلمس عينيها مستخدمة كنة شمالية زائفة. «عزيزي روبرت لقد أتيت إلى سايفون لأهرب من ذلك كله».

«لنذهب، الجميع غادروا إلى المطعم».

وقفوا على الرصيف بينما أخذ روبرت يساوم على أجرة التوصيل إلى (كولون) مع سائقي سيكلو كانا موجودين في المكان. تحركت غيوم رمادية غامقة بلون الرصاص إلى المكان الذي حل فيه الظلام واستقرت على قمم الأبنية، كانت الحرارة عالية والرطوبة كثيفة جداً لدرجة أن هيلين شعرت أنها دخلت إلى ساونا بكامل ملابسها. وكان هناك وميض في الهواء حيث مشت بين روبرت والسائقين وأنزلت رأسها تحت المظلة المهرثة التي غطت السيكلو الذي كان موجوداً للحماية من المطر.

تغير لون المدينة من مسحات اللون البني الذهبي الداكن إلى ظلال ودرجات اللون الفضي، والهواء كان مبتلاً ينادي النهر القريب الذي كان يحمل الاسم ذاته. أما الورود المكومة المصفوفة في أوان على جانب الطريق فقد طرّزتها قطرات الماء.

«ادفع الأجرة يا روبرت». صاحت ضاحكة بينما صعدت

السيكلو الثاني الذي يقف خلفها وهي تقطر ماءً.

بدا الهطول غير المتوقع للمطر فجائياً بالنسبة لها ليس كما كان يحدث في وطنها حيث كانت تسقط عدة قطرات لتحذر

النّاس ثمّ تزداد غزارة بالتّدريج. لقد حدث الأمر بلمح البصر، هطول لشلالات نياجارا فجائي. كانت الرّياح الموسميّة تهزّ المحيط كأنّها تحاول استعادة الأرض.

كان الأمر كذلك في كولون خاصّة وهي سايفون الصينيّة حيث لم يوقف الهطول وتيرة العمل الكثيفة. كان النّاس ببساطة يغطّون أنفسهم بمظلة أو قطعة بلاستيك أو أيّ شيء بين أيديهم ويتابعون عملهم. سرعان ما أصبح السائقان مغمورين بالمياه لكنّهما لم يابها بتواصل هطول المطر، وسرعان ما أصبحت قمصانهم وسراويلهم القصيرة مبتلة تماماً وملتصقة بجسميهما مفتولي العضلات، والمياه تخوض من صنادلهم المطاطيّة وهما يشغلان آلتيهما.

عندما توقّفوا في الازدحام استدارت هيلين لتري سائقها يغلق عينيه ويرفع وجهه إلى السّماء، وعندما ركن السيكلو الثّاني بجانبهما مالت باتجاه روبرت وهمست: «لا يبدو أنّه يمانع الابتلال». قال روبرت: «من المحتمل أن يكون هذا هو الاستحمام الوحيد الذي يحصل عليه يومياً».

كان قد تمّ تعيين روبرت في خمسة بلدان منذ أن بدأ يعمل كصحافي إخباري، وكان فخوراً بأنّه بقي منيعاً ومنفصلاً عن كلّ واحد منهم. تشوّق إلى الوقت الذي ستنتهي فيه دهشة الأمور الغريبة بالنّسبة إلى هيلين أيضاً.

«لا تتحدّث بصوت عال».

«لا يستطيع أن يفهمني أحد يا عزيزتي».

«لا يهمّ. هذا غير لطيف».

«معك حقّ فهو على الأرجح سائق سيكلو نهاريّ وعامل مختصّ بالمحادثات الصّوتيّة ليلاً، وما لم يكن أحد اللاجئيين الذين دمرنا قراهم، أريد بالتأكيد أن أكون لطيفاً من أجل هيلين».

حدّقت هيلين في وجهه وقالت: «ربّما هو مجرّد سائق سيكلو يحاول أن يكسب قوته». مدّت يدها وقرصت ذراع روبرت: «آه، هذا مؤلّم».

ضحكت، فلم تكن ساذجة كما ظنّها روبرت، لكنّها تقوم بالدور بإتقان.

«توقفي عن السّخرية مني».

الحقيقة أنّ سايفون كانت مكاناً قدراً وحزيناً وتافهاً ورخيصاً، لكنّ كارثة فقر النّاس أضعفتها. وجدت قبول الفيتناميين وصراعهم للمعيشة مرعباً، وتساءلت ماذا أرادت الولايات المتّحدة من بلد متخلف كهذا.

«لا شيء بسيط هنا أبداً يا هيلين». فكر أنّها أكثر دهاء ممّا أبدته لكنّه قدّر لها ادّعاءها السّاذجة لأنّه كان متعباً من عيون النّساء القاسية هنا. تلك النّساء اللواتي كنّ يحسبن صحبتهنّ له بنصف الساعة.

وبعد مسافة عدّة أبنية بعيداً عن المطعم وصل الازدحام إلى مكان متوقّف يعجّ بزمجرة السيّارات والعربات والدراجات والشاحنات والموتورات. تحوّل الهواء المحيط إثر الوقوف الثّابت إلى لون أزرق ممزوج بالإرهاق. وكان سبب التأخير هو العربة المقلوبة في الأمام. كانت حمولتها من الطّيور والبطّ والإوزّ والسّنونو متناثرة في الشّارع تتخبّط في مراحل مختلفة من المعاناة. طاف الزّيش الناعم في البرك في الشّارع حتّى غمرته المياه وغاص تحتها وشكّل حساء بشكل الغيم. كان هناك مجموعة من الرّجال الصينيين يتجادلون بصوت عال. والطّيور التي في أقفاص الخيزران انقلبت في الشّارع فصفّروا وصاحوا بفزع. كانت العديد من الطّيور معلّقة بشكل مقلوب في العربة

ومتروكة حية لتبقى طازجة، والآن أصبح العديد منها نصف مدهوساً وإن كانت لا تزال حية ترفرف بأجنحتها المكسورة أو تصارع بأرجلها وظهورها المقطوعة. بدأ مالك العربية بقطع رؤوسها بفأس هلالية. ورمى الرؤوس البرتقالية القذرة المقطوعة في كيس من الخيش. ثم ربطه بشريط من اللون الأحمر البراق كان ملقياً بين برك الماء الطينية التي تسيل في منتصف الشارع. نظر سائقو السيكلو إليه دون أية نية للحراك حتى يتم إخلاء الشارع.

قالت هيلين: «لا أستطيع مشاهدة ذلك». منذ وصولها إلى المدينة منذ عدة أسابيع بذلت مجهوداً لكي لا ترى قبح المدينة، ولكن ما لا يمكن تفاديه الآن يعترض طريقها.

«حسناً نستطيع المشي، فالمطعم على بعد شارع فقط».

خفت حدة المطر وتحول إلى رذاذ خفيف ووقفت هيلين على الطريق مرتجفة وهي تنظر إلى فوضى الزيش والدم بانتظار روبرت ليدفع الأجرة، كان هناك كلب يراقب من أحد الأزقة وركض فجأة قريباً من هيلين وأمسك بإحدى البطات، رأت هيلين الطرف السفلي الأبيض لبطتها في فمه ورأته يركض مبتعداً بجائزته ورجل عجوز يتبعه بمكنسة. قام الكلب بنثر الطين والماء في وجه مطارده باستخدام أطرافه الخلفية قبل أن يختفي وراء زاوية الشارع حاملاً جائزته. وافق الرجل الذي سبب انقلاب العربية على شراء كل الطيور وكان يناقش السعر وتفاصيله في ذلك الوقت، أصدرت البطات المتبقية على قيد الحياة أصواتاً جنونية في أقفاصها عندما حملها صاحب العربية وقطع رؤوسها على الأرض باستخدام فأس صغيرة ورمى أجسامها في صندوق.

ركضت هيلين باتجاهه وأشارت بيدها أمله ألا يقتل تلك الطيور وأخرجت بضعة دولارات من حقيبتها وأعطتها للعجوز الذي ابتسم لها ومال برأسه.

أتى روبرت إليها وقال: «ماذا تفعلين؟»
«أريده أن يحزرها».

«ماذا؟ اتظنين أن فرصة طيور بطّ محزرة ستحدث في فيتنام؟». لقد جعله سخف الموقف يشعر بأن عليه أن يحميها، لأن باستطاعته أن يحب امرأة كهذه فلن تستطيع الصمود هناك لوقت طويل.

«لقد فهمني، فهو سيأخذها إلى القرية ويتصرف بها».
فجأة بدأ المطري هطل قوياً مرة أخرى فأمسك روبرت بيدها وركضا وهما يضحكان.

قال لها: «ربما ستكون إحدى تلك البطّات على طبقك في المطعم عندما نطلب وجبتنا».

وصلا إلى المطعم وأجبرهما النادل المتجهّم على الوقوف عند باب الدخول ليطلب لهما مناشف تم إحضارها من المطبخ ليحفظا نفسيهما. وقف أمامهما ويداه مطويتان ومتقاطعتان أمام صدره وهو يضرب بمقدمة قدمه على الأرض وينتظرهما. نظرت هيلين إلى الأسفل ورأت أنه يرتدي حذاءً نسائياً جلدياً أسود لامعاً.

قاد روبرت هيلين من ذراعها إلى طاولة كبيرة يجلس عليها صحافيون مخبرون في آخر الغرفة، وعندما رأى الرجال الموجودون على الطاولة هيلين توقفت المحادثة بينهم. كان شعر هيلين منسدلاً كجدائل ملتصقة وثوبها أصبح باللون الأزرق الغامق كلون الليل. بدت بعض الوجوه متحجرة ووجوه أخرى

بدت عدائية بشكل صريح والقليل منها بدت مرتبكة، وعدم الترحيب بهما كان واضحاً. قال غاري: «تبدين كحورية خارجة من البحر».

«هل أتيت سابحة من الولايات المتحدة؟».

قال روبرت: «يا جماعة هذه هيلين آدامز وهي صحافية مستقلة وصلت منذ أسبوع فقط».

«الآن بعد أن أتت النساء، لن تصبح هذه حرباً على درجة عالية».

«إنك تتعجل الأمور يا روبرت. ماذا تفعل؟ هل كل ما تفعله هو انتظار الجميلات اللواتي ينزلن من الطائرة في قاعدة (تان سون نهوت) الجوية؟».

قال روبرت وهو يقدمها للناس على الطاولة: «هذا مضحك. وذاك هو نجيون بران لين الرجل المسكين المضطر لمساعدة ذاك الشهير سام دارو مهلهل المظهر في نهاية الطاولة، والمعروف أكثر باسم مستر فيتنام ربما لأنه الرجل الأكثر شجاعة هنا والأشد قصر نظر».

عمّت الضحكات والضحكات أرجاء الطاولة واستمر الإحراج لفترة.

«ألا تحضر الممرضات عادة يا روبرت؟».

نهض دارو من نهاية الطاولة بعد أن فرد ساقيه على مقعده تحت الطاولة المنخفضة. كان برونزي البشرة وشعره الأبيض الرمادي يلتف في حلقات مجعدة حول أذنيه. ويداه تمسدان القميص المجعد الذي كان يرتديه، مع ذلك لم يكن الغضب الذي بين عينيه عدم إعجاب، هو فقط لم يستطع تحمل وجود وجه إنسان بريء آخر يهبط على أرض تلك الحرب

خاصةً إن كان أنثى، وكان غاضباً من روبرت لأنه أحضرها. ومع ذلك كانت تبدو مثيرةً للشفقة ومبلسةً ومتورطةً في الحرب مسبقاً. لم يكن سيسمح للرجال بمطاردتها. انحنى لها انحناءً بسيطاً وعيونه التي تقيّمها كعيون الصقر جعلتها تشعر بأنه يراقبها.

قال دارو وهو ينظر إلى الطاولة ويلتقط منديله: «نعتذر عن الترحيب السيئ. يا هيلين ذات الوجه الذي أطلق ألف سفينة». «انتبه، روبرت قادم».

ضحك غاري أيضاً بصوت عالٍ وأشاح بوجهه بعيداً وقال: «أين كفتة سرطان البحر التي طلبتها؟ أحضروا النادل».

قال دارو: «أقترح أن نشرب نخب القادمة الجديدة، أهلاً بك في حرينا الصغيرة الرائعة».

قال روبرت بعد أن أحسّ بخطأ إحضارها إلى هناك: «إن روعتها تقلّ يوماً بعد يوم».

رفع دارو يده ليدفع نظّارته إلى مستوى جسر أنفه ولاحظت هيلين ندبةً طويلةً ظاهرةً ممتدةً من معصمه إلى مرفقه وظهر من النسيج المرفوع أنه أرقّ من باقي ذراعه، رفع نظّارته وتحدّث بخطابةٍ ساخرة.

وعندما وقعت عيونهم على هيلين وهي تمشي بجانب الأسوار همسوا لبعضهم بكلماتٍ رقيقةٍ مجنّحة: «من على هذه الأرض يمكن أن يلومهم؟».

قال (إد) الذي يملك شعراً كالقشّ وأنفاً كبيراً: «يا إلهي هل يوجد ملاحظات تغشّ منها في لفافة البيض خاصتك أم ماذا؟». «إنه يتبجح الآن لنبدو جميعاً جهلة».

قال دارو: «معظمكم فعلاً جهلة وغير مثقفين».

ضحك الجميع بينما جلست هيلين وانحسر الثوثر. كان دارو قد جعل وجودها مقبولاً وغاري أعطاها كأساً من الويسكي لتشارك في شرب النخب فامسكت الكأس وأفرغته بجرعة واحدة. وانفجرت الطاولة بالضحكات. قالت هيلين بعد أن عرفت أنه أشفق عليها دون أن تقبل بذلك: «كلامك إطراء بالنسبة لي ولكني أخشى أنك أخطأت في شخصية هيلين».

أحضر النادل الذي يرتدي معطفاً أبيض طبقاً من الكفتة وملاً صحنها، وبعد انتهاء تأثير وصولها استمرت المحادثة بذات الطريقة الخشنة.

قال جاك وهو رجل أيرلندي من بوسطن: «أثناء وجودي في مقاطعة (تاي ننه) قام المترجم الذي كان يرافقني بسؤال عجوز القرية عن رأيه بما ينجزه القائد الجديد فقال: إنَّ القائد (ديم) شخصٌ جيّد جداً». فعمّت الهمهمات والضحكات الكسولة أرجاء الطاولة.

قال إد: «يا إلهي يبدو أننا نكسب العقول والقلوب أليس كذلك؟». فقال جاك: «ديم كان رجلاً سيئاً وقد أطيح به منذ سنتين». تابع جاك حديثه: «سألني بحذر من هو القائد الجديد». «كان عليك أن تقول: إنه العمّ (هوو)». «الجميع يتعرّف على الاسم فقط».

قال جاك: «فقلت له إن (كاي) هو من تسلم الحكم الآن». «بماذا ردّ عليك؟».

قال: «كاي جيّد جداً».

القهقهات والتمتمات الساخرة: «إنّ ذلك يطبّق نظرية لعبة الدومينو، فالناس لا يهتمّون بمآل الأمور، لا أحد يهتمّ إلا الأمريكيان».

«حتى الفرنسيون كانوا سيعقدون اتفاقاً مع (هوو) نفسه طالما سمح لهم بالاحتفاظ بمزارعهم والسماح لهم بفترة ساعة الكوكتيل التي يجتمعون فيها، كانوا سيقولون له: اذهب وكن اشتراكياً في مكان آخر من فضلك».

توقفت هيلين عن الأكل وكان كل ما أرادته أن تحبس لسانها وتراقب ولكنها لم تستطع: «لا أوافقكم الرأي».

قال (إد) مضيئاً عينيه: «على ماذا يا عزيزتي؟».

«غير صحيح أن الناس لا يهتمون بما تؤول إليه الأمور فقد اهتموا في كوريا، الجميع يريدون أن يصبحوا أحراراً».

«ما رأيك يا لين، يا قناتنا الغامضة المفتوحة مع الشمال؟».

رفع لين رأسه عن طبقه وقال: «رأيي أن هذا الأرر لذيذ جداً». وانفجرت الطاولة ضاحكة، وعندما هدأت تابع حديثه كأنه لم يلحظ المقاطعة: «لم يتناول العديد من الناس في هذا البلد أرراً كهذا منذ سنوات».

قال جاك: «دعهم يتناولون الأرر يا تعويدتنا الماركسية الكونفوشية».

قال دارو: «أعتذر لك. ولكن ما الذي تعرفينه عن كوريا فأنت ما زلت طفلة وكان من الممكن أن تكوني ملكة حفلة التخرج في الثانوية، العام الفائت».

«ربما لم تكن ستهرب من تلك الليلة دون أذية».

لقد مات أبي هناك في عام 1950 في معركة (تشوسن) وأخي كان في القوات الخاصة ومات في منطقة (سهل القصب) العام الماضي.

قال دارو رافضاً التعاطف معها: «على الأرجح أن نصف الموجودين حول هذه الطاولة موجودون هنا بدافع الفضول

والنصف الآخر بدافع الطمّوح، وليست الإثارة هي التي تقودنا بالتأكيد، عملنا يزدهر في الحرب والشّيء الرّائع بالنسبة لنا أنّه حتّى تنتهي هذه الحرب هناك المزيد سواء في الشرق الأوسط، إفريقيا، كمبوديا، لاوس، السّويس، الكونغو، لبنان، الجزائر، ليس هناك من داع أن تنتهي الحرب بالنسبة لنا أبداً.

«لست إلاّ مرتزقاً براق العينين أليس كذلك يا دارو؟»

تبع ذلك صمتٌ طويلٌ حدّقت فيه هيلين ودارو إلى بعضهما وأبعدا ناظريهما، ثمّ عاودا النّظر إلى بعضهما، كان وقتاً كافياً لإفراغ الصّحون وصبّ كؤوس الشّراب، لقد كان أكثر الرجال الذين رأتهم في حياتها غروراً، اشتعل وجهها غضباً.

«أنت مخطئٌ فقد كنت ملكةً حفل التّخرج منذ أربع سنوات».

انتشرت بعض الضّحكات والتّصفيقات: «هنا. هنا».

«من أين أنت؟»

«نشأت في جنوب كاليفورنيا».

سعل روبرت لأنّه أراد أن يلهي الحاضرين عما كان يحدث أمامه على الطاولة: «ما رأيكم جميعاً في تقدير الجيش أنّ الحرب ستنتهي خلال سنة؟».

أخذ دارو رشفةً من شراب آخر: «ستنتهي إذا توقّفنا، ألا يقرأ أحدٌ فيكم العمّ (هوو) أو ما يقوله العمّ (غياب)؟ (سنتابع القتال حتّى لو استمرّ مئة عام)».

«أنت لا تصدّق هذا أليس كذلك، فلا أحد يقاتل لمئة عام».

«بالتأكيد أصدّق ذلك وأنت أيضاً ستصدّقه يا (إد) إذا غادرت

غرفة الفندق المكيفة وكدحت معنا في الأدغال».

«سأترك البطولات لك. هل وضعت جائزة (البوليتزر) بإطارها

على مكتبك أم ليس بعد؟».

ابتسم دارو بتكلف ابتسامة مصطنعة غير متوازنة: «في الواقع لقد تم إرسالها إلى زوجتي، لذا لم أرها مطلقاً وأظن أنها علقتها في الحمام. وشعورها أن الشيك الذي تسلمته كان أفضل ما في الأمر؛ لأنه عوض عن راتبي الضئيل». انتشرت القهقهات على الطاولة: «لقد أبكيتني نهراً يا دارو».

ولما اقتربت ساعة حظر التجوال أصبح المطعم خاوياً، فقد أسرع الناس بالرحيل ومعهم كؤوسهم المليئة وزجاجاتهم، وهم يعدون بالعودة في صباح اليوم التالي. قام كل نادل بإزاحة مفارش الطاولات وقلب الكراسي، وكان الدلو والمسحة جاهزين عند باب المطبخ.

استدار جاك نحو هيلين: «حسناً هل كان علينا المجيء إلى هنا في بادئ الأمر أصلاً يا حبيبتي؟».

ابتسمت وقالت: «إلى هذا المطعم؟». انتشرت الضحكات: «قالوا في البيان الموجز اليوم إن ألفاً وثمانمئة رجل قد ماتوا اليوم ومن بينهم أخي».

قال دارو: «لم يتأخر الوقت بعد يا ملكة حفل التخرج. اخرجي من هنا بينما لا يزال الوضع جيداً».

«إذاً ماذا عن مصير بلدنا الواضح؟ ماذا كان سيحدث لو لم تكن أمريكا موجودة؟».

قال روبرت ضاحكاً: «ربما كان سينتهي الأمر بنا جميعاً ونحن نتحدث الضيتنامية».

سأل (إد): «لم يكن قدر فيتنام بيدها منذ زمنٍ طويل. ماذا عن الفرنسيين؟».

قال روبرت: «كان الفرنسيون في طريقهم إلى الرحيل».

قال دارو: «السبب فقط أن (هوو) وجد من هو أقوى منهم فلو لم يوجد الفرنسيون في فيتنام لما اضطر يوماً لإطلاق الجنى من القمقم».

«يا له من جنى!».

«حسناً يا عباقرة بما أننا حزننا وعرفنا سياسة العالم في ليلة واحدة أقترح أن نرفع الجلسة».

«حسناً».

«يبدو هذا جيداً. أين نذهب؟ النادي الرياضي أم السفينة؟».

شكّل الرجال على الرّصيف في الخارج دائرة كبيرة عاصفة لكنّ لين وقف بعيداً على الجنب. قال لهم طابت ليلتكم ومشى وحده مبتعداً، رأت هيلين جسمه النحيل المنعزل عن الآخرين يمشي مبتعداً. فمهما ريتوا على كتفه أو أحضروا له المشروبات لم يمتزج أبداً بأولئك الرجال.

استدار روبرت إلى هيلين: «أحتاج أن أذهب إلى المكتب لبعض الوقت، هل تمانعين في أن يوصلك جاك إلى الفندق؟ سألتقيك هناك في غضون ساعة لنحتسي الخمر. ما رأيك؟».

«بالتأكيد». قالت هيلين بخيبة أمل لأنّ الليلة انتهت بالنسبة إليها، لأنها أدركت أنّه تمّ إبعادها أيضاً من نادي الرجال.

«سأخذها أنا».. قال دارو بعد أن مشى ووقف بجانب روبرت واضعاً يديه في جيبه ورأسه منخفض قليلاً محدّقاً في شيء ما على الرّصيف.

قال روبرت: «لا بالتأكيد الفندق ليس عبر طريقك».

«في الواقع كنت ذاهباً في ذلك الطريق».

نظر روبرت إليه مباشرة ودفاعاته المعتادة مهزومة: «أين؟ أنت لا تعرف أين تقيم حتى».

ابتسم دارو والجميع منتظر: «كل شخص جديد يأتي كان يقيم في فندق كونتيننتال».

قال روبرت: «قال جاك إنه سيأخذها».

«أنا أيضاً لدي غرفة هناك، أتذكر».

قالت هيلين: «سأذهب مع سام». معطية روبرت نظرة استهجانية محاولة أن تلمس عنراً لنفسها كأن الاختيار كان خارجاً عن إرادتها. «لربما استطعت أن أريح بعض المعلومات منه حتى وصولنا إلى الفندق».

أدرك الرجال أن المباراة السجالية انتهت لصالح رابح واضح للجميع. أمسك (إد) قلبه بحزن ساخر وترشح على الرصيف. عض روبرت شفاهه وأحمر وجهه ورث جاك على ظهره: «تعال يا بني سنوصلك».

توقفت سيارتا جيب، وتجمع سائقاهما كصبية حمقى يتسكعون في البلدة.

سمعا صوتاً من إحدى السيارات: «كونا حذرين الآن. فقد تكون الشوارع خطرة ليلاً إذا كان الوقت متأخراً، فما يأتي بسهولة ينهب بسهولة، اليس كذلك يا روبرت؟». وانتشر الضحك بينما غادرت سيارتا الجيب.

قال دارو: «أخشى أنني ربما وضعت نفسي معك في خضم فضيحة صغيرة».

«لم نفعل شيئاً».

«لكننا سنفعل».

«لن نفعل». قالت هيلين أمام المطعم وهي تنظر إلى وجهه. حيث كان المصباح يعكس ضوءاً ذهبياً على أطراف خده ونظاراته فلم تتمكن من رؤية عينيه ثم قالت: «كان ذلك مفاجئاً».

«هذا من مفاتيح الحياة هنا، متسامية ومفاجئة، مفاجئة ومروعة كل شيء يصل إلى أقصى كثافته، لذا نحن جميعاً عالقون هنا».

«أنت لا تخيفني، أخبرني هل يحصل سام دارو العظيم على الفتيات دوماً؟».

«هو لم يحصل على الفتاة، لماذا تظنينه موجود هنا؟ فالولد الذي لا يستطيع الكلام يتعلم التقاط الصور، يوجد دم على ثوبك هل تعلمين؟».

نظرت إلى الأسفل ورات اللطخات التي لم تكن واضحة عندما كانت مبللة، على حاشية الثوب، وتوثر وجهها لإعادة المشهد في ذهنها: «البط والكلب الذي يركض وفي فمه إحداها». انحنى دارو ومسح قماش الثوب بمنديله لكن الدم كان قد جف: «هل تستطيعين المشي بهذه الأشياء؟» قال لها مشيراً إلى الحذاء العالي. «بالتأكيد».

«أريد أن أريك شيئاً، ليس بعيداً من هنا».

«لا أدري ربما من الأفضل أن نعود». لم تشعر بالشجاعة وهي وحدها معه كما شعرت بها عندما كانت مع المجموعة. كانت تشعر بكثير من الوحدة والحنين إلى الوطن فكان صعباً أن تثق بانجذابها إلى شخص ما.

«تعال، لن أعضك».

مشيا في الطرق الضيقة الملتوية حيث قام أصحاب المحال بإنزال لوحاتهم المكتوبة أغلبها بالفرنسية وبعضها بالفيتنامية ليضعوا مكانها لوحات مكتوبة بالإنجليزية. دارا حول الباعة في الرصيف وارتطم كتفاهما ببعض أحياناً.

لم تكن تعرف إن كان يعجبها، لكن كان لديها شغف للعمل
ولذاك البلد وهذا ما لم يكن موجوداً لدى الآخرين.

«لم يكن وجودي مرحباً به الليلة». قالت.

قال دارو: «الشباب؟ لا بأس بهم».

«إنهم لا يرغبون بوجود النساء هنا».

«أنت مخطئة فأنت شيء جديد بالنسبة لهم؛ لعبة للتسلية،
انتظري وسترين كيف يتصرفون عندما يشعرون بأنك خطرٌ
عليهم».

شعرت بيده على أسفل ظهرها عندما مشت بمحاذاة صناديق
تعبئة. تردّد ثم سألها عما حدث لأخيها.

قالت الرسالة: «إنه مات بطلاً في إطلاق النار وضخى بنفسه
من أجل أصدقائه، أحببت أخي ولكن لا يبدو هذا من شيمه».

قال دارو: «كان ذلك سبباً كافياً للكثيرين ليبقوا بعيدين عن

الحرب».

قالت ضاحكة: «لقد اعتنيت بمايكل عندما كانت أمي تعمل
بعد أن مات أبي، كنت أصلح كل لعبة يكسرها، وكنت أدافع عنه
عندما كان يدخل في شجار مع الصبية الآخرين. حتى إنني
أعطيته نصيحة تخص الفتاة التي كان معجباً بها في المرحلة
المتوسطة وقلت له: إنني سأكون بجانبه في أي وقت يحتاجني
فيه، وبالطبع لم أكن قريبة منه في المواقف المهمة».

نظرت هيلين عابسة إلى لطخ الدم على ثوبها: «كيف

سأستطيع احتمال الحياة في الوطن؟».

«لقد تأخرت فقد انتهت الأيام الجميلة».

بعد أن سارا في الطرق الرئيسية استدارا يساراً ثم يمينا
ثم ليسار من جديد ثم استدارا عائدين إلى المكان نفسه حتى

بدا أنهما قطعاً مسافة طويلة ولكنهما لم يبتعدا كثيراً. كان دارو يقودها في الشوارع حتى تاهت وكانت بوصلتها الوحيدة ذراعاه. كان هناك عالمٌ جديد أو عالمٌ قديمٌ مخفي، كانت نصف الحوانيت مضأة بالكهرباء وعادةً ما يكون ضوءٌ واحدٌ معلقاً عالياً في السقف وباقي الحوانيت مضأة بشكل خافت بأضواء الكيروسين التي كانت تومض وتجعل الغرفة تبدو كأنها على قيد الحياة. كانت العديد من الحوانيت بالكاد أكبر من خزانة، وكان لغزاً معرفة ما كانوا يضعونه هناك بغرض البيع في تلك الأماكن الضيقة المزدحمة. أحدهم كان يبيع الورق، الجرائد، ورقاً للكتابة وورقاً للجزارين. وحانوت آخر كان يبيع الخيوط ولكن محلاً آخر كان يبيع المقصات والسكاكين. كان بائعو الطعام يدورون بالأكشاك المحمولة. كانت هناك رائحة بهار لم تستطع أن تميزها، كانت ممتزجةً بالبخور الجميل المحترق في الحوانيت، وكله كان متخماً برائحة الديزل والصرف الصحي والنهر الموجود دوماً.

وصلاً إلى مدخل الرقاق الهلالي الذي كان فائضاً بالماء بعد المطر والذي أدى إلى ممرٍ مظلم.

«الشوارع هنا معروفة باسم الحرف التي تمارس فيها والأشياء التي تُباع هناك، شارع المعكرونة، شارع الأشرطة، شارع القطن، شارع الأكفان. فإذا طلبت من السائق إحضارك إلى هنا فأخبريه أن يذهب إلى مكان اللقاء في شارع الحرير أو شارع الأوعية المملية».

«ما الداعي إلى مجيئي إلى هنا؟».

«لنذهب من هنا». قال متجاهلاً كلامها.

نظرت هيلين إلى المياه الزيتية فاحمة السواد بارتياح بينما خطا داور خطواته فيها حتى غطت كاحليه.

«إنهم لا يصلحون الحفر والمنخفضات هنا كثيراً». «ربما علينا تأجيل هذا لمرة أخرى فحظر التجول سيبدأ بعد ساعة».

حملها بين ذراعيه من دون سابق إنذار عابراً بها البركة. احتشد الفيتناميون والصينيون في مدخل الرقاق يضحكون ويشيرون بأيديهم. وسمعت هيلين بعض الرجال يطلقون صيحات عالية لم تتمكن من فهمها. وعلى الجانب الآخر من البركة استمر دارو في حملها.

قالت: «انزلني، هذا غباء». واستمر في حملها. «انزلني». قالت. أنزلها ببطء ولكنه أبقاها قريبة من جسده، وعندما لامست قدمها الأرض كانت لا تزال محبوسة بين ذراعيه.

«إذا لم تتوقف عن ذلك فسوف أغادر». «كيف؟ هنالك خندق أمامك يمنعك من الحركة وستدمرين حذاءك الجميل».

تنهدت وقالت: «سأخلع حذائي وأحمله وأنا أعبر البركة صدقني». «أصدقك».

دخلا الرقاق وأصبحت الأبنية الآن أقرب إلى بعضها وأضواء واجهات المحال خافتة أكثر. أحاط بهما الظلام ودنوهما من بعضهما وسارا كتفاً إلى كتف بينما دارو يمسك بيدها ودون أن تفلت يده. لم يمر بجانبهما أي شخص لكن لم يكن هناك أي شعور بالوحدة في تلك الليلة. وبدلاً عن ذلك بدا الطريق كأنه يعج بالناس حتى إنه بدا مزدحماً وبدأ لها أنها إذا مدت يدها فستلمس شخصاً آخر مستنداً على الجدار واقفاً ومنتظراً أن

يمرًا. خطرت في بالها للحظة صورة الرجل الفيتنامي (لين) وكيف وقف بعيداً عن المجموعة وذهب وحيداً. هل كان واقفاً يحبس أنفاسه في مكان قريب؟

مشياً بصمت حتى وصل إلى مبنى استعماري من الجص الأصفر اللون وكان مؤلفاً من طابقين حيث بدا كأنه مائل إلى اليسار وكأنه ينام مع جاره.

كانت واجهة المبنى مغطاة بخطوط صفراء طويلة من جزاء المطر والرطوبة. كان له المظهر المعثق مثل الأبنية القديمة في فينيسيا. كان الزواق عند المدخل والسقف مرصوفاً بسيراميك كوبالت صيني أزرق. أما الزوايا فكانت معقوفة إلى الأعلى في نقاط معينة أشبه بزوايا فم خبيث مقلوب. كان مزيجاً مثيراً للحضارات خلق جمالاً غريباً، وكان الباب الأمامي للمبنى مصنوعاً من الخشب المصقول مرسوماً عليه مربعات تبين بوذا في مشاهد تنوير مختلفة.

قالت هيلين وهي تمرّ يدها على اللوحة: «جميل».

«كان يعيش هنا رسّام وعندما لم يستطع أن يدفع أجرة البيت طلب منه صاحب البيت أن يصنع شيئاً يعادل قيمة الإيجار».

نظرت هيلين إلى الطاووس الواقف على الصخور وإلى الفيلة التي تمشي بجانب الخيزران، والتمور الجاثمة عند شجر النخيل والانتشار الواسع لشجر البودي وبحيرات أزهار اللوتس. «يجب أن تكون في متحف».

«هذا جزء مما أحبه هنا. ليس كل شيء مخفياً خلف الزجاج والأقفال. فأنت تعيش مع التاريخ كجزء من حياتك ولا تراه فقط في رحلة استكشافية. تقول الأسطورة: إنه عمل بها لمدة سنة، وعندما أنجزها هرب ولم يسمع أحد عنه أي شيء بعد ذلك».

«لماذا؟»

«لقد كان ذلك خلال الحرب مع الفرنسيين. فلم يستطع أن يكسب رزقاً كافياً ليتزوج الفتاة التي يحبها فتزوجت من جندي آخر. لا أعرف إن كانت القصة صحيحة أو أنها مجرد حكاية خرافية شعبية. لكن الباب حقيقي. لقد عاش أحد أصدقائي هنا ولا أزال أحتفظ بهذا المكان».

«ظننت أنك تقيم في غرفة في فندق كونتيننتال».

«تلك الغرفة التي تدفع ثمنها وكالة لايف هي مكان إقامتي الرسمي أما هنا فحياتي الحقيقية». فتح دارو الباب وانتظرها أن تدخل. صعدا الأدراج الظليلة التي كانت تميل إلى اليمين بمسافة عدة خطوات ثم تميل إلى اليسار بعد ذلك، كما لو أن الذي ثبتها إلى بعضها كان شخصاً يشعر بأموال البحر تحت قدميه. بدا الخشب رقيقاً وخفيفاً كخشب (البلسا) وكانت الدعامات ملتوية من المنتصف وتصدر أنيناً تحت كل وطأة قدم.

«هل أنت متأكد من أن المكان آمن؟»

«هذا بناء قديم وما زال آمناً حتى الآن».

سحب دارو هيكل مفتاح نحاسي قديم الطراز أمام باب رقيق ليفتح القفل وقال: «هذا المفتاح يفتح فقط هذا الباب وعدة أبواب أخرى في (تشولون)».

وعندما دخل الغرفة نقر على مصباح صغير ينشر ضوءاً حارياً أحمر. كانت تصدر عن الغرفة رائحة غبار وعدم استخدام أشبه برائحة أكوام مكتبة قديمة.

عطس ومشى باتجاه النافذة وفتحها. كانت الغرفة رثة مفروشة فقط بسرير حديدي قديم وخزانة وكرسيين من الخشب، والزينة الوحيدة الموجودة فيها كانت المصباح والمرآة الكبيرة المعلقة بإطار مستدير مذهب.

قالت هيلين مشيرة بعينيها إلى الضوء والظل الأحمر: «هذه لمسة أنثوية بحتة».

«إن هنري هو الذي استأجر هذا المكان وكان على علاقة مع فتاة فيتنامية ويبدو أن هذه لمستها. سمحت لها أن تأخذ ما تشاء لكنها تركته خلفها».

«أين هنري؟ هل عاد إلى الوطن؟».

«إنه في وطنه الآن، كان أمريكياً لكنه عشق فيتنام، لقد مرّفته الحرب. سأريك بعضاً من أعماله، لقد كان في طريقه أن يصبح مصوراً مشهوراً».

«أين هو؟».

«لقد مات منذ عامين وهو يغطي عملية في منطقة الدلتا. لقد كان هنري متهوراً وكنت أرفض الخروج معه في مهماته. لكنه كان متهوراً. وهذا درس من قواعد اللباقة والإتيكيت أنت بحاجة إليه هنا، وهو ألا تسألني مطلقاً عما حدث لأحدهم فالجواب عادة سيئ».

«ليست شقة محظوظة لمن أقاموا فيها».

«من الأحرى أن نقول ليس بلداً محظوظاً. أعطاني هنري مفتاحاً. هذا هو المكان الذي أستطيع الهروب إليه عندما أحتاج لذلك».

مشّت هيلين إلى النافذة وأثكأت على الحافة. استطاعت أن تشتم رائحة الغبار والمطر وأن تسمع الناس الذين يمشون في الرقاق وصوت موسيقى البوب الفيتنامية الصادرة عن راديو ترانسستور وقالت: «هل أنت هارب الآن؟».

«أنا أشبه بالمحاصر الآن، وبعدها انقطعت الكهرباء كما لو أنها أجابت عن السؤال».

«لقد تولت كهرياء سايفون العظيمة الموضوع مرّة أخرى». «
تلمّس دارو طريقه إلى الطاولة وأشعل شمعة.
ظهر في أعلى وأسفل الطريق المظلم نبض لهبٍ بطيءٍ أشبه
بفراشات النار.
«لماذا أحضرتني إلى هنا؟».

وقف دارو إلى جانبها بتحفظٍ وحقّق في الخارج عبر النافذة
كأنه ينتظر شيئاً ما يحدث. لم يُرد أن يقول لها ذلك لأنّها بدت
مرعوبةً وخائفةً، وكانت غير كفءٍ للذي جاءت لتفعله، ولا هو
أراد الاعتراف بأنّه وجدها جميلةً.

«هل ترين الشجرة أمام المبنى؟ إنّها عارية جرداء الآن
لكنّها تُزهر زهوراً حمراء كبيرةً في الربيع. كان هنري وفتاته
يقيمَان حفلات كلّ ربيع للاحتفال بأزهارها. قصّةٌ آسيويّةٌ
بحتهُ كقصص الجنّيات». ضحك دارو مع نفسه. «لقد أحبّ
هنري كلّ هذه الأشياء وأقسم ألا يعود إلى الولايات المتحدة
وقال: إنّ أمريكا أخافته أكثر ممّا استطاعت أيّ حرب أن
تفعل».

«ماذا حدث لفتاة الضوء الأحمر؟».

قال دارو مستهجنًا: «لا أعلم اختفت، وجدت شخصاً آخر.
لا تملك النساء المحليّات هنا خياراً بعد أن يختلطن مع الرجال
البيض». برّر دارو أفعاله مع النساء المحليّات أنّه إذا لم يكن هو
فسيعرضن أنفسهنّ على أحد آخر. عاملهنّ بلطف ثمّ نسي
أمرهنّ فجأةً. أضجره الوفاء وإشارات الهجر غير المجدية،
وتحوّل إلى برجوازي عمليّ في وقت الحرب.

«يوجد شيءٌ جميلٌ هنا حتّى ونحن ننظر إليه أو نتواصل
معه، بإمكاننا أن نغيّره. إذاً لماذا تواعدتِ ذاك المتبجّح روبرت؟».

«يا لوقا حتك! نحن أصدقاء».

صبّ كأسين من الويسكي من الخزانة وأعطاهما واحداً. كان الكأس ثقيلاً ومربّعاً وله قاعدة كريستالية عريضة.
«أليست هذه الكؤوس من البار الذي في الفندق؟»
ابتسم وقال: «دائماً أنسى أن أعيدها».

رشفت مشروبها بصمت وهي تستمع إلى الأصوات الخارجية وإلى ثقل الهواء الدافئ المتحرك في الغرفة، أعاد ملء الكؤوس وجلس قبالتها.

قالت أخيراً: «يعجبني هذا المكان». وما لم تقله إنها المرة الأولى التي أحست فيها بالأمان منذ أن وصلت إلى البلد.

«هذه هي فيتنام الحقيقية فعندما آتي إلى هنا يهدأ عقلي.. أستطيع أن أؤمن ما هو جيد في المكان وما الذي يرغب الناس في الاحتفاظ به. فهذا المكان ينسبك فندق كارفيل وفندق كونتيننتال حيث تعيشين بغرفهم المكيفة والخدم ومكعبات الثلج، ويبدأ مشجعو الحرب بالخروج لتعجّ بهم المطاعم والنوادي الليلية، وتقام الحفلات كل ليلة فسايفون بالنسبة لهم مثل كازابلانكا أو برلين؛ لأنّ المشهد يجري هنا الآن. كل مجموعات النوادي هنا يتنقلون بنسخة من كتب (غراهام غرين) تحت إبطهم. متأسفٌ على إلقاء الخطابات، أنا ثمل».

وضعت هيلين كأسها على الأرض: «برأيك يجب ألا أكون هنا إذا». نظر إليها وهو يأسرها بعينه ويقيم تعابيرها بهدوء: «أنت أخبريني، هل يجب أن تكوني هنا؟ لا تظني أبداً أنّ وجودك هنا لن يغيرك».

«أخبرني حقاً ما رأيك؟».

«لقد جرحت مشاعرك».

«لقد جعلت روبرت يأخذني إلى الغداء اليوم لأني عرفت أنك ستكون موجوداً هناك».

رفع دارو حواجبه وقال: «هل يجب أن أعد هذا إطراء؟»
«كل ما جعلوني أنجزه حتى الآن هو تصوير ما يتعلّق بالأُمور الإنسانية من أرامل وأيتام إلى جنود جرحى. أحتاج لأحد ما يخرجني إلى الميدان».

رف عينيه دون رغبة منه بأن يعترف بجرح مشاعره لأن الأسباب التي ساققتها لم تكن رومانسيّة. كان عادةً ما ينجح في استخدام الكلام المعسول للصحافي الخارج من المعركة. «هناك فقط عددٌ قليلٌ من النساء يغطّين المعركة ولا أحد يخوضها، فهي خطيرةٌ جداً ومرعبةٌ، حتى الرجال لا يحبّونها فمن الصعب العمل فيها لأنها عملٌ شاقٌّ، عمري أربعون عاماً وأبدو في الخمسين وأشعر أنّ عمري ستون».

قالت هيلين: «كتب أخي لي رسالة قبل أن يُقتل، قال فيها إنّه مهما حدث فلن يندم على المجيء، كنت بحاجة لأن أرى كل شيء بنفسي، والوسيلة الوحيدة للشهرة هي تغطية المعركة. أليس هذا صحيحاً؟ لقد تركت الكلية لأني كنت قلقة أن تنتهي الحرب عندما أخرج».

لاحقاً ستندم على غبائها، لكنّ اعترافها في ذلك الوقت بتلك الحقيقة القاسية بدا جريئاً. كيف ستفسر كل السنوات التي كانت فيها مسترجلة وترفض الألعاب والفساتين ودائماً موجودةً مع الصّبية؟ كانت فكرة الجندیّة موجودةً لدى مايكل ولدى والدها لكنهما أبعداها عنها. كانت تبكي عندما يُطلب منها البقاء في المطبخ مع والدتها ومع خبز المعجنات. كان مايكل يسخر عندما كانوا يذهبون للصيد ويقول لا يمكنك

المجيء.. لا يمكنك المجيء.

انحنى دارو أمامها. كان إعجابه بها يقل ويتضاءل، ممّا سهّل عليه إغواءها الآن.

«لا أحد سيقول: إنني لم أحاول، تعالي معي في دورية الغد وستختبرين نصيبك من الأمور. ستفعلين ذلك على كل الأحوال. اليس كذلك؟».

«صحيح».

كانت الفتاة ممثلة بالطموح والارتياح والشفغ. كانت مثله مغامرة تماماً لزوجته التي كانت هادئة واضحة وحادة، وكانت تشكّل عائقاً مستمراً يمنعه من فعل ما يحب. كان لغزاً أنّها تزوجته فقط لتشعره بالذنب لما فعله. وكان جدالهما يلتف دائماً كدوائر مثل كلب يطارد ذيله. كان يصرخ: (إنه الشيء الوحيد الذي أجيد)، لكن الحقيقة أنّه الشيء الوحيد الذي جعله يشعر أنّه على قيد الحياة.

«هل نحن متفقان؟ أعني هل الأمور بيننا بخير؟».

مدّت هيلين يدها وسحبت نظاراته برقة، وبألزغم من مظهرها فإنها كانت في الحقيقة مرتعبة ممّا شاهدته في المشفى، وفكرة رفض رجل أرادته في تلك الليلة بدت لها سخيّة، ما الذي سيحدث لو رحلت غداً مثلما فعل هنري؟

عبست وقالت: «هل من شيء بيننا؟».

وضع يديه على أطراف كرسيها ولاحظت أنّها ترتجفان، لقد كان أمراً جيّداً أنّ كليهما لم يكن مدرياً وخبيراً في أمور الإغواء.

«لديّ جسارّة وثبات في الميدان أمام كل التداعيات وكل الظروف».

مزرت أصابعها على الندبة التي في ذراعه وسألت: «كيف حدث لك ذلك؟».

امتعض وقال: «زوج غاضب».

ضحكت

«أظن أن ذلك حدث في الجزائر، فمن الصعب تذكر حادثة وفصلها عن الأخرى. علينا مناقشة ذلك. هل يجب أن نكشف كل شيء أم نحافظ عليه سراً؟».

«لقد انكشف السر قليلاً».

«هذا صحيح ولكن هل أنت على استعداد أن تكوني عشيقة رجل متزوج؟».

طوى النظارات ووضعها في جيب قميصه.

قال: «أنت جميلة».

هي لم تكن جميلة ولكنها لم تصحح معلوماته، وتفاوضت عما قاله مقتنعة أن جمالها كان كافياً لتلك اللحظة.

قال: «الليلة ملكتنا فقط ولا شيء لنفعله غداً، هل أنت موافقة؟».

أومات برأسها وابتعدت عنه ثم وقفت وعبرت الغرفة إلى المرأة.

كان الزمن يتوقف عندما كانت في الوطن، كانت دائماً نافذة الصبر وقلقة. حاولت أن تحبس أنفاسها وتكون هادئة مثل تلك الغرفة. «لم تسألني لماذا أتيت إلى هنا اليوم؟».

«فكرت أنك ستخبريني إذا أردت ذلك، وسأكتشف السبب في الوقت المناسب».

قال روبرت: «إنك من المسحورين»، وقال: «إن الجميع يحاولون البقاء بالقرب منك لأنهم يعتقدون أنهم سيكونون بأمان».

أحسّت أنها بدت حمقاء كطفلة بعد أن خرجت تلك الكلمات من فمها.

«روبرت المسكين ما يزال يؤمن بقصة (جنية الأسنان)».

«طلبت منه مسبقاً أن يساعدني لكنه رفض».

«حسناً لقد أحسن عملاً».

«قال إنك لا أخلاقي وستفعل أي شيء للحصول على صورة، ولا مشكلة لديك في النوم مع امرأة أو إطلاقها بعيداً».

تفاجأ دارو وبدا متعباً. نهض وتحرك ليقف خلفها ويفك ثوبها من الخلف ببطء زراً واحداً في كل مرة.

«لكنك أتيت على كل الأحوال، لم أنته من المقطع الذي كنت أتלוه في المطعم الليلة، فأخر مرة كنت خارجاً في مهمة، كان الكتاب الوحيد الذي في حوزتي هو نسخة مهترئة من (الإلياذة)، فكنت أحفظ بعض المقاطع:

(ولأنها كانت بذاك السحر علينا إرسالها إلى الوطن بالسفن الكبيرة وألا نتركها خلفنا.. لنندم نحن وأولادنا طوال السنوات القادمة، ندماً لا يمكن احتماله).

سمعت صوت تذمر من داخل المبنى بينما كانت الكهرياء تضعف أولاً إلى نصف قوتها ثم تنقطع بالكامل، ثم من الظلام إلى النور ممّا أريكها وجعلها تشعر أنها رخيصة بثوبها نصف المفتوح وحمالة صدرها الظاهرة. قلّت رغبتها ومدّت يديها لتقفل الأزرار التي فتحت. «علينا أن نذهب فروبرت سيكون في الفندق».

«حقاً؟ هل خفت من نفسك فجأة؟» رأى وجهها محمراً وهي تتنقل في الغرفة وتجمع أشياءها. لم تكن بتلك السهولة التي ظنّها. هل تمّ خداعه؟ حتى لو كان الأمر كذلك فقد فتنته، ربّما قد التقى أخيراً بنفسه على صورة أنثى.

«لماذا تفترضين أن من يحبوننا بأكبر قدر هم ذاتهم الذين يحاولون إيقافنا عن فعل ما نحب هل تركت أي أحد خلفك؟»
«لا.. فلو وجد أحد بتلك الأهمية لما أتيت ولما كنت بتلك الأنانية التي أنا عليها»
«أنت مخطئة بذلك»
«كيف ذلك؟»

«أحياناً ربما عليك الوفاء بوعد لكي تستحقّي الحب الذي تتلقّينه. ألا تظنين أن العيش تحت الخطر لمجرد التقاط صور وجوه من يعانون هو نداء في حدّ ذاته، فقط لنري العالم حياتهم المخفية».

مشّت بجانبه وعبرت الباب: «أنا ذاهبة معك أو من دونك».
مشّت في الزدهة رافضة أن تنظر خلفها، رافضة الاعتراف أنه إذا لم يلحق بها عندما تصل إلى الرّفاق فسوف تضيع حتماً.
عندما كانت ومايكل طفلين كان الاختباء هو لعبتهما المفضّلة. وكانت هيلين دوماً تبحث عن أصعب أماكن الاختباء الممكنة دون أن ينتهي الوقت، وغالباً ما كانت تشرّد حائلة وتنسى أنها كانت تلعب وتنتظر في الحجرة المظلمة متمنيةً بيأس أن يتمّ العثور عليها.

(4) بلد هندي

في قاعدة (بيان هوا) الجوية وقفت هيلين في ظل سقيفة معدنية وإشارة: (كن حذراً) مكتوبة فوق رأسها باللون الأحمر الباهت والكلمات تحتها مخفية متلاشية من آثار الشمس والمطر. كانت المنطقة المخفورة نُعدُّ منطقة خاوية. وكان البحث الروتيني عن بعض الأهوار وقريتين صغيرتين يمثل حضوراً وطنياً.

أدار دارو عينيه نحوها بينما كان يخاطب ضابطاً برتبة «مقدم، لكي يأخذ هيلين معه، وسمعت أثناء ذلك كلمات مثل (عبء إضافي) و(نقص التسهيلات)، لكنَّ الرجل استسلم بعدها بسبب دين مقامرة كان مديناً به لدارو.

بينما كانت هيلين تنتظر وسيلة نقل تقلها تخبّطت بين كاميراتها التي حصلت عليها حديثاً والتي كانت أفخر من كاميرا (الأنستاماتيك) التي اعتادت عليها، قالت بهدوء وعيناها إلى الأسفل: «هل ممكن أن تُريني كيف أضع الأفلام في هذه الكاميرات؟». لم يقل دارو شيئاً فلم يكن أمامه خيار آخر إلا أن يطيع. أراها تقنيات التصوير الأساسية خلال الخمس عشرة دقيقة التي أخذوها لتحميل المعدات. سألته محاولة التصرف بطبيعية: «أين لين؟».

«إنه في إجازة لعدة أيام لأمر شخصيّة».

حوّمت طائرة الهيلوكوبتر قريباً من الأرض، وقفز الجنود وركضوا وفعلت هيلين مثلهم وشعرت بكلّ عظامها الصغيرة تطحن عظام الآخرين، ركضوا إلى جدار رمليّ من عيدان القصب أمام المستنقع وقرفصوا على الأرض الجافة في الخلف منتظرين المروحية التالية أن تُعبئ حمولتها. ولم تبدأ طلقات القناصين بإطلاق أصوات في الهواء حتّى نزل آخر جنديّ. «لا يُفترض أن يحدث ذلك». قالت، بينما شبت المروحية الأخيرة كالضحية الخائفة ومقدّمتها إلى الأرض حتّى اختفت خلف الأشجار. همس أحد الجنود: «اخرسي».

بدأت الأرض بعد ارتجاج المروحية وهديرها هادئة ومسالمة ما عدا صوت أنين طلقات صادم أشبه بالحشرات يمرّ على مسامعها. قلّ مدى رؤيتها إلى عدة أقدام بينها وبين الجدار الرمليّ وقمم الأشجار البعيدة. اشتدّت الحرارة في ملابسها ولسعت الحصى راحة يديها المقلوبتين إلى الأسفل. بدا الخطر غير حقيقيّ مثل فيلم سينمائيّ أو كيوم تدريبيّ على المناورة، وكان هناك قناصٌ ضجّر يطلق رصاصات فارغة من خلف شجرة. نبض قلبها سريعاً في صدرها لفكرة وجود عدوّ حقيقيّ أمامهم. زحف المقدم (شافر) إليها وقال: «ابقي منبطحة هنا سنذهب إلى خطّ الأشجار».

تحرك دارو إلى الأمام مع باقي الرّجال ودخلوا إلى المستنقع الذي يصل علوّه إلى مستوى الخصر. رآته كأنها تراه للمرّة الأولى، أكثر الصور الحقيقيّة له، رأت درّينة من الرّجال يتحركون كمجموعة ويظهرون من الخصر إلى الأعلى بحقائبهم وخوذهم وأسلحتهم المرتفعة التي تميزهم ورأس واحد عاربكاميرا مرفوعة.

لقد تنازل للعقيد عن دين قدره خمسة وتسعون دولاراً ليمكّنها من الصعود على متن الطائرة، ولكنه عاملها كأنها غريبة عنه ممّا جرح مشاعرها. على الرّغم من أنّها فهمت ضرورة ذلك. أدار دارو ظهره لتأمين الموقع الخلفيّ لهيلين، وللتفكير في سايفون، وريّما في أمريكا، وكان كلّ تركيزه منصبّاً على عمق المستنقع والعمق الأبعد للأدغال والحرب والأسرار التي لم يكتشفها بعد. احترمته دون أن تفهم ما الذي يدفعه لذلك وشعرت بالغباء من شدّة الخوف.

رفعت رأسها ورات أشجار (الأيكالبتوس) المصفوفة كمصدّات للريّاح التي كانت تراها في أمريكا بين بساتين الحمضيات. أزعجها بشكل مضاعف تعرّفها على الأشجار التي كانت في حالة سيئة في ذاك المشهد.

في الوطن كانت تتوق إلى نظافة وهدوء بيت والدتها وإلى الرّائحة العفنة للغرف القريبة من الشّاطئ. وإلى كلّ الأيام السّعيدة التي كانوا يركبون الأمواج فيها والشّمس الحارقة والمياه الدّوّارة؛ الأيام التي كانت تلحس فيها شفّتيها الطّفوليتين المالحتين أو الممتلئتين بالآيس كريم. الممرّات المزدهمة بجانب الشّاطئ والسّياح المحروقين بلون وردي وأهل المدينة الذين تحوّل لونها إلى البرونزي، وأوقات الضّحك مع أصدقائها على الجنود البنية اللينة للصّبية الكبار الذين كانوا يلعبون كرة السّلة دوماً من دون قمصان وهم يتجاهلونهم دوماً. يمشون بجانب المطاعم ذات المظلات المرفوعة وأغطية الطّاولات البيضاء وزجاجات التّبيذ الرّخيصة على الطّاولات لإغراء الرّبائن، والنّادل قاسي الملامح الذي أصابه الضّجر.

كان فمها جافاً والهواء قد كشف ضحالة رثتها لأنّ حقيقة وجودها في ذلك المكان كانت تسيطر عليها. كانت ترتعش من

اندفاع الخوف الغريب، وأحسّت بشعور دافئ رطب وحارق عندما أدركت أنها تبوّلت على نفسها. ضغطت خذّها على الثراب، وكانت مقدّمة الخوذة تقضم أذنها، ومع أنّها كانت خوذة رجل صغير لكنها كانت كبيرة جداً بالنسبة لها. وهناك الزائحة الحادة للعشب المحروق الممتزج برائحة البارود، والزائحة الحلوة نوعاً ما لبولها التي جعلتها تخجل من نفسها.

لم تكن قد تأهبت لعمل أي شيء بسبب تفاهة الحدث، واستبد بها الملل لحظة تتبّع الأخرى. ففي فكرها، نعم، كان هناك أناس يحاولون قتلهم، نعم ممكن أن يموت رجال أمريكيون لكن كلّ هذه الأمور كانت تخصّ الثلفاز. كانت منبطحة على الأرض يخزها العشب الميت، وفكرة أنّها هي نفسها يمكن أن تكون هدفاً لطلقات الرصاص أصبحت فكرة حقيقية. لكنها كانت مستلقية هناك طوال الوقت يربعها الإحراج من فكرة أنّها بللت نفسها، فحلّت المشكلة بصبّ الماء من القرية على أجزاء من سروالها.

مضت دقائق، وسمعت صرخة أمامها؛ لقد أصيب أحد الجنود في الفخذ فزحفت هيلين إلى المجموعة بينما هم الطبيب المسعف بتضميد جراح الجندي وأعطاه حقنة سريعة من المورفين. كانت حركتها الخفيفة أفضل من الشلل، وكان الجندي مستلقياً على ظهره وعيناه مفتوحتان على اتساعهما وقد أخذ يهذي.

قال الطبيب مرتجفاً: «هو بخير، يعاني من توتر عصبي على الأغلب، لا بد أنّها أوّل مرّة يشارك بها في الحرب». التوت شفاه الجندي ساخراً: «إنهم يقولون ذلك لأيّ أحد لم يمت بعد».

لمست هيلين يد الجندي الصبي وسألته: «ما اسمك؟».

«كورت».

قال الطبيب: «أخرس يا كورت علينا أن نسميك يلو».

توقف إطلاق النار وبعد نصف ساعة أخرى اجتمعت الحملة مع بعضها منتظرة على طريق طيني مفتوح طائرة الهيلوكوبتر لإخلاء الجريح. جف الطريق الوحلي السميكة وأصبح قاسياً ومظلماً، إضافة إلى الإعياء الذي حل بهم في الهواء الحارق، حتى سرّوا هيلين الغامق لم يلاحظه أحد.

خلع الجنود ستراتهم الواقية من الرصاص مما يخالف التعليمات ودخّنوا السجائر وخلعوا جواربهم وهم ينتظرون.

انضمت هيلين إلى مجموعة جالسة تحت شجرة. خلعت خوذتها بذعر، وأراحها أن المواجهة انتهت وأدركت أنها لم تلتقط أية صورة، وأنها في الواقع نسيت أمر الكاميرات كلها.

وكان ممّا ندمت عليه لسنوات أنها لم تلتقط صورة لدارو وهو في المستنقع. بقيت تلك الصورة الوحيدة محفورة في ذهنها؛ ربما لأنها لم تملك الفيلم الخاص بها لتعود إليه لاحقاً، فحالما يتم التقاط الصورة يتم إفراغ التجربة من الشحنة التي تعيش فيها.

كان كورت يتحدث ويقول النكت بصوت عال، فطلب إليه المقدم (شافر) أن يخفض صوته: «ما من داعٍ للاحتفال بذهابك إلى المشفى».

قال كورت من خلف ظهره: «بالطبع هناك داعٍ».

قرفص دارو بضع خطوات قريباً من هيلين وصورها وقال: «لم يكن ذلك حدثاً كبيراً، ما رأيك يا ملكة حفل التخرج؟».

مسحت جبينها وابتسمت ابتسامة متجهمّة وقالت: «لا بأس

به».

عرفت من الطريقة التي نظربها إليها أنه أحسن بأنها متجمدة.

«حماس أكثر مما توقعنا، الأمر واضح هكذا؛ حتى لا يحدث مرة أخرى أو يتكرر من جديد، انتهى درس اليوم، سافري عائدة من هذه الرحلة».

«لا».

إذا غادرت الآن فستكون خاوية اليدين دون أية صورة التقطتها، وستكون خاطرت بكل شيء من أجل لا شيء.

«لا يوجد أحد في صف الأشجار، وهذا يعني أنه من المحتمل أنهم تراجعوا إلى القرية لينتظرونا هناك، لم يعد الأمر يتعلق بأمر الأشجار الآمنة».

«أستطيع تحمل ذلك».

«يكفي هذا اليوم. إنني أناشدك. لكن شافر سيصدر إليك الأمر».

أعدت هيلين نفسها بينما علت المروحية وارتفعت، وزحفت مثل سرطان البحر على الأرض المعدنية المموجة مقتربة من كورت ومبتعدة عن باقي الرجال، بدا كورت أصغر عمراً، بعينه الزرقاوين الصافيتين المتسعيتين من أثر المورفين، وبشفثيه المحمرتين كشفاه طفل.

«يبدو أن لدينا أنا وأنت بطاقة خروج من هنا».

صرخ في أذنها وقال: «ألسنا أذكاء؟».

«لن تصدق ماذا فعلت فقط لكي أصل إلى هنا».

«ماذا دهالك؟».

امتعضت وسألته: «من أين أنت؟».

«فيلا دلفيا».

«أنا من جنوب كاليفورنيا»
«عندما أخرج من هنا سوف أذهب مباشرة إلى شاطئ (هرموزا)
وأتعلم ركوب الأمواج»
«كان أخي يذهب إلى هناك طول الوقت»
«هل هو أمر شيق؟»
«إنها عاصمة ركوب الأمواج»
فكرت بالمياه على رصيف الميناء هناك في وطنها، كيف لم
تحتمل في أحد الأيام جلوسها على الشاطئ مع كل صديقاتها؟
حيث استعارت قارباً من مايكل وأصدقائه وجذفت نحو الأمواج
العاتية. تعثرت خائفة أثناء ركوب الأمواج وارتطمت بالقاع الزملي
مرة بعد أخرى لكنها لم تتوقف عن المحاولة. وفي أول مرة وقفت
على اللوح ورات الشاطئ أمامها شعرت أنها لا تقهر. لقد حدث كل
شيء بسرعة خلال إطلاق النار، وهي الآن تحس بالفشل.
قال كورت: «لا أستطيع الانتظار»
«هل تريدني أن أصورك؟ سأرسل الصور إليك»
«حسناً»
التقطت دفتر ملاحظاتها وسجلت رقمه العسكري بينما
أصبح هو أكثر هدوءاً.
«أتعدينني أن ترسلها؟ ربما إلى والدي في حال لم أكن
موجوداً»
قالت هيلين بخفة مدعية أنها لم تسمع كلماته الأخيرة:
«إذا كانت في هذا المدونة فستحصل عليها وسيرسلونها إلى
مكان إصدار أوراقك المحلية وستكون بطلاً في الوطن»
«اللجنة على الناس في الوطن. سوف يتم تضميد هذا الجرح
وسأعود إلى الضياع خلال عدة أسابيع، لقد وعدت نفسي أنني

سأخرج وأقتل عدوًّا واحداً على الأقل قبل أن أغادر هذا المكان». استلقى بظهره إلى الخلف وبقياً صامتين طول طريق العودة. عندما عادت إلى الفندق في تلك الليلة أخذت حماماً طويلاً دافئاً. كان أول ما فعلته بعد أن عادت من الشقة في (تشولون) هو أن تلقي نسخة كتاب (الأمريكي الهادي) في صندوق القمامة، لكنَّ خادم الغرفة الذي كان ولداً نحيل الكتفين بأهداب طويلة كأهداب فتاة أخرجه من الصندوق وأعادته إلى الطاولة دون أن يستوعب أن كتاباً بحالة ممتازة يمكن إلقاؤه بهذا الشكل، ثم طرق الباب وسلمها رسالة من روبرت؛ أن مجموعة منهم كانوا يدعونها لتناول الغداء في غرفة الطعام في الفندق. لن تستطيع مواجهتهم في تلك الليلة خاصة بعد الكارثة التي حدثت بعد الظهر. نظرت إلى الولد: «لقد انتهيت من الكتاب، هل تريد؟». أشار بيده وصعقتها كياسة حركته: «أتبيعينه؟». قالت: «بعه أنت واحتفظ بالمال».

نظر إلى الكتاب بتأن وامتعض امتعاضة رقيقة. «لقد غيرت رأيي، أتركه هنا الليلة وخذه في الصباح». ومع أنها قرأته اثنتي عشرة مرة على الأقل تأقت لأن تضع بين سطوره الليلة وترتاح في تضمينات (فاولر) أو براءة (بايل)، أرادت أن توازن غدر الحياة أو أمانها بضمانات وجدتها في كتاب. لقد كانت دوماً قارئة متعطشة لكن عادة القراءة لديها عندما أصبحت بالغة تغيرت، وهي لا تعترف بأنها بدأت تفهم كتاباً إلا بعد أن تقرأه لعدة مرّات.

آلمها رأسها حين تذكرت أنها كانت مستلقية في حالة شبه شلل في الحقل قبل وقت قصير في ذلك اليوم، وهي الآن تقف في تلك الغرفة في الليلة نفسها، ولم يكن بالإمكان أن يتناسب

الجزآن مع بعضهما. لبست سترة فضفاضة بلون اصفر شاحب، في البداية لبست حذاء مريحاً بلا كعب لكنها بدلتها إلى حذاء رياضي عسكري. كان من المستحيل أن تكون وحيدة في ليلة كتلك حتى لو كان معنى ذلك الانضمام إلى روبرت وذاك الحشد المتناقض. ما يشفع لها أن دارو كان الوحيد الذي شاهد فشلها. صبّت نفسها كأساً من الماء وارتجفت يدها وهي ترفعه إلى شفيتها. أصدرت مروحة السقف قديمة الطراز صوتاً فوق رأسها. وحذقت إلى مفرش السرير الرث وتذكرت ضوء الشمس على الحقول الذي جعل الرؤية بقوة شعاع الشمس المنهبة مستحيلة، واللون الوحيد الواضح الذي استطاعت تذكره كان لون الدم الأحمر لفخذ الجندي، ورأي دارو بالطبع أنه مهما بلغت المجموعة التي ذهبت معها إلى الميدان كان الفرد يذهب وحيداً يداً بيد مع خوفه.

قرر مايكل أن يتبع خطا والده وأن يتفوق عليه إذا تمكن من ذلك، تخرج بدرجة شرف وكان باستطاعته أن يفعل أي شيء يريده لكنه أراد فقط أن يكون في مجموعة النخبة لأن والده لم يكن فيها. إن والدها سيكون بالطبع رافضاً لما تفعله الآن إلا إذا نجحت فعلياً، لكن مايكل سيكون مستمتعاً بالطبع، ولن تفاجئه محاولة اخته الكبيرة الدائمة للحاق بركب النجاح.

شربت كأس الماء وصبّت كأساً أخرى مع إحساسها بالدل الحقيقير لأنها لم تلتقط حتى صورة واحدة. ابتلعت كأس الماء الثاني بسرعة كبيرة فسأل على ذقنها إلى سترتها فاضطرت أن تبديل ملابسها مرة ثانية. وعندما وصلت أخيراً إلى غرفة الطعام في الفندق لم تستطع أن تخفي خيبة أملها من أن دارو لم يكن موجوداً هناك.

«كيف كانت رحلتك البكر إلى الخارج يا حبيبتي؟» قال (إد) الذي كان شعره ما زال يبدو مثل القش منذ الليلة الماضية. لم تقل شيئاً.

قال غاري: «إنه دوماً عمل شاق في المرات الأولى». قال إد ضاحكاً: «ربما تستطيعين إحضار فيلم في المرة القادمة».

قال روبرت: «لست بحاجة إلى فيلم يا إد فالجميع يعرف ما يدور بخلد صاحبك».

انفجرت الطاولة بالضحك. أكلت هيلين بسرعة دون أن تتذوق طعامها ثم استأذنت بالانصراف. هل عرفوا أنها لم تلف على وكالات الأنباء لتبيع صورها أم أن دارو أخبرهم؟

لحق بها روبرت وأوقفها في ردهة الفندق. كانت قد خرجت مع دارو وعادت دون صور وكان يأمل أن الإهانة من جزاء ذلك ستعيد له اليد العليا. سيكون هناك في الوقت المناسب عندما تريد أن تتمسك بذراع رجل، فقرّر أن يدعي أن هزيمته التي حصلت في الليلة الماضية لم تحدث. «هل أنت بخير؟»

«كلّ ما في الأمر أنني بحاجة للنوم. لقد أخفقت». احتاجت أشياء كثيرة، والحديث عما احتاجت إليه بالكلمات بدا غير واف بالغرض.

«هذا ليس مكان امرأة، أنا ممتن أنك عدت سائلة، سأطمئن عليك في الصباح».

ارتاحت أن تكون بعيدة، قبلته على خده فابتعد قليلاً جافلاً من الحركة ثم اقترب أكثر وقال: «هل نحتسي الشراب؟». قالت: «أحتاج أن أرتاح».

عاد روبرت إلى المطعم، وقف عند المدخل ليشعل سيجارة. ثم يظنُّ أنها من النوع الذي يغرم برجل مثل دارو فعادةً ما تكون نساؤه من النوع الذي لا يستطيع أن يطلب الكثير لسبب أو لآخر. وبذلكائه استطاع أن يخمن نوع النساء اللواتي نبذهن دارو، وكان الطوق الذهبي على إصبعه نوعاً من الوقاية من الارتباط بالأخريات. شاهد هيلين في ردهة الفندق تبحث في حقيبتها. كان سيأخذها إلى شارع (بوربون)، وكانا سيضحكان ويرقصان طوال الليل.

كانت تعجبه لأنها كانت تحقق له صورة إمكانية بناء ذاك البيت في خياله وملئه بالأطفال، لكن هيلين لم تتحرك باتجاه المصعد بل غادرت الفندق وأشارت لسيكلو منتظراً أمام الفندق. بالطبع ظنَّ أنه من الممكن أن يكون مخطئاً.

في مكان اللقاء في شارع الأوعية المطلية وفي شارع الحرير وجدت هيلين المدخل الهلالي للرقاق، كان لا يزال مبتلاً من المطر فعادت في طريقها كأنها تعود إلى الوقت الذي كان قبل فشلها في ذاك اليوم. كانت متهورة، ركضت خلال الماء إلى مدخل الرقاق الذي كان بلون الحبر بينما وقف الرجال في الزاوية وحدقوا بها وهي تركض في جو متنافر من روائح البخور والبهارات التي لم تستطع تسميتها. مرّت بجانب محال كانت تبيع الخيوط فقط. والذي بدا لها غريباً من قبل بدا لها الآن عادياً فحسب، نحن نتماثل مع الإحساس بالراحة لوجود الأشياء المألوفة. كان تأثير انعدام الهواء في الأبنية يتجمع مرة أخرى، والأضواء الخافتة أمام المحال والظلام وقرب المحال من بعضها كان إحساساً خانقاً بالنسبة لها. مرّت خلال الممر الغامض للطريق حتى رأت مبنى أصفر يتدرج باتجاه واحد، وكان مظلماً كقميص ملطخ بالعرق.

وعندما رفعت بصرها رأت ضوء ظلّ المصباح في النافذة، والنقل الذي كان على صدرها أصبح أخفّ فأخفّ على الرّغم من غضبها لأنها أرادت أن تنسى اليوم الذي فتحت فيه الباب المطلي دون أن تتمكن من رؤية الطواويس والنمور المرسومة عليه، وهي تستشعر طريقها على الدّرج الأسود الذي يئنّ. وتصدر عنه رائحة خشب الأرز ورائحة السمك.

وبينما كانت تقرع الباب سمعت صوت موسيقى الجاز، وصوتاً عالياً لضحك أنثويّ متقطّع جعلها تشعر أنها غبية، فاستدارت لتتمكن من الهرب قبل أن يأتي أحدٌ، لكن الباب فُتح على مصراعيه وظهر دارو يحمل كأساً من الويسكي بيده.

«هيلين التي أطلقت ألف سفينة». ابتسم ومتعة الانتصار في عينيه بينما وقفت هي دون أن تستطيع الحراك. لقد كان غريباً بالنسبة إليها.

نادى صوتٌ من الدّاخل: «مَن هناك؟».

قال دارو: «ادخلي». وأخذها من ذراعها وسحبها إلى الدّاخل حيث كان هناك هواء كثيف مثقل بالرائحة العشبية للدخان المخدّر.

«إنها فتاتنا الصحافية المقدّمة الجديدة يا جاك».

لم يكن لها أن تفعل شيئاً آخر لكنّها تراجعت ولكمت دارو في وجهه بكلّ استطاعتها وهي تغلق عينيها عند نقطة التماس فلم تتمكن من التأكّد ممّا فعلته. لقد طارت نظّارته وسال دمٌ من إحدى فتحات أنفه.

«ماذا دهاك يا هذه؟».

«أنت طلبت مني أن أغادر فلم يكن لديّ أيّ خيارٍ آخر والآن تعود لتخبر الجميع أنّي لم ألتقط أية صور».

«لم أفعل ذلك».

«الجميع يعرفون».

«الجميع يعرفون؛ لأنهم مهتمون بمشاهدتك تفشلين

يا فتاتي». قال جاك.

كان جاك يجلس مترعاً على وسادة كبيرة ملتفّ اليدين وبين أصابعه عقب سيجارة، وبجانبه امرأة فيتنامية تجلس على ركبتها على إحدى الوسائد بوجهها العريض الممتلئ بحب الشباب، غمزت المرأة بعينيها لهيلين التي لاحظت أحمر الشفاه البرتقالي الفاقع الذي لطّخ شفثيها.

«لقد تجاهلتني ولم تساعدني مطلقاً ولم تُرني أي شيء».

«لقد عاملتك في الميدان كرجل دون أي معاملة خاصة».

فقُرري ما تريدين».

قال جاك: «فهذا كله واضح، فلنقم بتقديمنا لبعضنا لبعض».

رُفّت عيون دارو ومنديل يغطي أنفه وقال: «هذا...».

قال جاك: «الوقت يسرقنا...»

رَبّت جاك على فخذ المرأة: «إنه الوقت المناسب للاحتفال

خذي يا هيلين دخني أفضل منتجات كمبوديا».

قال دارو وهو يقودها إلى أحد الكراسي: «دعيني أصبّ لك

شراباً، دعينا لا نفسد الأمور أكثر من مرة في اليوم الواحد».

«أنا آسفة إذا أخطأت».

ثمّ جلست وأشار جاك إلى قدميها وقال قبل أن ينضجر

ضاحكاً: «الم يخبرك أحدٌ ألا تلبسي حذاءً بكعب عالٍ في حقول

الأرز».

نظرت إلى الأسفل ورأت حذاءها الجلدي المدمر بينما

ذهب دارو إلى الخزانة ليحضر منشفةً وجلس على الأرض

وخلع عنها حذاءها وفرك قدميها. لم يشرح أحد كيفية التعامل مع الخوف المتبقي من الخطر الجسدي، فقد شعرت هيلين أن عمرها خمس سنوات وبحاجة لذراع أحد ما تلتف حولها. كانت عيناه حمراوين وبدأتا بالانتفاخ. ودون أن تكون قادرة على التوقف مدت يدها ومررت أصابعها على خده. ولأقل الأسباب منطقية اختارته لأنه لن يعتني بها مثل روبرت اللطيف الذي يمكن الاعتماد عليه.

قال جاك: «حسناً يا أصحاب سأترككم الآن لأنه عليّ المغادرة». قالت هيلين: «لست مضطراً للذهاب». «في الحقيقة علينا الذهاب تعالي معنا». لم يقل أحد شيئاً.

نهض جاك وقال: «رجاء لا تحاولوا إيقافني أراكم لاحقاً». بقيت هيلين جالسة وحيدة على الكرسي ودارو على الأرض وهو ينظر إليها بثبات منتظراً. «هل أنت بخير؟»

«لا لست بخير فقد تجمدت اليوم ونسيت أن الكاميرا الملعونة كانت موجودة».

لمس دارو عينه التي رقت «عندما بدأت.. دعك من هذا إما أن تتغلبني على خوفك وإما ألا تتغلبني». «أشعر بالإهانة».

«سأخبرك شيئاً.. بقدر ما كنت خائفة اليوم ظننت أنك ستعودين على أول طائرة إلى الوطن».

هرأت رأسها، ففكرة حمل فشلها كانت غير واردة: «لن أعود إلى الوطن».

«لماذا؟ هل لديك سجل إجرامي أو شيء من هذا القبيل؟»

ابتسمت: «هل سأنجح؟». وفاجأت نفسها بالهدوء ونبرة صوتها الخالية من أي عواطف.

«حاولي مرّة ثانية لتري ما سوف يحدث».

وقف دارو ولمس يدها وقادها إلى السرير: «لقد أثرت قليلاً من الفضول، اتعلمين، من الأفضل لك ألا أحملك».

«لا أحد سيمنحني فرصة الآن».

«من الأفضل دوماً التغلب على التوقعات البسيطة».

قالت: «أنا لا أحبك، وليس باستطاعتي أن أحب شخصاً مثلك». قبلت كتفه وصدره فوق قلبه. بعد كل مراوغة الأيام الماضية كانت الأشياء تتسرّب وتسيل من قبضتها، لقد شعرت أنها تفعل الصواب. كان جلده بارداً قليلاً تحت ملمس شفيتها، لم يكن هناك سحرٌ أو خفقان قلب، فقط شهوة صرفة. ومن المرجح أنه سيكسر قلبها على المدى الطويل لكنها لم تتوقّف ولم تتخلّ عن تلك اللحظة لتتجنب ذلك الحدث المستقبلي. لم تظنّ أنه من الحقيقة أن النساء يقعن في الحب دفعةً واحدة لكن على مرّات متكرّرة مثلاً يتدرّب المرء كيف يصبح شجاعاً. هي لم تحبّه بعد.

لم يقل دارو شيئاً فقط قرّبها منه أكثر.

مال منجل القمر على زاوية الرّقاق الضيق وأضاء تلك الغرفة العابرة والسرير الآيل للسقوط. مرّر دارو أصابعه على جانبي جسدها.

كان يعشقها على طريقته ويبني أسطوره الخاصة التي تمثّلها هي، وإن لم تكن بالكاد تقاربها.

«هل تعلمين بما فكّرت حين رأيتك في المرّة الأولى على

الغداء؟».

استدارت باتجاهه وجسدها الناعم مضاءً بمسحة من ضوء القمر وقالت: «أخبرني».

«فكرت أنك امرأة لم تعرف الحب يوماً وتساءلت لماذا؟ فقد كنت قادرة على الحصول على أي رجل على تلك الطاولة، فقد كان روبرت على استعداد للزواج منك والاستقرار معك على حافة النهر».

أراد أن يقول شيئاً رومانسياً لكنه فقد موهبة الرومانسية، إن كان قد امتلكها يوماً.

لقد فضلت رقة الكذب في تلك الليلة.

بعد أن غفت نهض دارو ولبس نظارته وأشعل سيجارة ورفقت عيناه. الفضل لها فقد كان لها تأثير جيد أما هو فكان رجلاً أراد دوماً الوصول إلى غاية ونهاية الأشياء وقصص الناس ليفهم ويضع كل شيء خلفه ويتابع حياته بسلام. لقد كان كذلك منذ أن كان مراهقاً يعمل في غرف نيويورك المظلمة، عندما سمع للمرة الأولى بالأسماء الساحرة مثل (بيرل هاربور) و(قمة سوريباتشي) و(تاراوا) الذين كان يتكلم عنهم الناس بنبرة خافتة كأنهم يتكلمون في كنيسة. هؤلاء الرجال الذين أتوا بندقون غير حليقة وملابس مجعدة وعيون متعبة، وتنبعث منهم رائحة الجلود وصورهم مشبعة بالضوء الأبيض القاسي كما لو أنه ضوء مسرح، في صورهم شواطئ بيضاء تغطي الأبصار بالغيوم الشفافة المتلاطمة تنشر الفيء على أشجار النخيل وجنوع جوز الهند المقتلعة، وتنشر الفيء على معدات الجنود وعلى لباسهم العسكري الموحّد ممّا أعطاهم كثافة النصب التذكارية، كان يجد نفسه دائماً يبحث في السطح عن الخطر. والعديد من هؤلاء الرجال كانوا جنوداً في الماضي يتوقون إلى حرارة المعركة.

كان قد فشل في اجتياز الاختبارات الجسدية بسبب نظاراته وعموده الفقري الملتوي. والصّور كانت إسهامه الوحيد في عالم الحرب هذا، كجواز سفر يتيح له أن يكون في مركز أهم قصة في العالم في أي وقت محدّد.

كانت هيلين واقفة عند نهاية الطاولة في المطعم جافلة من الرياح الموسمية في الخارج وتبدو كشبح في ثوبها الأزرق الغامق. سخيضة خرقاء متسامية، تترك آثاراً أقدم مبلّلة على الأرض بالرغم من المناشف التي أعطاها إيّاها النادل.

حتى بعد ممارسة الحب تجنّبته، اختفت تحت حواف أصابعه. أثبتت هذه الليلة ما اللغز الذي تبقى منها. هي امرأة لم تكره ما فعله ولم تحسده على هواجسه. وفي الحقيقة ربّما كانت هواجسها أكبر لأنّها كانت أكثر عناداً. بعد كلّ العلاقات التي عاشها خلال سنوات زواجه الأربع كانت تلك هي المرّة الأولى التي نسي فيها أن يشعر بالذنب.

استيقظت هيلين عند الفجر منقوعة بالعرق وكابوس يقف في حلقتها حتى تستطيع بالكاد أن تبلع ريقها عندما رأت الحقيقة التي تواجهها وهي وجود دارو في السرير إلى جانبها. وهو خطأ ارتكبته لأنّها لم تُرد أن تكون وحيدة تلك الليلة. وبعد أن هدأ الكابوس داخلها خلف وراءه نبضاً في صدغيها وكان كابوسها أنّها رأت (كورت) من فيلادلفيا هو (مايكل) الذي كان على طائرة الإخلاء والجرح الصغير في رجله أصبح جرحاً قاتلاً، والألوان الزرقاء والحمراء والأرجوانية التي تسيل من أعضائه الداخلية وهي مطروحة على الأرض المموجة للمروحية محاولة بشكل حرفي الإبقاء على أخيها قطعة واحدة دون تمزق. ثم أصبحوا الآن على

الأرض التي خلف السّاتر الثّرابي. اللّون الأزرق الشّاحب في عيون مايكل سهّل تمييزه، لكن بياضهما كان مصفراً من اليرقان ومعرّقاً بالدم. وكان وجهه عظيماً ويدها مكسوّتين بالثّراب وتحت أظفاره لون أسود، وكان يضغطها إلى الأرض كأنّه يدفنها ووجهها في الطّين، والخوذة تجرح أذنها وهي غير قادرة على التنفّس والبول يسيل حارّاً من بين قدميها.

ففي ضوء الفجر النّاعم نهضت وتسألّت إلى الحّمّام وأغلقت الباب ووقفت تحت ماء الدّش الفاتر الذي يقطر عليها لتغسل عنها حقيقة وجود دارو عليها، وكان الماء ينزل بلون الصّدأ عند قدميها. غضب مايكل من فكرة أنّها تطارده؛ لأنّها دخلت حربه، وفشلها كان ضدها هذا الصّباح أيضاً. ربّما عليها الاستسلام والعودة إلى وطنها كاليفورنيا وأن تقبل الحياة الصّغيرة المعروضة عليها وتعلم الجميع أنّ ما جرى كان مجرّد إشارة كبيرة مُضلّلة. مرّرت منشفةً على حلقها وشعرت بجلدها ناعماً ومحرّوقاً من الشّمس. وضعت المنشفة بين قدميها. كان للماء رائحة معدنيّة كالّدواء. أرادت أن تهرب إلى مقهى في شارع هادئ وتشرب القهوة وحدها وتفكر، هل عليها العودة إلى الوطن وهي تجرّ أذيال الهزيمة؟ آخر جزء من الحلم كان أنّها هي ومايكل مستلقيان بشكل يصعب وصفه على الأرض بجانب المروحيّة، ومجموعة من الأولاد الفيتناميّين يقتربون منهما ويدورون حولهما ويقتربون ويدورون، ويدورون ويلمسونهما، وعندما حاولت التّكلّم معهم أداروا ظهورهم إليها وبدأت الصّخور تقع.

عندما فتحت باب الحّمّام كان شعرها مبللاً ومنشفةً ملصوفةً حول جسمها الرّطب وكان دارو جالساً في السّرير: «الجميع كانوا

محقّين بشأنك أنت كحوريّة، دائماً يقطر منك الماء عندما أراك». بعد أن غلبها إرباك اللّحظة تصنّعت الاحتشام وقالت: «أحتاج أن أنظّف أسناني».

«هناك فرشاة جديدة في الدّرج عقميها بالويسكي فقد نفذت من عندي المياه المعلّبة».

هزّت رأسها وأمسكت ملابسها وعادت إلى الحمام، وحالما ارتدت ملابسها خرجت وتوجّهت إلى الباب وقالت: «أريد أن أذهب». انحنى إلى الأدراج الصّغيرة بجانب السرير ورمى إليها بالمفتاح: «سيبقى الباب مفتوحاً دوماً إذا».

ورغم سعادتها بأنّها هربت كانت لا تزال غير مستعدة لأن تعود إلى غرفتها. عندما أنزلتها السيّارة عند الفندق مشّت عبر الطّرق في البلدة وعلى طرف النّهر، كانت متعبّة تغمرها أصوات الضّجيج والحركة والنّاس. كان المتسوّلون يسدّون الشّوارع وجنود سابقون مقطوعو الأوصال ووجوههم مغلقة ومتجهّمة يتسكّعون عند الأبواب والمداخل والجدران. انتصبت المدينة وهي مليئة بالأولاد القذرين والحيوانات المتضوّرة جوعاً. أفقدها الثّوتر في تلك الأجواء أعصابها. وحثّى الجهد الذي بذلته لاستيعابه بدا محطّماً.

تاقت للعودة إلى الوطن وأن تكون هادئةً ونظيفةً وتغلق السّتائر وتستلقي في جوّ شبه مظلم لكنّها لم تمتلك القدرة على البقاء وحيدةً بعد.

وأصبحت صور الوطن تلخّ عليها أكثر تملؤها بالثّوق أكثر فأكثر إلى الشّوارع العريضة المحاذية للشّاطئ والمروج الخضراء المليئة بالطّحالب وطيور البجع تطير عند المنحدرات. عند منطقة (دونغ هاي با ترونغ) كان الباعة المؤقّتون يبيعون المياه

الغازية بالزجاجات المليئة بالغبار موضوعة في صناديق من الثلج المطحون موضوعة في ظلال الشارع.

كان منظر الصناديق مغريباً مع اشتداد الحر لكنها خافت من قصص الزجاج المطحون الذي تضعه العصابات في المشروبات. بعد أن تابعت المشي لوقت أطول نسيت أن تنظر إلى الإشارات الدالة على الشوارع التي كان أغلبها غير مفهوم على أية حال. تسكعت لمدة ساعة في المتاهة ثم وجدت نفسها عائدة إلى مطعم (تودو) وهي تشعر بالسعادة أنها عادت إلى مكان مألوف. وبينما اجتازت صفاً من المحالّ لفت نظرها غطاء سرير جميل أخضر بلون النعناع في نافذة أحد المحالّ. حيث أضاء القماش الناعم ظلام المحلّ. كانت هيلين متأكدة أنها إذا لمستّه فسيكون مثل الخطو إلى مرج نديّ في هدوء صباح باكر في الوطن. دخلت لتسأل عن ثمنه.

بالكاد نظرت إليها المرأة التي كانت خلف الطاولة وهي غارقة في دفتر الحسابات. امرأة تملك شعراً أشقر غامقاً ملفوفاً على شكل كعكة وفيه عودان مطلّيان بالأسود أشبه بالأسلحة لتثبيتته في مكانه. كان وجهها شاحباً وجافاً ومليئاً ببودرة التجميل وشفاه مرسومة باللون القرمزي. كان المحلّ هادئاً جداً للحظة لدرجة أن هيلين استطاعت أن تسمع أزيز ذبابة عند النافذة ونسيت إن كانت سألت عن ثمن الغطاء أم لا. ثم تكلمت المرأة بلكنة فرنسية: «هذه قطعة غالية فهي من الحرير المطرز من هونغ كونغ».

تجاهلت وجود هيلين مرة أخرى وهي تكشط العواميد الرقمية الملطّخة بالحبر بقلم حبر قديم. بعد لحظة مدّت يدها تحت المكتب وأحضرت ضرابة ذباب كبيرة ضربتها بأجاء النافذة خلفها. فتحول المحلّ إلى الصمت المطبق.

استدارت هيلين وجفلت عند رؤية امرأتين فيتيناميتين جالستين على كراس سوداء عالية مثبتة في الأرض. ولم تنظر أيّ منهما للأعلى أو تُبطئ عملها أو تتوقف عن الحياكة. ومع أنّ وجهيهما كانا مليئين بخطوط عميقة لكنهما رفعتا شعرهما بطريقة مماثلة تماماً على شكل كعكة مشدودة بلون أسود فاحم. كانتا ترتديان ثوبين أسودين حريريين مثاليين كأنهما منتقيان من مجلة «فوغ» الباريسية قبل أربعين سنة، فهما ضيقان من الأعلى ومنسدلان وواسعان من الأسفل. رأساهما محنيان وتطرزان بأدق وأصفر سئارة على قماش الحرير. كانتا منكبتين على عملهما في غاية الضمت لدرجة أنّ هيلين لم تلاحظ وجودهما في بداية دخولها المحل. كانت كلّ منهما جالسة على كرسيّ على أطراف باب غرفة العرض كأنهما غلاف كتاب في متحف.

عندما استدارت هيلين مبتعدة بدأت إحداهما التي كانت أكبر سناً بالثرثرة بصوت منخفض بالفرنسية مع الأخرى. لم تستطع هيلين فهمها حتى لو تكلمتا بالفيتنامية. فأيّ حدث مهمّ يمكن أن يحدث ليحرك المحادثة في ذاك القبر غير ولوجها إلى ذلك المحل؟

استدارت إلى المرأة الفرنسية واستفّرها تجاهلها لها: «سأخذه».

نظرت إليها المرأة الفرنسية وحواجبها منتصبّة: «رائع، سألقه لك بعقدة كبيرة، أنا المالكة (آنوك)».

استندت هيلين إلى الطاولة أمامها وقد أصابها دوار من شدة الحرارة وعدم الإفطار. كانت الخياطتان المنكبتان على ذاتيهما مثل تمثالين لأبي الهول غافلتين عما يجري حولهما. نظرت

إلى الأسفل ورأت على كنزتها بقع عرق هلائية تحت إبطيها وما أزعجها أكثر من ذلك حذاؤها الذي كان قد أفسده الماء. لاحظت المرأة الفرنسية كل ذلك دون شك وربما كان ذلك موضوع حديث الخياطتين أيضاً. وعندما استدارت أحست بدفع لزج بين قدميها وأدركت أنها نسيت الوقت الذي يحدث فيه ذلك من كل شهر. ببساطة فكل ما يجري كان كثيراً على تحملها وبدأت تبكي ممّا أزعج كبرياءها أكثر.

«أحتاج أن أستخدم حمامك. لدي مشكلة».

بدأت آنوك تخمن كأنها كانت تجتاز امتحاناً ما. كان من الممكن أن تكون الخياطتان عدوتين لها بسهولة، لكن شيئاً ما حرّك آنوك لأن تكون صديقة لهيلين: «تعالى دعيني أعتن بك».

شعرت هيلين بالخجل عندما عادت إلى المعرض.

قالت آنوك: «اجلسي سأحضر لك بعض الماء».

«الحرارة...». تمتعت هيلين بينما أخذت كأس الماء.

كانت هيلين متأنقة بشكل كامل لا يشوبها عيبٌ كأنها في أحد محالّ شارع الشانزليزيه. حدّقت هيلين في ثوبها الحريري الذي كان بلون الدراق الناعم والياقة الصينية. نظرت آنوك إلى سروال هيلين الفضفاض وقرّرت شيئاً وابتسمت: «لدي قميص أسود يناسب مقاسك، استعيريه مني وهو أخفّ ممّا ترتدينه الآن».

قالت هيلين: «أنا آسفة. من أين حصلت على ذلك الثوب؟ أنا

لا أملك أشياء جيّدة».

«وقعت في دوامة اجتماعية غير متوقعة أليس كذلك؟ لقد

صنع الثوب هنا».

شعرث هيلين بالإحراج والانكسار مثلما حدث معها في الأيام الماضية وقالت: «لقد اشتريت كل الأشياء الخطأ. أعني أن هذه منطقة حرب».

«هناك خدعٌ ترتبط بالعيش في المدارات الاستوائية».

«حقاً؟» شعرت هيلين بالراحة لوجود امرأة أخرى بإمكانها الكلام معها.

«انظري إلى الفيتناميات». أشارت آنوك برأسها إلى الخياطتين: «تتحركان ببطء مثل الفرنسيين، عندما تمشين في الشارع تستطيعين تمييز الأمريكان بسهولة لأنهم يهرولون».

«لم ألاحظ ذلك».

أوقعت إحدى الخياطتين الفيتناميتين لفّة خيط تدحرجت حتّى وصلت تحت الكرسي. فوضعت جانباً القطعة التي كانت تعمل بها بحذر ووقفت وأمسكت ثورتها بيد واحدة وخشخش القماش لمستّها.

لاحظت هيلين أنّها كانت ترتدي حذاء أسود أنيقاً بأزرار تصل إلى كاحلها كالذي كانت ترتديه النساء عند بداية القرن. كانت القطعة التي تعمل عليها من الحرير وهي صورة لحفلة قديمة لأناس يسكرون تضم أفراداً جالسين إلى طاولة وراقصات عاريات يلقون حول المكان. كانت التفاصيل دقيقة جداً لدرجة أنّها لاحظت الخيط الأحمر الذي يشكّل الحجر الزوي في آذان الراقصات.

ضحكت آنوك وقالت: «هذا صحيح، لن تستطيعي الصمود هنا إلا بهذه الطريقة، سينهكك المكان. أنا هنا منذ خمسة عشر عاماً، القليل من النساء الغريبات استطعن الصمود، فهو فنٌ يجب أن تتقنيه ولا يمكن طلب المساعدة».

«أنا في حال سيئة لذا أرجوك...».

كانت آنوك جذابة على الطريقة الفيتنامية، فرداؤها كان بسيطاً وشعرها مربوطاً إلى الخلف ومساحيقها براقه. ويبدو أنها بذلت جهداً دقيقاً لتبدو طبيعية جداً.

«الدرس الأول، تحركي ببطء، الدرس الثاني، جادلي على أي شيء. فقد دفعت ضعف قيمة غطاء السرير ذاك حتى إنك لم تكتشفي الأمر، فقد كان يمكن أن يشتري لك ثوباً كالذي ارتديه، ماذا تعملين يا هيلين؟».

«أنا مصورة حرة».

عبست آنوك: «الدرس الثالث، فيتنام هي عالم الرجال وعلينا أن نضع قواعدنا الخاصة لكن العائق هنا دوماً هم الرجال». أغلقت هيلين عينيها للحظة وهي تتذكر مصيبة دارو: «أنا هنا منذ أسبوعين وارتكبت كل تلك الأخطاء».

«الوقت ظهر الآن، وغداء جيد هو ما أنت بحاجة إليه».

أخذتها آنوك إلى مكانها المفضل، حانة صغيرة فيها طاولات مصبوعة وكراس موضوعة في الحديقة الريفية المفروشة بالحصى ونبات ألبازلاء. كان الهواء ثقيلاً بين جدران المبنى، ورائحة الأزهار الاستوائية اللحمية حولهما جعلت هيلين تشعر بدوار. اختبأت تحت ظل شجرة موز وشربت كأساً بعد آخر من التبيد الأبيض البارد الشاحب كالماء.

ناقشتا خلال تناولهما الطبق الرئيسي المؤلف من سمك مقلي وخضراوات مقطعة، وسائل البقاء والحفاظ على النفس كامرأة غربية في سايفون، وكيفية الحصول على المنتجات الخاصة بالنساء، وتكلمتا عن النقص الدائم لبخاخ الشعر، وعن المكان الذي يمكن لها أن تصفف فيه شعرها أو تقصه،

ومن أين تشتري ملابسها، وأين يمكنها الذهاب وحدها بأمان، وعن الحضارة الموجودة وكيفية التعامل مع عدد الجنود الكبير الموجود حولهما.

قدّما لهما فنجاناً صغيراً من الإسبريسو وحبّة مانجو مقطّعة وأرزاً لزجاً، سألت هيلين عن الخياطتين: «هل تعملان لديك بدوام كامل؟».

«السيدة تـوان والسيدة نهو أختان وكانتا تعملان عند زوجين فرنسيين كانا يملكان مزرعة شمال سايفون في الثلاثينيات والأربعينيات. كانت الأختان تخيطان ملابس تلك السيدة الفرنسية بشكل ممتاز فكان أصدقاؤها يطلبون الأثواب منهما. كانت الأختان تضعان الحرير على ظهر القطع كلّها في ذلك الوقت».

«وكان ذلك قبل أن أصل هنا مع زوجي. أما زوجا الأختين فقد كانا في حفل مقام في مزرعة مجاورة حيث قتلتهما شيوعيو فيتام، لا لأهميتهما السياسيّة، فقط لسوء حظّهما».

تذكّرت أن دارو حدّرها ألا تسأل ماذا حدث لشخص ما، قالت: «يا للفظاعة يا لها من مأساة».

«في الحقيقة هذا أمرٌ وارد الحدوث، على أيّة حال أرادت الأختان أن تتابعا العمل في الحياكة لكنّهما لم تريدا أن تفتحا محلّهما الخاصّ لتجنّب التعامل المباشر مع الأجانب، التقينا بعد ذلك بفترة قصيرة».

«إذاً كم كان عمر...».

قهقهت آنوك: «السيدتان؟ إنهما خالدتان. العجوزان الثّلاثتان الجالستان على كرسيّهما. تعرفان كلّ ما يحدث في المدينة مع أنّهما لا تغادران المحلّ أبداً، وبالكاد تتكلّمان معك، ومع ذلك تعرفان كلّ شيءٍ عنك».

أشعلت آنوك سيجارةً بينما مرَّ بمحاذاة طاولتهما شابٌ فيتناميّ في أواخر العشرينيات من عمره يرتدي برّةً غالية الثمن، فنفخت الدخان من بين شفّتها وقالت: «هذه البرّة جميلةٌ جداً لا بدّ أنّها وصلت للتو من باريس».

ضاقت عيناها بينما كانت تراقب هيكل الشاب المبتعد وقالت: «الفيتناميّون الأثرياء في كل مكان، هو ابن أحد قادة جيش فيتنام الجنوبيّ، لن تري ترفاً كهذا وفساداً في نفس الوقت، لا يستطيعون منع أنفسهم، لقد جمعوا ثرواتهم بمساعدة الفرنسيّين ومن دماء شعبهم. إنهم ملعونون».

قالت هيلين: «تحدّثين كالثوار».

ضحكت آنوك بصوت عميق صادر من حلقها وارتدّ رأسها للخلف وبان عنقها الأبيض الجميل: «أبدأ، أحبّ الحياة المترفة العالية المستوى، وإذا عرفت كيف تتصرّفين يمكن أن تقدّم لك سايفون أفضل حياة».

«لهذا بقيت؟»

«لقد تذوّقت طعم الحرية. بقينا على أمل أن يطول الأمر أكثر، ستضع الأختان الخياطتان الآن الحرير على كتف الأمريكان بعد الفرنسيّين لكنّهما ستبقيان هنا بعد أن يتمّ إبعادنا جميعاً». «ذهبتُ في مهمّتي الأولى في الميدان يوم أمس ونسيت أن أصوّر أيّة صورة بكاميرتي، كنت مرعوبةٌ جداً». أطلقت كلماتها بسرعة.

«كنتُ مرعوبةٌ لدرجة أنّي نمت مع رجل البارحة ولم يكن عليّ فعل ذلك. يرعبني البقاء ويرعبني الرّحيل».

حدّقتُ فيها آنوك للحظة وقالت: «يبدو أنّي أصبحت صديقتك في الوقت المناسب».

خافت في البداية أنها بدأت علاقة مع دارو لم تكن متأكدة إن أرادت أن تكملها أم لا، فارتاحت عندما لم تسمع خبراً عنه. وبعد عدة أيام من عدم سماع أي خبر أدركت أنه قد طردها من حياته دون أن تعرف بذلك.

عانت في شق طريقها وحيدة في سايفون وهي تتجنب روبرت لشعورها بالحرج منه. وعندما عادت إلى فندقها تجنبت طاولة الاستقبال لخوفها من وصول رسالة من دارو ولخوفها أكثر من عدم وصول رسالة، نفذ صبرها وبدأت عابسة عند باب المصعد بانتظار أحد خادمي الفندق أن يأتي إليها برسالة. رسالة مهمة من مستر دارو يقول: الأمر طارئ. لكن لم تصل كلمة واحدة. خطر ببالها أن الدرج المحاذي لسريره يمكن أن يكون مليئاً بالمفاتيح معتمداً على حقيقة أنها لن تُستخدم. لكنها استخدمت مفتاحاً بعجلة محاولة أن تخفي حقيقة أن ما حصل الليلة الماضية كان خطأ. فرشت غطاء السرير الذي اشترته من آنوك ورثبت سريرها به. يبدو ذلك تخبّطاً فظيلاً آخر.

بعد مرور أسبوع اكتشفت هيلين من خادم الفندق أن دارو كان خارجاً في مهمة ثم عاد. وكان ذاك جواباً لها عن سبب عدم تواصله معها. لم يكلف نفسه أن يخبرها عن الرحلة لكنها استطاعت أن تسامحه على ذلك وهي تشعر بالراحة. لا بد أنه في غرفته في الفندق. غيرت ملابسها بسرعة وارتدت ثوب كئان ومشطت شعرها وزينت شفتيها باللون الزهري الفاتح الذي أعطتها إيّاه آنوك. أجبرت نفسها على المشي إلى غرفته، لا الرّكض.

دقت الباب وأجاب بصوت شارد: «ادخل».

كان ضوء الشمس يضربُ في النوافذ المغبرة غير الشفافة بسبب الشريط اللاصق المستخدم ليحفظها من التُحطّم بسبب القنابل. وكانت تفوح من المكان رائحة الثعب والغبار المكوم على الأرض ودخان السجائر القديم. وانتابتها الأحاسيس اليائسة التي سلّت نفسها منها منذ قليل وأحسّت بحماقتها من جديد. أحنى لين رأسه عند دخولها بينما كان جالساً على كرسيّ قريب من النافذة يفحص بعض أوراق الاتصال بعدسة مكبرة. لم يتحرّك دارو باتجاهها بل بقي بجانب طاولة مليئة بالمعدات بينما كان وجهه محنياً وعيناه غير مرئيتين بسبب ضوء الشمس الضارب على نظارته.

وقفت في منتصف الغرفة تلاعب قماشة ثوبها الخشنة بأصابعها وتبحث عن سبب لوجودها وتلعن نفسها لمجيئها إلى هذا المكان. أخيراً قالت: «سمعت بعودتك».

قال دارو: «لقد عدت البارحة». متابعاً إفراغ الكاميرات من حقيبة ملطخة بالوحل.

«لقد أمضيت السنة الماضية محاولاً تطوير الكاميرات». «ها».

لاحظت الارتجاف في يديه مرة أخرى بينما كان يرفع معدّاته. كانت تجعل من نفسها أضحوكة، ولحظات أخرى تمرّ، لقد كرهت أن تكون واحدة من تلك النساء تصرّ أن ليلة قضتها مع رجل سوياً كانت يمكن أن تعني له شيئاً. قال دارو: «تذكرين لين».

نهض لين وأوماً برأسه تحية لها وتحرك عابراً الغرفة ليصافحها. بدا كأنها تلقاه للمرة الأولى بعد أن أعماها الألم. وقف وأخذ يدها بشكل أخرق ولاحظت دون تفكير الجلد

المخدوش عند معصمه. ماذا كان يعمل قبل أن يصبح معاون مصوّر؟ خطر لها أنّه ربّما لا ينبغي على امرأة مصافحة رجل فيتنامي.

«وضعت بعض الأشياء في الشقة فقط لأقول لك شكراً على اصطحابي ذلك اليوم». أيتها الحمقاء الغبية فقط اخرجي من هنا.

«رأيتها». أشعل دارو سيجارة وقدم لها واحدة.
«هل كان غطاء السرير جيّداً؟ لقد اشتريت واحداً لغرفتي في الفندق، فالموجود قبل ذلك كان يبعث على الاكتئاب وفكرت لم لا أحصل على اثنين بذات السعر». لم تستطع التوقف عن الكلام ویدت سخيّة، عليها أن تموت في تلك اللحظة في ذلك المكان لذئها وخطأ حكمها على الأمر.

عمّ الضمت الغرفة بينما تركها تشنق نفسها.
«كان ذلك جيّداً يا لين، هل يمكن أن تمنحنا لحظة على انفراد».

«بالأكيد» انحنى لين درجة أدنى من انحنائه في أوّل مرة، دون أن ينظر مباشرة إلى عينيها وغادر بسرعة.
شعرت أنّها مطوقة عندما أغلق الباب خلفه، أرادت أن تخرج هي أيضاً بدلاً من البقاء والاستماع إلى ما كان سيحدث بعد ذلك. أغلق القفل بنعومة بالغة لدرجة أنّه لم يكن من السهل تمييز ذهابه إلا من صوت خطاه المتوارية عبر الممر.

مشّت إلى الطاولة بجانب النافذة، وشدّ عزمها أنّها رأت صورتها فوق صور ومطبوعات على الطاولة.

قال دارو: «دعيني أسألك عن شيء واحد».

«ماذا؟»

«هل أتيت إلى النُصف الآخر من العالم لتقيمي علاقةً مع رجل متزوّج؟».

ضغطت أصابعها على الطاولة وحدّقت في صورتها بينما حاولت أن تستجمع أفكارها وترتب وجهها لتخرج من الغرفة التقطت صورتها وسحقتها بين يديها.

قال دارو: «لا تسيئي فهمي، لقد قضيت وقتاً رائعاً لكنني أفكر بك فقط».

استدارت ونظرت إليه: «لقد خدعتني».

«ماذا؟ ألم تقولي إنك لن تحبّي شخصاً مثلي أبداً؟ فما الأمر الآن؟ يا سيّدة الحب المحكوم عليه بالفشل».

«أنت نذلٌ من الدّرجة الأولى».

جلس دارو على السرير متربّعاً وأخذ سحبةً طويلةً من سيجارته: «الحقيقة الحزينة يا حبيبتي هيلين أنني لا أستطيع إنقاذك».

أغلقت الباب خلفها وكرهت نفسها لأنها زيّفت الأمور لكنّها كانت ممتهنةً أنّها غادرت قبل أن تبكي. الرّاحة كانت أكبر من العار فقد كان هناك متسعٌ من الوقت لذلك لاحقاً. كان على حقّ فلم يكن ذلك ما أتت لأجله.

في الممرّ المظلم استندت إلى جدار وهي تشعر بالقرف من سخف الثوب وأحمر الشّفاه. صفت فمها بظهر يدها. وقعت الصّورة المسحوقة على الأرض وعندما نظرت إلى الأعلى كان لين واقفاً هناك وانحنى ليلتقط صورتها وحاول إصلاحها على ركبته وأعطاه إياها.

(5)

الأسلحة المفتوحة

بقيت حقائبها محزومة في كومة أنيقة في منتصف غرفة الفندق لكن الأيام مرّت يوماً بعد آخر وهيلين لم تغادر بعد. لم تستطع مواجهة عودتها إلى الوطن كفاشلة، كان مزاجها عميقاً جداً لدرجة أنها لم تستطع إدراكه. كانت أمها قد تزوجت مرة أخرى بعد عام من وفاة والدها، وقد كان اختيارها صديقاً مقرباً من العائلة كان قد أصبح أرمل أيضاً مثلما كان وضع والدتها. عندما بكّت هيلين قبل العرس بسبب الغيرة والخوف والخيانة جلست معها أمها وأعطتها «محاضرة». لم تبدأ المحاضرة بتوصيفات للحالة إلى مستوى الحقيقة البدهية العالمية أن الفشل لم يكن خياراً متاحاً أبداً على الإطلاق. بل اكتفت بالقول: «سيكون هذا الرجل زوجاً جيّداً وأباً جيّداً لكليكما، انتهى الموضوع».

عندما كانت هيلين ومايكل مراهقين كانا يختبئان على الشاطئ ويدخنان الحشيشة ويشريان الخمر مع أصدقائهما ويرسمان أمهما وواقعيتها المتجهمة بشكل كاريكاتيري، وكيف دفنت الزوج الثاني بعد عشر سنوات وأعلنت أنها انتهت من التعامل مع الرجال: «الفشل ليس خياراً متاحاً. ربّما أخبرته هذا في السرير»، قالت هيلين ذلك وهي متحمسة لثورتها.

كانت هناك صديقة لها وهي (ريبا) ذات الشعر الأحمر المجعد والتي كانت تكنُّ مشاعر خاصة تجاه مايكل، ضحكت كثيراً لدرجة أنها انقلبت على ظهرها وخرج المشروب من أنفها عندما رأت الرسم الذي رُسم لأُمهم: «إنها تبدو كأنها وحش». أجابت هيلين: «كلا هذه هي طريقتها فقط». لم يخطر ببالها أن شيئاً ما كان خطأ في تلك المطالبات.

خلال جهودها لتثبت أنها تستطيع المقاومة والحياة في سايفون وتستطيع تأدية عملها دون مساعدة دارو، أقامت صداقات مع عدة صحفيين في البلدة وحضرت اجتماعات رسمية، واستقلت سيارات الزينو البيضاء والزرقاء المتهترئة إلى (تان سون نهات) لتصوّر الجنود الأمريكيين والفيتناميين العائدين من العمليات. وانضمت هي وروبرت إلى العمليات العسكرية الرسمية التي أقلت الصحفيين في طائرات من نوع (سي 130) ليكتبوا ويلتقطوا الصور لأراض صخرية مغمورة وجنود موتى لعدة ساعات بعد المعركة. كان روبرت راضياً بإنجاز عمله وكتابة القصص، لكنها وجدت العملية محبطة لأن صورها لم تكن مختلفة عن صور عشرات الصحفيين الذين كانوا يبيعون صورهم بقيمة خمسة عشر دولاراً للصورة الواحدة.

كان الصحفيون قد شكّلوا صحبة غير أخوية وهم في الميدان يتشاجرون ويتناقشون فيما بينهم ويستشعرون عدم سهولة الوضع. لم يستوعبوا شناعة أن يثبوا على مأساة بعيون جائعة ليخطفوها كفريسة، ويصنعون مجدهم بذلك، حتى من كانوا أكثرهم شفقة كانوا يقولون: «لدي صورة مذهلة لجندي ميت أو امرأة أو طفل. فيها استدراژ للدموع». وبعدها كان يتم التقاط الأفلام، كانوا يجلسون في الطائرة العائدة يشعرون بنوع من

الخزي الذي يلي الجماع المحرم، ولا يجروون أن ينظروا إلى عيون بعضهم.

كانوا في اللحظة الزاهنة مزدريين من قبل الجنود والضحايا وحتى من قبل أنفسهم. وفي خضم المأساة الواقعية لم يكونوا حقيقيين، نسوّر كل همهم الحصول على ما يريدونه. وفي أسوأ لحظاتهم كان كل منهم يخاف أن يكون هوليودياً بشعاً. التفكير بالمستقبل هو فقط ما يمكن أن يعيد إليهم كرامتهم وإمكانهم أن يكونوا أبطالاً مشكوكاً في بطولتهم. انتهت اللحظة وكانت ستضيع لكن الذي صورها بزيلم أعطاها موضوعاً وأتاح للمصور نوعاً من الخلود.

أرسلتها الشبكات لتغطية قصص إنسانية، مشاف، وأعمال خيرية وأيتام وأرامل، لكنّها عندما كانت تفتح الجريدة وترى الطلقات القتالية لدارو والآخرين، كانت تعرف أنّها مهمة جانباً. كانت حقيقة الحرب موجودة في كل مكان فالمعركة والقتال كانا جزءاً من كل، لكنّ حقيقتها هي كانت تأتي من خارج الميدان. كان فشلها في الميدان جزءاً من سجلّها العام ولم تعرف كيف تبدأ من جديد.

مضى شهر آخر وأصبحت في حالة قلق أكثر، لا تغطي سوى القشور في الأرض والحرب، وتعود إلى سريرها الآمن كل ليلة. كان الصحفيون راضين عن مستواهم كعلماء الآثار الذين يجمعون أجزاء على بعضها ويحاولون أن يحزروا حقيقة شيء ما اختفى منذ زمن بعيد. شعرت بأنّها مزيّفة. تابعت الذهاب إلى الرحلات التي تلي المعارك مع روبرت رغم كون الأمر يشكّل إخراجاً بالنسبة ل كليهما في رأيها، كانت كل ليلة تحتاج أن تحتسي المشروب في بار فندق الكونتinentال.

وكانت تحاول أن تشرح عدم رضاها على الغداء مع روبرت. منذ تلك الليلة التي غادرت فيها مع دارو بقي روبرت بعيداً كأنه كان يضمربعض السّخرية، كأنه كان الوحيد المّطلع على الأمر. فهمت أنّها كانت بحاجة لأن تحفظ ماء وجهها. لقد تصرّفت بشكل سيئ وكان من المحتمل عدم وجود شيء بالإمكان فعله لإصلاح الموقف. بالظاهر كانا لا يزالان يتمازحان ويتغازلان لكنّ كليهما أدرك أنّ الأمور تغيّرت بينهما.

قالت: «هل يكفي ذلك؟ أشعر أنّ هذه الصّور لا تكفي». استهجن روبرت ذلك وشعر بالملل والخيبة. مرّت بباله فكرة قاسية وهي أنّ الممرّضات لم يكنّ يحضرنّ عملهنّ معهنّ خارج مكان العمل.

«أنت جادة زيادة عن اللّزوم».

قالت: «آسفة». بعد أن أدركت خطأها بأنها تسرّ له بمكنوناتها فغيّرت الموضوع بطلب مشروب آخر. لكنّها لم تستطع خداعه. «الطّريقة الوحيدة للحصول على الصّورة التي تريدونها هي الاقتراب كثيراً منها لتصبحي جزءاً منها».

لكن بدل أن تغيّر رأيها، أوحّت لها كلماته بفكرة. فأصبحت تذهب إلى القواعد الجويّة لتكتب القصص، وإلى القنوات الرّسميّة لترى ما يحدث حقيقة، كانت تركب وحيدة في المروحيّات النّاقلة للدّخائر والمؤن إلى مخازن الأسلحة البعيدة. وبما أنّه لم يكن هناك قصّة ظاهريّة أو قتال لم يكن هناك تحديدٌ لتحركاتها أيضاً. وكلّما أمكنها ذلك كانت تحاول أن تزور القوّات الخاصّة في مخيّماتها آملّة أن تلتقي بأحد ما يعرف شيئاً عن أخيها. كان هناك رجالٌ في البؤر الاستيطانيّة أنصاف عراة في القيظ وأجسادهم مغطّاة بالغبار الذي لا مفرّ منه

والأوساخ التي سببت ظهور بثور صغيرة على الجلد والعيون المتسعة بسبب الانعزال والتهديد بالخطر.

رفض البعض التكلّم معها وبكلّ بساطة تفرّجوا عليها من أطراف المخيم ككلاب وحشية لكنّ معظمهم كانوا سعداء بالصحبة. جلست وشاركتهم تدخين السجائر والتقطت لهم الصور وتكلّمت معهم بينما كانت المروحية تفرغ حمولتها. ثرثرت معهم بأكثر الأسئلة تفاهةً مثل: ما اسمك؟ من أين أنت؟ منذ متى وأنت هنا؟ استطاعت أن تحصل على قدر يسير ممّا أرادت الحصول عليه.

في إحدى قاعدات الهبوط المرتفعة على التلال قرّر الطيّار أن يبقى لليلة؛ ولأنّها كانت سعيدةً بذلك لم تذكر أنّ ذلك كان ضدّ القوانين بالنسبة لها كامرأة أن تقضي الليلة خارجاً في الميدان. داخل الملجأ الرّملي والهيكّل الخشبيّ، مع رائحة سهلة التمييز للحظيرة الفوّاحة بالمارجوانا، تمّ تعريف هيلين على ضابط سابق في القوّات الخاصّة وهو (فرانك ماك كراي) الذي كان يرتدي مئزراً ويطبّخ (التشييلي) في قدر على نار مؤقتة في حفرة. كان في سنّ الخامسة والأربعين، أكبر نوعاً ما من الرّجال الآخرين، ويختلف عنهم في أنّه كان في وطنه ومنزله هناك. كان قد عاش في فيتنام لأكثر من سبع سنوات ويتحدّث اللّغة بطلاقة ويعيش في القرى.

وعندما جلسوا إلى الغداء جميعاً بمن فيهم العديد من الجنود، الطيّار وهيلين، كان فرانك هادئاً في البداية يحتسي الجعة زجاجةً بعد أخرى في عدّة جرعات ويثني عليها. كان على طبق التشيلي طبقةً رقيقةً من زيت البرتقال وقد أحرق شفّتها الفلفل الفيتنامي الحارّ وأشعرها بالخدر. عندما أثنت

عليه هيلين ثم استأذنت منهم لثوان احمرّ وجهه من السعادة وأخرج زجاجة نبيد كان محتفظاً بها وقال: «كنت محتفظاً بها لشواء لحم الخنزير لكن لنفتحها». نظر إلى كاميراتهما: «جميل، كان لديّ كاميرا جيّدة من نوع (نيكون) لكنني أسقطتها. والآن أفقد الأيام التي كنت ألتقط فيها الصور. أصبحوا يرسلون الصحافيات من النساء الآن؟».

قالت: «ليس الأمر بإرادتهم فهم لم يرسلوني، أنا تسلّكتُ إلى هنا بنفسِي».

«منذ متى وانت في البلد؟».

«منذ شهرين».

«شهرين، ياه يا عزيزتي» أشعل سيجارة واثكا على ظهر كرسيه وكنزته البيضاء ملطخة ببقع التشيلي الحمراء: «لقد أتيت متأخرة».

«كيف ذلك؟» غطّت لسعة حرارة التشيلي جبهتها بقطرات العرق فمسحته بمنديل. كان خوفها أنها قد افقدت مسبقاً أكبر جزء من الحرب. بدأت معدتها تتقلب بعنف. «لقد انتهت الأيام الفاتنة الجيدة».

قال أحد الجنود: «لا، ليس هذا بجديد».

«أترين؟ نحن فقط نتعلّم كيف نقوم بأعمال هنا، لكنهم خربوا كلّ شيء فمن الأسهل إرسال الجنود إليّ، ومن الأسهل إلقاء المال على القادة الفاسدين الذين سيلعبون اللعبة معنا. أسهل علينا الاستيلاء على كلّ شيء».

«هل كنت تعرف أخي مايكل آدامز؟ كان هنا منذ سنتين ومات العام الماضي في منطقة سهل القصب». ارتفعت بقبقة عميقة من معدتها وندمت على تناولها الطبق الثاني من التشيلي.

«لم يَمَرَّ عليَّ اسمه. من كان قائده؟»
«أظنه كان الكابتن واغنر في مشروع الدلتا».
«إنه عالمٌ صغيرٌ هنا، لم يتسنَّ لي لقاءه للأسف». ابتسم
فرانك بينما دمعت عينا هيلين وخرج منها تجشؤ: «لستُ معتادةً
على الطبخ المنزلي الجيد».
نهض الطيار شاعراً بالملل وأشار على الآخرين ليذهبوا إلى
طاولة أخرى ويلعبوا البوكر.
شعرت هيلين كأنها ستنفجر: «كان التقرير عاماً وقال إنه
مات موتاً بطولياً وما شابه».
نظر فرانك إلى السقف ونفخ دوائر من الدخان: «حكومتنا
تحب التظاهر فحسب، فكلّ ذاك الهراء منذ سنوات مضت يتعلّق
بأنهم منحوا (ديم) لقب وينستون تشرشل لشمال شرق آسيا.
هل تمرّد الإنجليز على تشرشل؟ هل قتل أو سجن معارضيّه؟
كان كلّ ذلك حملة إعلاميّة من مجلة لايف. ربّما خدعنا ديم».
هزّ فرانك رأسه بنعومة في البداية ثمّ بقوة أكبر: «لا لا لا
لا، الجميع عرف أنّه محتال منذ وقت الهروب. ولهذا اختاروه».
وقفت وقالت: «لماذا إذا؟»، ممسكةً بأحشائها كان عليها أن
تركض إلى المرحاض الخارجيّ في الظلام.
«أنت ذاهبة الآن!»، ضارباً أرجل الكرسيّ الأربع على الأرض
وضارباً يديه ببعضهما قائلاً: «ابدئي بالتفكير كمراسلة صحافيّة
وفكري بالطرف الذي تنتمين إليه أيضاً. لماذا أنت غير راضية عن
الهراء الذي أخبروك به عن أخيك؟ بدأ بعض أصدقائي البحث
ولم يقدر أحدٌ عملهم. لقد مُنعت مقالاتهم لأنّها لم تُعدّ قابلةً
للتصديق. وتمّت إعادتهم إلى الولايات المتّحدة ومنعت عنهم
تأشيرات الدخول وإذن المرور العسكري. وجلّ ما أبهرني هو قوة

عزم العدو إن لم يكن شيء آخر، لا أستطيع أن أعد كراهيتهم لنا كراهية شخصية».

«لست إذاً من أولئك المجانين المؤمنين بنظرية المؤامرة؟»
صرخ أثناء خروجه: «تذكّري فقط، عندما يوجد دخانٌ يوجد عادةً حزمةٌ قريبةٌ من المارجوانا».

تلمّست طريقها في الظلام ولم تعرف أيها كان أسوأ، ألم معدتها أم خوفها من طلقات أحد القناصين. عندما عادت تكلموا لعدة ساعات أخرى خلال الليل، وكان فرانك متخماً بالمعلومات لدرجة أن هيلين تمتت لو كان لديها مسجل؛ لأنها لم تستطع استيعاب هذا الكمّ دفعةً واحدة. وأخيراً وقف وتمدّد: «وداعاً يا عزيزتي سأكون خارجاً في الغد في دوريةٍ لخمسَةِ أيام».

قالت: «خذني معك».

«مستحيل يا فتاتي الصغيرة». ثم مال مقترباً إلى أذن هيلين. وشمّت رائحة التشيلي والجة من أنفاسه: «يريدونك أن تكوني جزءاً من فيلمهم السينمائي، لا تنسي ذلك أبداً».

احمرّ وجهها، فقد كانت الفتاة التي تملك نسخةً من كتاب (الأمريكي الهادئ) تحت سريرها وقالت: «أرجوك اسمح لي بالذهاب معك».

ذهب إلى زاوية من الغرفة وعادة بسوار مطرّز صغير، وطلب منها أن تمتدّ معصمها: «خذي هذا، إنه من الناس الطيبين في المزارع، لقد أصبحت واحدةً منّا الآن».

«هذا يعني أنك ترفض اصطحابي».

«هل أستطيع أن أطلب منك معروفاً؟ هل تسمحين أن أستنشق رائحة شعرك؟» قال فرانك.

أومات بهمساتٍ خفيفةٍ وأحست بقبلةٍ خاطفةٍ على خدّها.

«أريد أن أعرف ما يحدث فعلاً».

استنشق رائحة شعرها بعمق: «أعشق الشعر الجميل». تنهد وقال: «لن أعترف أنني أخبرتك بذلك، هديتي الصغيرة لك لتنامي جيداً الليلة. لم أعرف أخاك لكئي كنت أعرف أن وحدة (واغنر) كانت تذهب لتغتال بعض شيوخ القبائل المحليين عند حدود لاوس. لقد تم إسقاطهم في حفرة الطين هذه ولم يعرفوا أن المنطقة الجافة على الخريطة أصبحت بحيرة في الوقت الخاطئ من السنة، وكانت ثقيلة وسميكة كالزمال المتحركة، وكانت صدمة لهم عندما بدأت النيران تطلق عليهم فأدركوا أنه كمين وأنهم ضحايا سهلة، وكان قد تم إنزال الوحدة بأكملها من الطائرة وهم يبكون من العار، مهازل كهذه لا تحدث معنا».

قالت: «خذني معك غداً».

«لن أخبر أحداً، سأصحو في الساعة الخامسة».

لكنها عندما صحت في الساعة الخامسة في الصباح التالي كان ماك كري قد غادر مسبقاً.

سألت محاولة ألا تظهر خيبتها: «بماذا هو متورط إذا؟».

أجاب أحد الجنود ضاحكاً: «الأفضل أن تسألي بماذا هو غير متورط؟ فرانك وأساليبه».

أعطت الجندي إحدى كاميرات (اللايكا) الخاصة بها وقالت: «أخبره أنه مدين لي، أخبره أن يستخدمها ويعود إلي بالصور».

كان فرانك على حق من جهة واحدة. لقد حررتها معرفة معلومات عن موت مايكل كأسوأ حقيقة تمر بها. مع أن الأمر كان مرعباً كأني شيء يمكن أن تتخيله، لم تضطر أن تتخيل ما الذي يمكن أن يحدث بعد ذلك، لكن كانت لا تزال غير راغبة في الرحيل مثل ذي قبل، فاللغز الذي جعل رجالاً مثل

مايكل ماك كري يرغبون بالمخاطرة بكل شيء كان أكبر من موت مايكل.

ركبت مع طياري المروحية عالياً فوق أراضي الدلتا جنوب سايفون وهي تتبع حقول الأرز اللانهائية التي كانت تنعكس عليهم من فوق كأجزاء مرآة مكسورة. الخضرة باهتة اللون للأدغال المخنوقة، والأوتار الممتدة للأشجار الاستوائية عند المستنقعات التي يتعكس لونها مع اللون الأخضر الفاتح لنباتات الأرز الجديدة، وتبين بكاره تلك الأراضي وجود علامات على ندرة البشر والتجمعات الصغيرة للسقوف المبنية بالقش، وبعض الأسقف المبنية بالقرميد الأحمر. بدت الأرض من فوق فارغة وتنعم بالسلام والفلاحون كانوا منحنيين في الحقول والبساتين.

جلست مثل سائحة محاطة بالأنهار التي تتحرك ببطء ويكثافة كالعروق التي تنبض بالحياة في الأراضي التي من حولها، أستعبدتها تلك الأنهار ذات اللون البني الأحمر أو الأخضر المأسخ.

شعرت بالأمان وهي تنظر من مكان عال يحميها معدن الطائرة وسرعة تحركها وثقتها بالطيارين الذين يقودونها والذين طمأنئتها ثقتهم بأنفسهم. العديد منهم كان بعمرها وبعضهم بعمر أخيها.

خرجت في جولات روتينية عديدة ومن دون عقود. حقيقة الحرب في كل من القتال والتصوير، هناك كانت امتدادات عظيمة للأشياء، الملل وبقاء شيء واحد فقط للتفكير به وهو الأرض نفسها التي أحضرتهم إلى هنا. ظلت لفترة ما راضية بالتواصل مع اللغز يحيرها. لكن حالما استراحت إلى حقيقة عدم حدوث شيء مهم، بدأ الفضول يلح عليها مرة ثانية.

في كل مهمة كانت تسأل الجنود عما رأوه في فيتنام، وكانت أجوبتهم تصدمها بشكل غريب.

في الأغلب كانت عوالمهم مغلقة بالقبو والسلك المحيط بهم وكانوا محدودين بكماليات حصص الطعام والمياه الغازية والسجائر. يعيشون في عالم محدود بأسلحتهم وآلياتهم وسلسلة الأوامر. لذا طبقاً للمنطق الأساسي لم يكن مهماً في أي بلد يقاتلون، كانوا محصنين ضد كل شيء إلا الحقائق الأساسية للتضاريس والطقس. لم تكن فيتنام غامضة بالنسبة لهم ولا بالنسبة للأرض أو التاريخ أو الوجوه الصفراء. لم يكن اكتشاف سر المكان شيئاً أساسياً. واللغز الذي يربطهم هو حفاظهم على حياتهم في ذاك المكان، وجمال وغموض المعركة والفضل اللامع للموت. كانت فيتنام بالنسبة لهم بشكل أو بآخر مثل الأشياء التي يشترونها في أوقات الاسترخاء والراحة في بارات وشوارع سايفون ودانانغ.

كانت الأمور تُختتم بشكل عام وكأنها سر لا يستحق الكشف عنه. استنتجت هيلين في نهاية الأمر أن المجيء إلى فيتنام كان أفضل شيء حدث لها.

أول مرة ركبت هيلين فيها آلية حربية كانت جالسة خلف حامل البندقية عند الباب المفتوح لجسم الطائرة والريح تعوي كإعصار في داخل السفينة بينما أخذوا بالهبوط بشكل حلزوني. أمسكت بالجدران الشبكية كي لا تسقط، لكن الشجاعة التي اكتسبتها من رحلات النقل كانت كلها قد تبخرت. لقد قامت بعمل صفقات. إنها لو خرجت سالمة من تلك الرحلة فستكون نهاية وجودها هناك وستعود للوطن، أو على الأقل ستبقى في سايفون وتغطي حملات التطعيم.

أشار حامل البندقية بيده الكبيرة المغطاة بقفاز إلى الأسفل،
ورأت عدواً مقاتلاً يظهر من بين خط الأشجار. انحنى على
ركبة واحدة وصوب سلاحه الرشاش المتحرك إلى طائرتهم.
سيكون الأمر معجزاً لو استطاع إنزال مروحيته في مواجهة
ذاك السلاح. لم تستطع هيلين سماع صوت الطلقات لكن ظهر
في طرفي الطائرة فتحات بحجم دوائر صغيرة، وتركت فراغات
لشظايا ضوء الشمس وقد بدت كعيون غاضبة. لقد نجح في
إصابتهم.

بعد أشهر من السماع عن قدرة المروغة عند العدو، بدا
ذاك الرجل الذي يرتدي بيجامة سوداء وكأنه لا يرقى إلى ذاك
المستوى. ومع أنه كان يحاول قتلهم شعرت هيلين بالخوف عليه
أكثر؛ خوف كان يسري في غريزتها لعدم تكافؤ المعركة.

كان الرجل وحيداً مقرصاً داخل العشب الطويل المحترق
والظلال الممتدة للمروحية الحربية تمر فوقه.

صورته هيلين وهو يصوب النار نحوهم بينما أطلق الرجل
رصا صاته. كانوا تقريباً فوق الرجل لذا أجبرته قوة الطلقات
الأولى على القفز جيئةً وذهاباً كالريح. استمرت هيلين بالتقاط
الصور حتى انتهى الفيلم الذي بحوزتها. بينما جلست على
الأرض لتضع فيلماً آخر ويدها ترتجفان بشكل سيئ لدرجة
أنها واجهت صعوبة في فتح غطاء الكاميرا، ثم تلاشى الرجل
إلى أشلاء بعد انهماك الرصاص عليه.

عندما خرجت من الطائرة بعد وصولهم المطار كان صوت
الطنين يملأ أذنيها من أثر أصوات المحركات فرفع الطيار إبهامه
مشجعاً إيّاها ودعاها لتناول الجعة. كان يملك عيوناً ناعمة
ورطبة وقال إن جمال البلد جعل العنف بشكل خاص رهيباً كجرح

وجه امرأة جميلة. جلست في نادي الضباط وقد يبسها الخوف والعرق. واستمعت إلى الطيار يتحدث عن حبيبته التي تركها خلفه في الوطن متمنياً أن يحظى بعمل في الخطوط الجوية بعد انتهاء خدمته. لم يتحدث أيّ منهما عن تعرضهما لإطلاق النار وعن العدو المقتول، ثم أخذ يستكمل كتابته في التقرير العسكري. لم تفهم هيلين بعد أن أمر استحضار المستقبل كان واجب الأحياء وما كانوا مدينين به للأومات.

كذبت على نفسها وأخلت بوعودها أن تعود للوطن أو على الأقل أن تبقى في سايفون بعد الرحلة؛ لأنّ الحدث كلّ كان سريالياً يفوق الواقعية وغير متزن، لأنّ الصّور كانت بعيدة جداً عن الرّجل وأظهرت الرّعب بشكل مصغّر كان يحمل معنى فقط عندما يتم شرح الأمور. لم يكن بإمكان الصّور أن تكون مزيّنة للقصة أو دليلاً عليها. كان يجب أن تبين تلك الصّور القصة داخل إطارها، احتوت أفضل صورة على حرب كاملة داخل إطار واحد.

أصبحت ترسانتها من المؤن حامية لها. كانت تتفقد كلّ غرض من أغراضها ثلاث مرّات؛ لأنّها اعتقدت أنّها من كان يحميها ويبقيها آمنة إذا فقدت أيّاً من تلك الأغراض. حملت كاميرتين من نوع (لايكا) بحمّالات متقاطعة على كتفيها وحملت ثلاث عدسات بمقاسات 28 و35 و90 ميليمتر كانت قد اشترتها جميعاً من السّوق السّوداء، وحملت أيضاً أزياءها والأحذية الطّويلة المصنوعة من القماش. كانت آنوك قد أخذتها للتسوق ثم لتناول الغداء، كأنّ ذلك كان أكثر الأشياء طبيعياً في العالم ألا وهو الانغماس في التسوق في أيام الحرب، كان سخيفاً ومريحاً.

حملت حقيبة فيلم عندما استقلت المروحية لكن في الميدان كانت تُلصق لضافات الأفلام إلى أربطة الكاميرا، قَدَّرت الوزن بالأوقية ولم تحسب حمل الوزن الإضافي للسلاح. والثنازل الوحيد الذي قامت به لغرورها كان ارتداء أقراط أذنيها اللؤلؤيتين.

بعد أسبوعين فقط من اللقاء وصلها خبر عن مقتل ماك كري وشعرت بحزن لا يتناسب مع الفترة التي عرفتة فيها. ربما كان ذاك أجله. لكنه ذكَّرها بجيل والدها. كان واضحاً أن لديهما أعمالاً غير منتهية مع بعضهما.

الطيار الذي قدَّمها إليه سلَّمها حقيبة كان قد تركها لها ماك كري وكان فيها كاميرا وسكين من نوع (كابار) في غمد جبلي مطرز. أخذت الكاميرا إلى غاري وسألته إن كان بإمكانه مساعدتها في عرض الفيلم.

كانت هناك لقطة واحدة وبقيّة الفيلم فارغة، وقد كانت لمولود حديث لا يزال ملطّخاً بالدم والسائل المخاطي والحبلى السريّ مقطوع بيدين بيضاوين كبيرتين. وفي الخلف دون تركيز عليها هناك امرأة مستلقية على الأرض. هل هي الأم بدت تنعم بالسلام، بدت نائمة، لكنها كانت صورة مقلقة. أي أيد تلك؟ ولماذا يحدث ذلك في الخارج؟

قال غاري: «دعيني أشتريها».

«إنها ليست لي لأبيعها».

مشيت مع روبرت بجانب أكشاك الكتب في سايفون وأخبرته عن موت ماك كراي فعبس. مرّ بجانبها شاب مدنيّ أمريكيّ وحيّا روبرت. قال: «اعذريني للحظة». وقف الرجلان جانباً وتحدّثا بهدوء ورأساهما منحنيتان.

تحركت هيلين باتجاه الكتب متسائلة عن صحة وحقيقة الشائعات التي تقول: إن روبرت ينقل معلومات إلى وكالة المخابرات المركزية في أمريكا. ربما كان ذلك بسبب مشاعرها المجروحة بسبب اهتمامه المتراجع بها، والذي كان لا بأس به، فما كان يفعله كان شأنه الخاص، لكنها لم تحب أن يعكّر مهنة المراسل الصحفي. كانت الطاولة متراكمة بأغلفة كتب ورقية معالجة باللغة الإنجليزية والكثير منها كان فيها صفحات ملتصقة ببعضها و متموجة بسبب الرطوبة. فتحت كتاباً وهو (الكبرياء والتحيز) لـ (جين أوستن) حيث كانت صفحاته هشة ومصفرة. التناقض الذي أتى من قراءة (جين أوستن) في فيتنام جعلها تبتسم. «خمس سنتات» صاح الولد من خلف الطاولة. فأومات وأعطته النقود.

بعد عدة دقائق عاد روبرت وبدأ عليه السرور بشكل واضح لكنه لم يقدم أي شرح عن هوية الرجل. كان يمكن أن يكون مخبراً لديه، «لم أكن أعلم حتى إن كان ماك كراي لا يزال موجوداً، لقد أصبح معادياً لجيش فيتنام الجنوبي. ضدنا. لقد نسي إلى جانب من كان ينتمي، وأصر على العيش والأكل والنوم هناك مع الناس القبليين».

«أليس ذلك ما يفترض أن تفعله القوات الخاصة؟».

قال روبرت: «انسي أمر ماك كراي. لقد كان عجوزاً مجنوناً مع أنه كان يعرف أفضل منا كيف يريح الحرب».

قالت هيلين وهي تمتحن كلماتها مدركة أنها حقيقية: «لقد وثقت به، هو الذي أتيت لأبحث عنه».

كانت هناك رسالة في الفندق تخبرها أين تذهب لتستقل وسيلة نقل وتصل إلى قرية صغيرة حيث تقام جنازة ماك كراي.

منذ أن كان يعمل في منطقة رسمية خارج حدود الولايات المتحدة كان موته وجنازته متكئاً عليهما. لم تكن لتدعو روبرت، لقد أمتها المسافة الجديدة بينهما. أسرارها الخاصة له والآن أسرارها هي.

في وقت بداية مراسم التابين كان قد حل الظلام على القرية. هطل المطر على السطح القصديري للمدرسة المفتوحة. ثقت السقف المعدني سهسة متواصلة وعالية أصابت هيلين بالإحباط. انتظرت في الغرفة الرطبة البالية على مقعد خشن محدقة بالكفن المحاط بالشموع والمصنوع من خشب الصنوبر العادي. امتدت دائرة اللهب فقط إلى حيث أوراق الموز اللامعة التي ازدحمت لتشكّل جداراً في الغرفة. كان قد طلب منها أن تحضر نسخة من صورته الأخيرة بنسخة من مقاس ثمانية عشرة للمولود الجديد وضعتها بجانب الكفن. كان الجرح في داخلها شيئاً لا يقبله العقل، ومع ذلك لم تستطع السيطرة عليه. كان ماك كراي قد قتل بأسلحة أمريكية سرقها العدو، وجاء في وصيته أنه أرد أن يدفن في القرية الصغيرة التي عاش فيها سنواته الأخيرة وأن توزع كل أمواله وممتلكاته على القرويين.

عدّة رجال أتوا فرادى ومثنى ليلقوا التحية ويقدموا الاحترام إلى المتوفى. لم يكن هؤلاء هم العسكريين الذين التقتهم حتّى الآن. فمعظمهم كانوا متقدمين في العمر مثل ماك كراي، ومثله أيضاً كانوا يرتدون ملابس جلد الثمر وقبعات سوداء خاصة بقسم النخبة، وكانت هناك شارات على القبعات الخضراء مكتوب عليها (حرروا المقموعين).

كان معظمهم مصحوبين بأشخاص فيتناميين يتحدثون اللغة الأصلية بحرية. وسمعت بعض أسماء البلدات وقواعد

الخيام المنصوبة مثل (لانغ في) و(آ لوي) و(دوك فو) و(بليي مي)، ودار الهمس من حولها بخصوص الأوامر العسكرية ومجموعة الدراسات والمراقبة في فيتنام وعلامة النشاطات السريّة. عندما أتى رجلٌ بزيّ عسكريّ يتحدث معها، كانت الكلمات الإنجليزيّة الصّدئة تتكوّن على شفّتيه بتردد، فكّرت بأبيها حينها وكيف كان سيشعر أنّه في وطنه في تلك المجموعة.

جاء صوت من خلفها جعلها تستدير. كان دارو واقفاً مع لين في المدخل يتحدثان إلى ملازم في القوّات الخاصّة. عندما رآها دارو حنى رأسه قليلاً ثمّ تقدّم وقال: «لَمْ أنت هنا؟». كان قد أمل أن يسمع خبراً عن مغادرتها عائدةً إلى كاليفورنيا. أغضبه وجودها، فعندما ترحل سيكفّ عن رغبته بها.

«أنت تتعامل مع الأمر كأنّه حريك الخاصّة. أعتقد أنّي أقحم نفسي في الجنازة؟».

تحوّل كلّ توقّعها إليه إلى كره فجأة. ولم يعجبها ابتعاد لين ليمنحهما الخصوصيّة.

حدّق دارو إلى الكفن وهو يدلك رقبتَه من الخلف. لقد وصلت هي إلى أبعد ممّا كان يظنّ. لم يستطع تخيل أنّ ماك كراي قد أصبح صديقاً لها، وكان ذلك نوعاً من عدم النّضج كان يكرهه.

«كنّا أصدقاء جيّدين». قال ذلك روبرت.

قال: «كان فرانك جزءاً من الحرس القديم. هنا آخر من تبقى من الرّجال».

أشارت إلى الغمد المطرّز على حزامها وقالت: «لقد ترك لي هذا».

لم يتخل عنها فرانك إذاً. بالطبع فقد كان إنساناً أيضاً. وقد راق له أيضاً الوجه الجميل.

«لا بدّ أنّه فكّر أنّك بحاجة للحماية».

نظرت حولها وقالت: «لقد تركت له كاميرتي». طريقة وحيدة لإنهاء الأمر. كأنه قرأ أفكارها. مدّ دارويده ووضعها على يدها. يداً غير متحيزة. تركتها ترتاح على يدها للحظة تدفّئ جلدتها ثمّ سحبتها قبل أن تعتاد عليها. كانت ستبقى أكثر قليلاً؛ لأنّ فرانك كان قد أخذ طموحاتها على محمل الجدّ فلم ترد أن تخيب ثقته بها.

أدركت هيلين مصدومة أنّها بقيت حتّى حلول عيد الميلاد، كانت عطلة مخزية وحزينة في المناطق المدارية حيث كان يتمّ تنظيم حفلة عشاء كبيرة لكلّ الصحافيين المنتشرين في البلد. وكان الوقت بعض الظّهر حاراً ومائطراً يتحوّل إلى لمسة برد خفيف مساءً ليصبح دلالة على موسم جافّ، بينما انتظرت هيلين روبرت في رواق الفندق لم تستطع أن تشعر بأنّ الليلة هي عشية الميلاد.

كانت تتمّ استضافة الحفل في إحدى الفيلات الفرنسيّة المستأجرة قرب السفارة. وعندما مشى روبرت وهيلين عابرين البوابة المحصورة بعمق في الجدران العالية المحيط بالمجمع كانت الحديقة مزدهمة بالنباتات النامية بشكل كبير وأوراق ثقيلة ريانة وأزهار مفرطة التفتح قد بدأت بالدّبول، وحبّات من ثمار المانجا والبابايا متعفّنة كانت قد سقطت على الأرض من أعلى الأشجار، كان كلّ ذلك مضاءً بآلاف الشموع الصّغيرة التي تضيء على الأرض. حيّاهم عند المدخل خدم فيتناميون يرتدون معاطف بيضاء يحملون صواني فضية محمّلة بالشّمبانيا.

كان كل مجتمع المغتربين هناك، بعضهم أحضر عائلته. والأغلبية أحضروا صديقات فيتناميات أشبه بالدمى حيث كنَّ يرتدين إِمَّا ملابس غربيّة متوهّجة وإِمَّا الكيمونو الرّزين. ضحكوا كالأطفال وتجمّدت أنوفهم عند تذوق شراب البيض. كانت هيلين قد دعت صديقتها الفرنسيّة آنوك وأحضر روبرت صديقاً له ليكون مرافقها في السّهرة. جلس الأربعة على الأرائك وشربوا شراب البيض المخلوط بشراب الروم بينما كان فرانك سيناترا يغني على المسجل. تمّ حمل شجرة صنوبر بالمروحة من منطقة (دالات) معلّقة عليها أشياء من متاجر (بي إكس) مثل علك وسجائر وأقلام حمرة وأوراق لعب.

تمّ تقديم العشاء على طاولتين طويلتين عليهما أغطية قطنيّة طويلة أشبه بالسّفن. كان حول كلّ طاولة عشرون مقعداً بينما أكل البقيّة من خدمة البوفيه مباشرة وقد وضعوا صحنونهم في أحضانهم. لحم الأضلاع والبطاطا المهروسة والبطاطا المحلاة كلّها أتت من هاواي مثقلة ومحمّلة بالحنين الكامل للماضي.

سأل أحد الموجودين على الطّاولة عن مكان دارو. قال روبرت: «ربّما في أحد الجحور في المنطقة غير العسكريّة يسكن بعض الأغذية بأعواد الكبريت». وانتشر الضحك في الطّاولة. خلال القصص ازداد الضحك. ضحك الجميع. ابتسمت هيلين ابتسامةً مشدودةً. هي لم تره منذ الجنازة. تابع روبرت: «المطري جعلنا جميعاً نبدو بصورة سيّئة. خاصّة عندما يحصل دارو على غلاف مجلّة لايف الأسبوع القادم».

عاد الضّيوف إلى غرفة المعيشة بعد تناول الحلوى. قام مراسلٌ يرتدي ملابس بابا نويل بتوزيع الهدايا وكان معظمها

زجاجات من الويسكي والبراندي. قامت هيلين لتحضر القهوة بينما دخل دارو المكان والطين متكئ على ملابسه لدرجة أن الطويات العميقة المجعدة هي فقط التي بقيت نظيفة. كان على جبهته عدة خدوش طويلة دامية وبداية كدمة بنفسجية بنية منتفخة تحت خده. كادت هيلين تضحك لأن ذلك بدا امتداداً لنكتة روبرت، رأى سخريتها فاستدار دون أن يبدي اهتماماً بها. صاح المضيف: «أين كنت يا دارو؟».

قال: «لدي شيء أعلنه». متوقفاً ليسعل في كف يده. «قتل جاك الليلة، فقد تعرضنا لكمين من دورية في سيارة جيب عند منطقة (غيا دنه)».

بعد أن تمّ إفساد المزاج العام للعطلة. وضع المضيف يده على ظهره وصب له مشروباً ثم ذهب إلى المطبخ.

قال روبرت: «لا تتوقف الحرب لفترة طويلة». قالت آنوك وهي تشرب كأس براندي كاملة دفعة واحدة: «لقد كان الأمر كذلك دوماً. أرض الحصار الدائم».

قالت هيلين: «لقد عرف جاك ذلك وقال إنه لا يهم من ندعم ولا الناس يهمهم ذلك، فلماذا نفعل ذلك؟». هي نفسها شعرت أنها محاصرة في فخ وخائفة ومرعوبة من الخروج إلى الميدان ومرعوبة أيضاً من الاستسلام والرحيل.

«لدينا الخيار فلم لا نغادر؟».

لم يتكلم أحدٌ.

قال روبرت قبل أن يذهب إلى المطبخ: «سأعود حالاً».

مالت آنوك إلى هيلين وقالت: «أهذا هو؟».

أومات هيلين.

هزت آنوك رأسها وقالت: «مسكينة يا هيلين».

كانت الأضواء مطفأة في غرفة المعيشة فتم تمرير شموع صغيرة بيضاء.

«لَيْلٌ صَامِتٌ مِنْ أَجْلِ ذِكْرِ جَاك».

نظرت هيلين إلى الوجوه حول الغرفة وإلى الديكورات المؤقتة. وشعرت أنها أقرب إلى الناس الموجودين داخل الغرفة من قريبا إلى من عرفتهم طيلة حياتها في وطنها. كان الأمر قد بدأ يتضح لتوه، وهو اختفاء الناس من حياتها. ليس فقط الناس الذين تحبهم بل الذين عرفتهم بشكل عابر وأيضا الذين عرفتهم بالشكل فقط. كان عالمها المألوف يبتعد قطعة قطعة كل يوم.

بعد التحلية قدم الناس الأعدار ليغادروا. لم يستطع أحد أن يرتد عن الأخبار أو يهملها. جاء روبرت وقال: إن عليهم العودة إلى الفندق قبل حظر التجول. أومأت هيلين متمنية أن يخرج دارو ويأخذها من جديد إلى تلك الشقة الملتوية لكن ذلك الأمر انتهى بالطبع.

أبقت هيلين الأضواء مطفأة في غرفتها بالفندق، وفتحت النافذة الصدئة بصعوبة لتدخل الهواء الجديد إلى الغرفة، كان الجميع في فيتنام يبقون النوافذ مغلقة ليمنعوا الحرارة والرطوبة والحشرات التي تأتي من الخارج. كان الصوت الوحيد بعد منتصف الليل هو صوت سيارات الشرطة تمر في الطرقات الرطبة. كان المراسلون من الذكور لا يزالون يمتعون أنفسهم داخل البارات وفي بيوت الدعارة التي أغلقت أبوابها حتى الفجر. خلعت ملابسها، وعلقت كل قطعة في مكانها بتعمد الشخص الثمل. كانت ستذهب في الصباح إلى مقاطعة (بين كات) وتغطي تقدما ستقوم به قوات مشتركة. وستأكل حصص

الطعام الخاصة بعيد الميلاد مع الجنود. أحبطها التفكير في جلوسها تحت الأشجار نصف المظلمة ذات اللون الأخضر. كانت المروحة السقفية تصدر صريراً وهي تدور في الغرفة وهي جالسة تدخن وتشرب المياه المعبأة لتوقف الدوران الذي في رأسها.

لقد اعتادت على شرب المياه بدرجة حرارة الغرفة. كانت آنوك تميز وجود الأمريكان في الغرفة بسبب إصرارهم على الحصول على الثلج. كان الثلج يصدر رنيناً داخل الكؤوس. أي شيء يساعدهم على نسيان وجود الحرارة المجنونة. كان الجيش قد تعاقد مع مصادر للتزويد بالثلج ليشبع حاجة الأمريكان المهمة لمكعبات الثلج والبوظة وأي شيء مجمد. فأصبح الفيتناميون الآن يشتهون هذه الأشياء المجمدة. كانت هيلين قد أخذت صورة بعد أخرى للأطفال الفيتناميين يأكلون البوظة، وكانت تتم طباعة هذه الصور دوماً فقد أسعدت القراء كمثال عن عملية إضفاء الصورة الحضارية على ذلك المكان.

تاقت هيلين إلى ملجأ غرفة دارو لكنها أنكرت على نفسها متعتها الترفية. كان ذلك حقيقياً فالأسرة الناعمة والطعام الغني وحتى مكعبات الثلج، كل هذه الأشياء كانت نوعاً من لعبة تمنعها من الإحساس بالأشياء. بدأ نوع من الفهم يصل إليها عندما جلست في مدرسة ذات سقف قصديري في جنازة ماك كراي، لكن ذلك الفهم كان سريع الزوال قبل أن تستمر فيه كثيراً. قاطعت أفكارها دقة ناعمة على الباب. وقفت بمكانها وهي تلعب بقلادتها ورأسها يفيض بالرعب.

زاد الطرق على الباب بإصرار أكبر. قفز قلبها بين أضلاعها. لو كانت الشرطة فلن يتمكن أحد

من مساعدتها حتى الصّباح. فقد كانت هناك إشاعات عن اعتقال أناس واختفائهم.

قال دارو: «إنّه أنا افتحي من فضلك».

أمسكت برداء ولطّته حول نفسها وهي تفتح الباب. كان خادم غرفتها صاحب الرّموش الطويلة مستلقياً على سجاده في آخر الزواق. سند نفسه على كوعه ونظر إليهما بابتسامة ملتوية خبيثة أظهرت أسنانه البيضاء اللامعة.

دفعها دارو إلى الدّاخل أغلق الباب.

سألته: «ما الأمر؟» لكن يديه أمسكتا بكتفيتها. كان قد أتى مباشرة من الحفلة دون أن يغيّر ملابسه، وجلده لا يزال ملطّخاً بالطّين والعرق وذقنه غير محلوق.

في حميميتهم الأولى لا شيء، كان ذلك اعتيادياً في وقت الحرب وهو هذا النوع من اللّقاءات بين النّاس للهروب من الخوف لكنهما الآن دخلا مكاناً خاصاً بهما غير مرئي ولا يمكن وصفه. فكلما تّ مثل الرّنا كانت صغيرة ولا معنى لها مقارنة بما كان بينهما. عندما استيقظت فجراً كانت غرفتها فارغة.

أصبح ذلك طقسهما، وهو وصوله إلى الغرفة ليلاً أحياناً لممارسة الحبّ وأحياناً أخرى للنّوم فقط.

لا وعود، فعندما كانت لا تسمع منه أو عنه لعدة أسابيع لم يعد الأمر يزعجها. لقد فهمت، كانت الحرب تستهلك الجميع. تمّ إفراغ حقائبها أخيراً من قبل خادم الغرفة الذي حمل الحقائب الفارغة إلى المخزن.

أحياناً كان يتبدل فيها متناهي الصّغر، شيء ضعيف كجذر شعرة ممتدّ في الثّربة، كمرسى لنبته مغروسة، فلم تعد فكرة الرحيل واردة بعد ذلك.

(6)

(ها)

(التحضر، التغير)

بعد أشهر من الأوامر العسكرية المزعجة حصلت على إذن للخروج في مهمات على الأرض للبحث والمسح. لم يكن العسكريون سعداء بوجود امرأة تنام وتقضي الليل في الميدان لكنهم خضعوا لطلبها. تعلمت فن الصراخ كما لو أنها رقيب برتبة مدرب؛ تطلق اللعنات والشتم على الضباط عندما كانوا يمنعونها من المرور مدركين أن ذلك أعطاها ميزة مفاجئة للحصول على مطالبها. عرفوا أن أية امرأة بتلك القوة تستطيع أن تخرق كل شيء بنفسها. قدموا لها اقتراحات عن المطالب والاعتراضات المتعبة للجنود بسبب النقص في خدمات الحمامات والنقص في إشباع الشهوة.

سألت هيلين: «ألا يمكن أن يكون الأمر أسوأ إن وقع ذلك النقص في نادي الضباط، أليس كذلك؟».

انتشرت الضحكات بين الجنود وتم السماح لها بما أرادت. كانت تلك أيضاً خدعة خدعت بها نفسها، مع علمها بأنها إذا نجحت فسيكون الأمر مُهيناً لها إذا تراجعت عن الذهاب. في البداية ومع جذّة التجربة كانت هناك حالة هياج وشلل للأعصاب

لا يمكن إنكارها. لكن حتى مع ذلك لم يتوقف الخوف. وأصعب شيء كان إعطاء معنى لشيء بدا لا معنى له.

استيقظت في الساعة الثالثة صباحاً، وبعد ساعتين كانت على متن مروحية مجلجلة في الظلام. تم إنزالهم في منطقة (فونغ دنه) في الضوء الملتفح لوقت ما قبل الفجر. منطقة عدوانية معروفة كما تحولت معظم مناطق الزيف، أصرت القوات الفيتنامية الجنوبية على الطيران في اليوم التالي مباشرة إلى القرية ليعتبروا للأمريكان حرية الحركة في المنطقة المحيطة.

كان الضباط غير راضين عن اصطحابها؛ لذلك عرفت أنه إذا لم تستطع اللحاق بالجولة فسيستخدمون ذلك كعذر لإعادتها. الطريقة الوحيدة التي تمكنت بها من اللحاق بالجولة في الحر والإرهاق الجسدي كانت تخفيف الحمل عن نفسها، فحملت زوادة اعتيادية من خمسة عشر إلى ثلاثين رطلاً. ومع أنه تم تسليمها سترة واقية من الرصاص وخوذة فقد تجنبت ارتداءهما في الميدان. جلست على السترة الواقية في المروحية كما فعل الرجال لكنها تركتها وراءها بعد ذلك. ضحك الجنود لأنها كانت تحاول التفوق عليهم بطريقة الممثل (جون واين). كان القائد المسؤول عن المهمة سويدياً بعمر ستة وعشرين عاماً من جنوب داكوتا واسمه سفين أولسن. كان ممتلئ الجسم ولديه عضلات، وفك شبيه بفك كلب (البولدوغ)، وابتسامة كانت تلمع وتذهب بسرعة. كانت عيناه هادئتين باللون الأزرق الغامق الذي جعل من الصعب إظهار أفكاره.

«أكثر الأوقات خطورة بالنسبة للشبان الجدد هي المرات الأولى التي يخرجون فيها. يعرضون أنفسهم للمقتل من جراء أخطاء غبية. أبق في وسط التشكيل بجانبك فذلك أكثر الأماكن أماناً.

لا تحشر نفسك مع الشاب الذي أمامك، فإذا تعثر هو لا نحتاج إلى اثنين موتى بسعر واحد. حاول أن تمشي على خطا الشاب الذي أمامك، إذا كان هو بخير فستكون أنت بخير.

تقدّموا بصعوبة عابرين مياه الأرز الرمادية المخضبة بحرارة الدم.

تسلّقوا بعد ساعتين إلى طريق طيني وتوقّفوا ليرتاحوا ودرجة الحرارة كانت تسعين. عندما خلعت هيلين حذاءها كانت قدماها مزرقّتين وواهنتين، عليهما دائرة من العلقات السوداء التي تتغذى على كاحليها. فأخذت أدوية اليود من حقيبتها وفتحتها ووضعت جرعات على العلقات حتى سقطت. الرجل في مقدّمة الحملة أتى إليها وبدأ يحرقها بعقب سيجارته.

كان أولسن قد أعطاهما كتيباً يبيّن لها كنه المواد المتفجرة لتكون على حذر منها.

دفنت هيلين وجهها في الكتيب حتى لا تركز عينيها في مشاهدة العلقات تتقلّص ويخرج منها الدخان بينما كان (صموئيل) يحرقها. قالت: «يقول هذا الكتيب إنه يجب المشي بمحاذاة الأماكن المفخّخة وتجنّبها».

توقّف صموئيل وأخذ سحبة من سيجارته قبل أن يبدأ بحرق العلقات من جديد: «علينا إذاً أن نستأنف حملتنا في (وايومنغ)؛ لأنّ هذه المنطقة القذرة مليئة بهذه الأشياء».

كان له وجه واسع بريء لغربيّ متوسط العمر لكنّ عينية ذكّرتها بالرجال المتمركزين في قواعد النار لوقت طويل.

كانت ذراعه البرونزية مفتولة بالعضلات، ووشم تئين أخضر ملتفّ حول ذراعه الأمامية تحت سترته الواقية من الرصاص.

كان قد مضى على وجوده في البلد ثمانية أشهر.

قال: «تعالى إلى الأمام لبعض المتعة الحقيقية». أومات هيلين لكنها شعرت بالراحة لأنها إن حاولت التوقف فإن أولسن سيعيدها. بدؤوا بالمشي في الطريق الطيني من جديد.

شرحوا لهيلين العديد من أنواع الألفام والفخاخ المتفجرة لتكون واعية لها لكنها الآن كانت تفكر أين تضع كل خطوة من خطواتها بينما كانت تشاهد الأرض من حولها ممّا وثر أعصابها. كان عليها أن تفعل خمسة أشياء دفعة واحدة كأن تتعلم القيادة مثلاً. احتاجت أن تصبح إنسانة آليّة. وبرغم كل ما قاله أولسن لم تستطع أن تمشي خطواتها مع الشاب الذي في الأمام الذي كان طوله ستة أقدام. كان عليها التخمين المستمر سواء لما كانت تواجه صخرة مسطحة تبدو مغرية أو كومة من القذارة مكومة بشكل صناعي.

في الساعة الثامنة صباحاً كان النهار حاراً جداً لدرجة أن ملابسها كانت منقوعة والعرق يسيل إلى عينيها مجبراً إيّاها على ربط منديل حول جبهتها لتبقى الرؤية أمامها واضحة. الجندي الذي خلفها وهو (توسي) من مراتب الدرجة الأولى للقوات الخاصة أعطاها حبوباً من الملح كان يضغطها واحدة بعد الأخرى. وقد كان ذلك جزءاً آخر من الرّوادة احتاجت أن تحمله معها في حقيبتها.

قال لها: «إذا نفذت لديك حبوب الملح مضى حصاة». اقتربوا من قرية صغيرة بعد ساعة ونصف وهم يمشون بطابور واحد خلال استراحة مسيجة بالخيزران مختبئة في القرية. المساكن المبنية من القش كانت صغيرة وقذرة ومتراجعة. نظر القرويون إليهم بعيون ميّنة وأشاحوا بنظرهم بعيداً

ليتابعوا أعمالهم، كانت القوّات غير مرئية. رأت هيلين عند مرورهم مزارعاً يبدي وجهاً هادئاً عندما رأى القوّات ويصفع ابنه بقوة كبيرة لدرجة أنه صرخ بقوة.

كان الفيتناميون في الرّيف يبدون أجنب أكثر من الفيتناميين في المدن فقد كانوا أصغر حجماً وأكثر سمرّة ممّا يجعل الأمريكيين يبدون أنهم يتحرّكون في قراهم كالعمالقة الخرقاء المكروهة.

وقف توسي بجانب هيلين: «يكلّفونني دائماً بالأوضاع المؤثرة لأنهم مُزعجون دائماً».

بعد أن تمّ تفتيش القرية وتأمينها جلسوا في ظلّ شجر النّخيل الآسيويّ وسحبوا دلاءً من مياه البئر. اختلس الأولاد النّظر إليهم عند زوايا الأكواخ بينما صوّرتهم هيلين. خلع الرّجال خوذاتهم وصبّوا على أنفسهم دلاءً كاملةً من الماء. غطّت هيلين رياطها داخل الدّلو ومسحت وجهها.

فتحت علبة معدنيّة من الدّراق وأكلتها كلّها في عدّة قضمات وشربت شرابها، وساومت على علبة أخرى من علب صموئيل مقابل نصيبها من السّجائر.

بينما جهزوا أنفسهم للمغادرة مشّت امرأة فيتناميّة شابّة إلى هيلين وأعطتها قبعةً مخروطيّة الشّكل محيكةً يدويّاً. كان لها وجهٌ بيضويّ ضيق وبشرةٌ لوزيّة، أطلق الجنود صفرات بأصوات ذبّيّة عندما انحنّت هيلين وأعطتها قطعتي حلوى كانت قد وفّرتهم لتحصل على المزيد من الدّراق.

«تعالى لأحرّرك الآن يا حبيبتي».

قالت هيلين: «أخرسي». تجاهل الرّجال هيلين وعدّوها اختاً، لكن هذه المرأة كانت معادلةً لها. كانت القبعة محيكةً بشكلٍ

متقن عليها زهرة فاتحة اللون مرسومة على طرفها. انحنت الفتاة إلى الأسفل أكثر: «أنتم تخيفونها».

نهضت المرأة بسرعة وهربت. ارتدت هيلين القبعة وفاجأتها خفتها ودفئها.

لا شيء يدعو للشك، غادروا القرية بعد نصف ساعة في الساعة العاشرة وتابعوا السير على الطريق الطيني بحذاء النهر. تدمر الجنود وأتى إليها الكابتن (أولسن) أخيراً.

«لا أستطيع أن أمرك لكن الرجال يريدونك أن تخلعي تلك القبعة».

«إنها مجرد قبعة».

لم يكن هناك شك بالطريقة التي نظر إليها بها، إنه أمر لطيف. ومع تأسفها قامت بالانصياع لأمر أولسن ووضعتها إلى جانب الطريق. عندما نظرت إلى الخلف كان خط الجنود قد انحرف، كل واحد يأخذ دوره ليدوسها بأحذية خرقاء ملوثة بالطين. كانت المرة الأولى التي شعرت فيها بشيء يتراجع في داخلها وهو عدم الثقة بجنودها. عرض عليها صموئيل قبعته الكبيرة: «إن هذا جزء من الطريقة التي نهدي بها أنفسنا، لا تفهمي قلوبنا وعقولنا خطأ».

أخذت القبعة بخنوع وبعدها قطفت أقحوانة صفراء من طرف الطريق ووضعتها خلف أذنها: «هل سيتم اتهامي الآن بأني داعية سلام؟».

بعد ساعة أتوا إلى جدول صغير. عبر المزارعون إلى قوارب ضيقة أو مشوا على جسور القردة المصنوعة من أعواد الخيزران فقط. كان الجنود الأمريكيون كبيرين جداً وحملهم ثقيلاً جداً فكان من المحال العبور بالنسبة لهم. لكن (توسي) أراد

الاستعراض فأسرع يسير إلى منتصف الجسر قبل أن يسقط
إلى مياه يصل عمقها إلى مستوى الخصر.
ضحك الجميع وأطلقوا الصيحات. حتى القرويون توقفوا
وصاحوا.

كان التهريج استراحة لهم كأنهم كانوا خارجين في رحلة
لاستكشاف الطبيعة.

رمى أحد عناصر القوات الخاصة خشبة إلى أجمة صلبة
من القصب لتكون معبراً ويتمكنوا من الخوض عبر التيار
المائي. والشئ التالي كان هزة صادرة عن انفجار جعلت الجميع
ينبطحون على الأرض. وقد أقيت عليهم شظايا من الطوب
والحديد. وقصت قدمه اليسرى ومؤخرته علبة الغام متفجرة
مضغوطة واستلقى هناك وهو يصرخ في النهر وانتشر اللون
الأحمر فجأة حوله من شدة تدفق دمه.

كان الأمر غير متوقع، وكان مروّعاً كحادث مروري، وجلست
هيلين مذهولة متجمدة في مكانها. ولكن ظهرت منها ردة فعل
عكسية وحملت الكاميرا وبدأت تصوّر بينما قفز جنديان وجزوا
الآخر إلى أرض جافة.

رجلٌ فيتنامي قريب من الانفجار وقف بقطعة شظية شكلها
يشبه كتلة ثلجية مدلاة خارجة من خده.

أعطى الطبيبُ الجنديَّ حقنة مورفين وحاول أن يوقف
نزف الدم بكمادة كبيرة. تأوه الجريح وصرخ وعندما رأى
هيلين قال للطبيب: «لا أريد المرأة أن تراني هكذا». ابتعدت
عن ناظره لصدمتها، لقد خانتها شجاعته. فلم يبق هناك
شيء لفعله إلا انتظار الإخلاء الطبي، ترك الطبيب لمعالجة
الرجل الفيتنامي.

أرعبتهم جميعاً صرخات الجندي، واسترقوا النظرات إليه وهم يصلون أن تمر العاصفة بسرعة. عندما فعل المورفين فعله أعدت هيلين نفسها وذهبت إليه: «سأتركك إن أردت»، وصلت يده إليها فأمسكت بها.

قال: «هل ستلتقطين صورتي؟».

«لقد فعلت ذلك مسبقاً، والصورة التالية ستكون عندما أزورك في المشفى».

«الآن أرسلني هذه إلى أمي».

«لا نريد لأهلك أن تراك هكذا».

«أرسلها».

أمسكت هيلين بكاميرتها ومسحت عينيها لتتمكن من التركيز. نظرت مباشرة إلى العدسات، الخدود والصدر كانا منقطعين بالشظايا السوداء، ورجلٌ ممددةٌ ومنتهيةٌ بحذاء عسكريٍّ وبجانبها كان هناك شبح وجود الرجل الأخرى، ثم لف بطانية حول فخذه.

قال لها: «لا ترتعبي كثيراً، تبدين خائفة جداً وكأنها رجلك أنت، ستتجاوزين الأمر».

بدا راضياً، نظر بعيداً، وبعد عشر دقائق فارق الحياة.
«لم أعرف اسمه».

بدا الطبيب نافذ الصبر وقال: «اسمه سكانلون، الجندي سكانلون».

أومات هيلين برأسها كما لو أن الاسم قد فسر الأمر.
مشى جنديٌّ بجانبهما: «تم قتل القدر سكانلون وهذه هي القصة القذرة كلها».

تمت تغطية جسمه بالمطاط ثم رحل كما لو أنه لم يكن موجوداً أبداً وتابعوا طريقهم.

عبروا الجدول بصمت ومشوا في تلك المرة بتشكيل تام، كل منهم وحيداً بحقيقة جديدة وهي أنه إذا مات فسيكون راحلاً ومنسياً كما كان سكانلون تماماً.

كان الإحساس بالغضب الذي ملأها إحساساً جيداً فقد كان إحساسها به مثل وجبة جيدة أو شراب قوي، وكان إحساسها به أفضل من الخوف.

ملأها الغضب فلم يتمكن أي شيء آخر من الوصول إليها. خلافاً لكون الأسلحة الأمريكية المضادة للأفراد مسروقة تم استخدامها ضدهم، كما تم استخدامها ضد ماك كراي، كان عليهم الحذر من فخاخ العدو المصنوعة يدوياً والتي أظهرت عبقرية غريبة. تم إخبارها ألا تأخذ أية أشياء قيّمة مثل الكتب والقبّعات والساعات وتتجنب الولاعات والمؤن العسكرية. وأن تبعد مسافة كبيرة عن علب الجعة المعدنية غير المفتوحة، وألا تلمس الملابس العسكرية المهملة للعدو من برّات أو خوذ، وخاصة برّات الإعلام لأن العدو أدرك قيمتها التذكارية ووضع فيها الغاماً. ونبّهوها أيضاً من أن تعيقها صخور كبيرة أو جذوع أشجار سقطت على الأرض أو عريات يد مكسورة. كما قالوا لها أن تحذر من أية حركة أو ظهور غير اعتيادي عند الأسوار مثل الطّلاء أو الخضرة أو الغبار. رفض معظم الرجال استخدام المراحيض الخارجية بسبب خوف مشابه. بعد وقت قليل، حتى سُعف النخيل التي تلوح في الريح بدت كأنها سكاكين حادة كسفات الحلاقة.

عندما توقّف الرجال للاستراحة، كان موت سكانلون قد أطلق العنان لخوفهم ومروا بعدة شائعات كانوا قد سمعوا بها، ضابط جالس على نسيج طحلي أسفل شجرة يفجر نفسه إلى

مليون قطعة، ودورية تأتي إلى قبو مهجور حين تسمع البكاء المتواصل لطفل وتنزل لتتحقق من الأمر فيتم حرقها. كانت أساطير حرب غير نهائية عن عهر الأماكن المفضحة.

«هؤلاء الناس ببساطة لا يعطون للحياة قيمة مثلنا».

سمعت هيلين ذلك بشكل متكرر. وبالطبع بعد العيش في وقت الحرب لجيلين بدا الأمر صحيحاً إلى حد ما.

بدا العديد من الفيتناميين خاملين تجاه الموت الذي لا يلين والدمار الذي كان يعبث بعقول الشبان الأمريكيين.

كان من الصعب معرفة الشيء الحقيقي من المزيف. غالباً اعتمد الأمر على مسألة (إلى أي جانب تنتمي). في معظم الوقت كانت الحقيقة تقع في أرض رمادية، بين البينين. سَمَّاها الأمريكيون «حرب فيتنام»، وسَمَّاها الفيتناميون «الحرب الأمريكية»، ليميزوها عن «الحرب الفرنسية»، التي حدثت قبلها مع أنهم أشاروا إلى الحريين على أنهما «حربا الاستقلال». وجد معظم الأمريكيان الأمر مهيناً جداً؛ أن يتم ذكرهم بالتسمية نفسها مع الاستعمار الفرنسي.

توقفوا لياكلوا عند الساعة الثالثة على طرف الأدغال التي سيكون عليهم قريباً أن يعبروها. كانت الحرارة أكثر من مئة وعشر درجات فهرنهايت والرطوبة بذاك القدر تقريباً. أكل الرجال حصصهم بصمت، وكما لو أنها تاجر محترف بادلت هيلين نصيبها من علب دخان (لاكي سترايك) ومعلبات اللحم بعلب من الدراق المعلب.

نهضوا من جديد بعد نصف ساعة، لكن جنديين بقيا على الأرض يتصببان عرقاً ولون جلدهما مثل لون فاكهة غير طازجة بسبب إرهاق الحرارة. حالة إسعافية أخرى. شعرت

هيلين باضطراب في معدتها بينما أخذتهم الطائرة وطارَت بعيداً. فقد كان لديها هي حمل مسؤوليّة أن وضعها هذا هو من اختيارها هي. حمل باقي الجنود حقائبهم وبدؤوا المشي في الأدغال.

كان بإمكان هيلين المغادرة، فتلك الحملة لم تكن مبشرة بأيّة صور جديرة بالاهتمام لكنهم سمحوا لها بالمجيء وقبلوا بها فيما بينهم، وكان الأمر مشرفاً لها أن تبقى حتى النهاية. في الميدان المفتوح يأتي الخطر الرئيس من الأرض، لكن في الأدغال كان الخطر يكمن في كلّ ما هو عال. الكروم الكثيفة إذا لمست فجأة يمكن أن تتأرجح بقنبلة يدويّة في نهايتها. الخيزران الأخضر إذا تمّ التعثربه يمكن أن يضرب من أمامه بسهام ذات نقاط حادة.

تمكّنت من رؤية عدّة أقدام فقط من أمامها في أيّ اتجاه، وجعلها الخوف من الأماكن المغلقة تتوق إلى الحقول المفتوحة والطرق التي تركوها خلفهم شاكرين.

تحوّلت الأرض تحتهم إلى كتلة سائلة طينيّة من الخضرة لها رائحة خضرة حامضة مثل بركة مليئة بالطحالب. كان الكابتن أولسن خلفها ومدّ يده على جذع أخضر ضخّم وأثار فُحْ نمر من فوق. وكاد اللّوح ينهار مع المسامير الطويلة الصّديئة، لكنّ نمو الثّبتة الجديد منعه، وكان لدى أولسن الوقت لكي يبتعد عن الطريق، لكنّ حافة اللّوح خدشت مقدّمة ذراعه الأيمن. قرفصوا جميعاً في مكانهم حذراً بينما قام الطّبيب بتضميده.

فحص اللّوح المتعقّن الصّديء وعرف أنّه كان هناك منذ سنوات إن لم يكن لعقود.

قال أولسن ضاحكاً: «ربّما يوجد اسم رجل فرنسيّ عليه».

مشوا في الأدغال في السّاعة السّادسة ووجدوا أنفسهم على أرض جافّة من جديد. لم يلتقوا بأيّ جنديّ من الأعداء، ومع ذلك بدا أنّ الأرض نفسها غير مضيافة وكئيبة وأنّها هي نفسها كانت عدوّتهم وأنّها كانت تنفر من تعذيبهم عليها ممّا أرقق معنوياتهم أثناء المسير.

مشوا مسافة ربع ميل وتوقّفوا في حقل بجانب الطّريق تحت برج ماء فرنسيّ قديم. أخرج الجنود أدوات تثبيت وحضروا لبيبتوا بسبب اقتراب اللّيل. جلست هيلين وجسدها يؤلمها وعضلاتها ترتجف. كان قد اكتمل اليوم الأوّل فقط من الدورية التي مدّتها ثلاثة أيّام. جلست تدخّن سيجارة وهي عادة جديدة عليها، وشاهدت اللّيل الذهبية الذي كان يخيم على الأدغال. كان الهواء مثل المخمل مليئاً بطيّات الغبار والحشرات. كانت تسمع على مسافة بعيدة بين الحين والآخر نعيقاً حاداً لطير برّي أو عويلاً غريباً لقرد. مازحها الجنود أنّها تستطيع رمي حبة فاكهة على الأرض وتعود بعد أسبوع لترى شجرة مليئة بالفاكهة مكانها وبعد أسبوع آخر ستجد بستاناً.

شاهدوا مجموعة فلاحات عائدات إلى بيوتهنّ بينما تلاشى الضّوء إلى لون بنفسجيّ عميق، ساروا بحماس إلى أن شاهدوا الجنود في الحقل المظلم فمشوا بصمت.

قال أولسن: «حسناً يا شباب يبدو أنّنا موجودون على الخارطة الآن». فإن لم يعرف العدو مكانهم حتّى الآن فسيعرف مكانهم قريباً.

تذمّر توسي: «ألا يعرفون أنّنا هنا لإنقاذهم؟ من منكم سمع بالخوف من ناس يقومون بالإنقاذ؟».

قال صموئيل: «ربّما نسي أحدهم أن يترجم هذا للفيتناميين». تجمع أولسن، صموئيل، توسي وهيلين في الجحر غير العميق ليدخّنوا ويناموا بينما قام حرسٌ في الخارج بحراستهم حسب أدوارهم. حاولت هيلين أن تبقى متيقّظة في البداية لكنّها أخذت تكبو شيئاً فشيئاً حتّى استسلمت ونامت بعد أن بدأ المطر، مكتفيةً بسحب المعطف البلاستيكي فوقها. كان أسفل الجحر مليئاً بالماء لكنّها حمت معدّات الكاميرا داخل كيس بلاستيكي محكم الإغلاق وموضوع على معدتها.

استمتع الشباب كثيراً بحقيقة أنّها خبّأت أفلامها داخل واقيات ذكريّة.

عند الفجر الذي بدا صلباً ورطباً شربوا قهوة فاترة وأكلوا البيض ولحم الخنزير المعلّب قبل فك الخيام والتحرّك. سألتها توسي: «هل أنت بخير؟».

قالت: «أنا بخير، فقط أشعر بالبرد والرطوبة والوحل يملؤني».

أعطاهما توسي قارورة وبعض الحبوب: «ماذا؟».

«الصيدليّة مفتوحة».

أومات وابتلعتها بشكل لطيف كطفل مطيع. عند السّاعة الثّامنة عاودت الحرارة ارتفَاعها إلى أكثر من تسعين درجة. وجففت الشّمس أزياءهم العسكرية. وصلوا إلى نقطة اللّقاء وانتظروا الرّياح الشّرقية أن تأتي بالمظليّين الفيتناميّين من مجال مشترك لمدينة مؤلّفة ممّا لا يزيد عن مجموعة من الأكواخ العشبيّة. قفز المظليّون الفيتناميّون برشاقة من المروحيّات وبدوا صغاراً ونظيفين ومرتاحين مقارنةً بالجنود الأمريكيّين. كان لباسهم الموحد يبدو مناسباً وجديداً.

همس توسي: «هل تخطر لك الفكرة يوماً أننا على الجانب الخطأ؟».

قال صموئيل: «إنه مكانٌ شديد الخطورة هنا ليلاً ونحن الوحيدون الذين نمتلك قدراً كافياً من الغباء لنعرض أنفسنا للثفجير».

هرول الفيتناميون على طول السد بتشكيل تام كما في كتب التدريب. واضطر الأمريكيون أن يتحركوا بتناقل ليتمكنوا من اللحاق بهم، كما لو أنهم آباء مفرطون في محاولة حماية أولادهم.

«عذراً يا آدامز يبدو أنه لا توجد صور اليوم». قال الكابتن أولسن.

«إذا كانوا تواقين للأمر فإن ذلك يضمن عملياً أنه تم إخلاء المنطقة من الطيران، لن تحدث معارك اليوم».

عصف المظليون الفيتناميون بالمدينة الفارغة باستخدام بنادق (إم 16) ذهاباً وإياباً بطريقة متقطعة. ثم توقفوا ليقوموا بوقفات بطولية أمام مبان فارغة كأنهم كانوا يتدربون على تصوير فيلم. لم تقم هيلين بالتقاط أية صورة. قام بعض جنود جيش فيتنام الجنوبي المتحمسين والسعداء جداً بإطلاق النار على خنزير، فأفقد الضياع القوي هيلين أعصابها. أخطؤوا الحيوان المحظوظ الذي تمكن من الهروب. تراجع الأمريكيان؛ لأنهم لم يريدوا التعرض لإطلاق النار. وكما كان متوقعاً، كان المكان فارغاً إلا من بعض الكلاب الضالة والدجاج. كانت الشمس ضاربة بقوة والظل الوحيد المتوفر كان من عدة أشجار فاكهة قديمة، والأرض تحتهم كانت مليئة بثمار المانجو والبابايا المتعفنة المتناثرة هنا وهناك والتي عطرت الجو.

وقفت عدة نساء عجائز كن يهتممن بأطفالهن، وقفن بحذر في المداخل. أنزلت قوات جيش فيتنام الجنوبي أسلحتها فجأة وأعلنوا وقت الغداء، تم شراء بعض الدجاج وذبحه وطبخه على نيران مفتوحة. وقف الأمريكيون على شكل عقدة وهم يحرسون المكان وأسلحتهم جاهزة، حتى قام الكابتن أولسن بمناداتهم ليتناولوا غداءهم. ثم قام الأمريكيون بإنزال حقائبهم وفتح علب الطعام. جاء بعض الجنود الفيتناميين ليستجدوا السجائر ويتدربوا على ممارسة اللغة الإنجليزية لكن المجموعتين بقيتا منفصلتين أغلب الوقت.

تواصل الكابتن أولسن مع نظيره الفيتنامي من خلال الإشارات بالأيدي. كان الكابتن تونغ صغير الحجم ونحيلاً، أنيقاً وصعب الإرضاء وله خصلة من الشعر كانت على شاربته وسنان قاطعان ذهبيان يلمعان في الشمس عندما يبتسم.

أخذت القوات الفيتنامية قيلولة بعد الغداء استمرت لساعتين ولم يكن للجنود الأمريكيين شيء آخر يفعلونه فتمددوا في الظل بامتنان. كانت الحرارة غير محتملة وجعلت الجميع كسالى. بقي الكابتن أولسن متيقظاً مع رجال الأسلكي يتواصل مع القيادة العسكرية ويسألهم كيف يتصرفون. وجب على الأوامر أن تناسب الكابتن تونغ بأي ثمن.

شاهدت هيلين بطرف عينها رجلاً عجوزاً يرتدي بيجامة فلاح يمشي خارجاً من طرف المدينة. فتشبه الحراس ولم يجدوا شيئاً. هل أتى من الحقول أم كان يختبئ في أحد الأكواخ طوال الوقت؟ مشى إلى الساحة الشعبية الرئيسية وحدق فقط في كومة الريش وأهمل قطع الدجاج وتابع تحركه. عاد بعد عدة دقائق وبدأ الآن غاضباً يكلم نفسه بينما اقترب من القوات الفيتنامية.

استدارت هيلين حثى سمعت صراخاً بين العجوز وأحد الجنود الفيتناميين، سألت الكابتن أولسن عما يحدث.
«لا أعرف ما يقولونه لكنني أظن أن العجوز غير راض عن تبرّعه لجهود الحرب. لكننا اشتكيناً للجهات العليا عن الأمر. فتلقّينا أوامراً ألا نأخذ أي شيء غير معروض علينا. وألا نتدخل فيما يقوم به الجنود الفيتناميون وندعهم يتدبرون الأمر فيما بينهم».

حملت هيلين الكاميرا وبدأت التصوير بينما أدار الجندي ظهره للرجل العجوز. أمسك العجوز كتفه بإصرار بينما اقترب جندي آخر منهما.

تحدّث العجوز الآن بصوت أعلى للجندي الآخر وهو شديد الالتهياج ويدها تضربان ببعضهما وهو يشير إلى بقايا الدجاج عندما استدار الجندي الأول ولطمه بقوة في رجله. كان العجوز على الأرض عندما مشى إليهم الكابتن تونغ وأطلق بعض الأوامر. هز الرجل العجوز رأسه متأثراً.

اقتربت هيلين دون أن يلاحظها أحد بينما أخرج تونغ (مسدس 45).

حاول العجوز النهوض على ركبتيه والدموع في عينيه، ليس خائفاً لكنه غاضب، واستمرّ بالحديث والإشارة إلى بقايا الدجاج.

خفق قلب هيلين بشدة في صدرها وخرجت أنفاسها لاهثة وسطحية. فكّرت أنه من المحال أن يحدث هذا. تسلّلت للأمام منحنية بينما تحرّك جنود تونغ مبتعدين عنه بعد أن أحسّوا بغضبه، اقتربت لتلتقط الصورة بينما وقف تونغ بثبات ومدّ يده اليمنى إلى الأمام والمسدس مصوّب إلى رأس الرجل العجوز.

واستمرت بالتصوير وكانت متأكدة أن الأمر فقط مجرد تهديد حتى صدر صوت الانفجار المصم للأذان حيث أطلق المسدس من مدى قصير. استمرت بالتصوير ورأس العجوز مهشم مثل مجزرة ثمار بابايا ناضجة تحت الأشجار وجسمه ممدد ومفتوح على الأرض، مرمي من أثر قوة الضربة والدم يتناثر على سروال تونغ.

صرخ تونغ على الأمريكيان: «مجموعة (فيت كونغ)». تابعت هيلين تصويرها الأوتوماتيكي بفتحة (f/8) وسرعة مصراع الكاميرا 250 بالثانية. وكل شيء في داخلها مغلق تماماً، لا تحس بشيء، فقط برودة وصفاء وتقنية. لم تدرك للحظة الأولى ووجهها خلف عدسة الكاميرا ورؤيتها متقلصة، أن تونغ كان يصرخ ويضرب الأرض باتجاهها. مشى نحوها ووقف على بعد عدة أقدام منها موجهاً مسدسه مباشرة إلى جبهتها. وقعت إلى الخلف وما زالت تجلس القرفصاء وقامت بتصوير فوهة المسدس وفوقه وجهه المتجه في إطار العدسة، وقواطع الذهبية تلمع في الشمس وهي تتابع التصوير، ركض باقي الجنود وشكلوا نصف دائرة حوله للتهديد.

سمعت صوت الكابتن أولسن خلفها وقد نسيت أمره منذ مدة طويلة، كان يصرخ في الكابتن تونغ؛ كلُّ بلغة مختلفة ولا أحد منهما يفهم الآخر.

وهي ملتصقة بالكاميرا تابعت هيلين التصوير لما بدا لها وقتاً أبدياً، لكنه ربما كان أقل من دقيقة. كان الكابتن أولسن لا يزال خلفها ولا يزال يصرخ خلف رأسها، وبإشارة قام الجنود الأمريكيان بالتهوؤ وتشكيل دائرة خلفه. خطأ أولسن عدة خطوات إلى الأمام وبضربة واحدة كضربة دب أسقط المسدس

من يد تونغ. استمر الصّراخ وتابعت هيلين التصوير وهي متسمرة إلى كاميرتها والأوتار في عنق تونغ كانت متورمة ووجهه يتلون أرجوانياً. انتهى الضيلم ولا شيء أمامها تفعله إلا أن تبقى متجمدة على ركبتها وعينها على الكاميرا خائفة أن تتحرك. فإذا أزال غطاء جسم الكاميرا كانت متأكدة أنها ستلقى حتفها. وعلى مسافة بعيدة كان يمكن سماع صوت صراخ جاموس الماء، ويعني ذلك أن تونغ قد هدا وصمت. ركل الطين أمام هيلين مما أرسل الغبار طائراً إلى وجهها واستدار بعيداً. قال أولسن ممسكاً هيلين بكلتا ذراعيه وهو يجزها إلى الخلف: «هل تحاولين قتلنا جميعاً من قبل حلفائنا؟ هل جنت؟».

كل ما استطاعت التفكير به هو أنها لم تكن خائفة. كانت غير خائفة بصورة مذهلة.

«ذاك الجدّ العجوز لم يكن من مجموعة فيت كونغ». صرخ أولسن إلى رجل الاتصالات: «اطلب مروحية الآن فوراً، ستذهبين من هنا».

أثارها ما فعلته لتوها ولم تستوعب أنه سيتم إبعادها: «لم أفعل أي شيء خاطئ».

«جميعكم، تحركوا إلى الأمام».

بعيداً عن الجنود الفيتناميين وتونغ هدا أولسن من روعها وقال: «ظننت أنني سأخسر».

«ليس عدلاً أن تبعدني».

«اسمعي، إنه شخص مغرور ودنيء، لكن هذا الدنيء تابع لنا».

لقد جعلته يفقد ماء وجهه وأنا لا أستطيع أن أكفل أنهم لن يصطنعوا حادثاً صغيراً للنيل منك».

جلست هيلين على الأرض وأمسكت رأسها بيديها وفجأة كان العطش يقتلها: «هل لي ببعض الماء؟».

ضرب أولسن على فخذه وقال: «لا أريد أن يقتل رجالي وهم يحاولون الدفاع عنك».

«حسناً لا بأس، أريد الماء». فكرة الذهاب هي ضد رغبتها وتبدو سيئة أيضاً كما بدت اللحظة التي مضت، فقد كان لديها فيلم لتظهره.

«اسمعي أنت مجنونة، حسناً؟ تستطيعين العودة معي أي وقت آخر».

«سجل هذا الأمر كتابة».

قال ضاحكاً: «أعرف، أعرف أنك ستفعل».

ارتجفت هيلين على الرغم من الحرّ وجلد ذراعيها يقشعر عندما طارت المروحية عائدة إلى تان سون نهات. بدا لها الحادث مع تونغ لا يزال غير حقيقي، بسبب الإرهاق الذي أصاب الحملة، وليالي الحرمان من النوم.

كانت ملابسه مغطاة بالطّين وتصدر عنها رائحة، وشعرها مربوط على شكل ذيل الفرس، لقد كانت فخورة بنفسها.

رفع لها قائد الطّاقم إبهامه مشجعاً وأعطاه قارورة فأخذت شربة ويسكي طويلة، شربتها كالماء ولم تشعر إلا بإحساس الحرقعة في أسفل حلقها، طاروا فوق قبة الأدغال بعيداً عن الخطر وتمت هيلين ألا ينتهي القتال وألا يضطروا للعودة وملامسة الأرض من جديد.

عندما خرجت من المروحية كان روبرت ينتظرها في تاكسي: «أخبريني بكل شيء، أولسن كان قد أبلغ عن الحادثة مسبقاً عبر الرّاديو. وأنا الآن أكتب القصة بينما يتمّ تحميض الصّور.

يجب نقل الحقيبة إلى هونغ كونغ بأسرع وقت ممكن، لن يسمح الرّقباء بمرورها أبداً».

وقفت في الغرفة المظلمة التي هي بحجم خزانة وكان رأسها يصطدم بالزّفوف المليئة بزجاجات بلاستيكية تحتوي مواد كيميائية وهي تشاهد (آرني) مدير مكتب اللاسلكي يحمض الفيلم. قال إنه من المهم أن يدعها هي أو أحد المعاونين يقوم بذلك. كان (آرني) ذا بطن متخمة، وكان متزوجاً وزوجته وأولاده كانوا في لندن. كانت تشكيلة المكتب من الصحفيين المستقلين هي مجموعة أيتام غير متسقة مع بعضها. أمضى وقتاً طويلاً في شرح تقنيات ما يحدث حولها لهيلين: «هل تفهمين؟ اللعنة!». كانت الصّور على الأرجح ملتقطة وموضوعة داخل أطر، سلسلة كاملة من أهالي القرى الأحياء والأموات، وفوهة بندقية تحت وجه الكابتن تونغ الغاضب ونهاية المسدس مصوبة مباشرة إلى الكاميرا وإلى من خلفها.

ارتجفت هيلين بعد أن نظرت إلى الصّور، كان الظل غامراً كما لو أنها غمامة مرّت وحجبت ضوء الشّمس، وهو لغز كان يطاردها، إنه هو ذاته الذي لمحته في جنازة ماك كراي. الآن فهمت ما قاله لها في تلك الليلة من أن اللّغز يأتي إلى كل شخص بلغته الخاصة وعليك فكّ رموزه بنفسك. كانت مرعوبة جداً في ذلك الوقت لدرجة أنها كان يمكن أن تصاب بالعمى.

قال (آرني): «العمل تحت الضّغط سيئ جداً، هذا لا يصدّق، عملك جيد جداً لدرجة أنهم ربّما سيطردونك خارج البلد وسأفقد مصوراً واعداداً آخر».

«هل هم أكفّاء؟» كان التشنّج في جسمها يرتخي بسرعة

الآن.

«لن أصدق دون أن أراهم. لكني تكلمت مع المكتب في نيويورك فقالوا: إنهم إذا كانوا بنصف جودة ما يدعون فسيعرضون عليهم عملاً بدوام كامل في خدمة الوكالات الإخبارية».

«هل هم بنصف الجودة التي يدعونها؟»

جزء من الرعب في الأشهر الماضية كان سببها أنها غير قادرة على فعل ما جاءت لفعله، وأنها تعوزها الكفاءة اللازمة كصحافية مستقلة، كانت تستطيع البقاء في الخارج لأية فترة تحتاجها لتلتقط صورة. كان الكابتن تونغ قد تحدث لتوه بأن أفعالها غير مقصودة. الآن هل ستشعر بالضغط لكي تقوم بمخاطرات مشابهة مرة بعد أخرى؟

«هم أكفيا بنسبة مئتين بالمئة، ربما سأعطيك زيادة ثلاثين دولاراً للصورة الواحدة. لا تكوني جشعة».

عبست: «لا يستطيعون إبعادي الآن. أليس كذلك؟».

«يستطيعون. قاموا بفعل ذلك مع آخرين».

«حسناً». كان هذا كافياً الآن.

«وافقت على مشاركة هذه الصورة مع مجلة (لايف) إذا كان لا مانع لديك، بإمكانهم طباعة السلسلة كلها في عدد الأسبوع القادم، غاري غير المثقف ذاك يدفع أكثر منّا وتستطيعين الاكتفاء بما يدفعونه».

أومات هيلين دون أن تسمع وتركت الغرفة المظلمة لتجلس على الأريكة المتكئة، في تكييف الغرفة البارد، تمددت واستغرقت في نوم بلا أحلام.

التقت هيلين بروبرت في تلك الليلة عند بار الفندق. كان مذهولاً قليلاً ومسروراً قليلاً، لكنّ الخوف عليها كان معظم ما يشعر به.

كانت الطاولات مزدحمة على طول الرصيف. وكانت كهرياء المدينة قد انقطعت وتمت إضاءة الغرفة التي تطل على الشارع المغلق بمصابيح الزيت. وبعد الليلة التي قضتها تحت المطر بدت المدينة ترفاً بصورة لم تبدُ عليها أي مدينة أخرى على الإطلاق. طاف النُدل بين الطاولات حاملين مصابيح صغيرة. وبدأ كل شيء بخير بصورة نادرة. شعرت بالراحة التامة في تلك اللحظة. تلاشى خطر الحادثة مع تونغ إلى الخلفية، وكل ما تبقى كان قوتها البراقة التي لا تُقهر.

ظهرت زجاجة من الشمبانيا وخادم الحانة الفيتنامي كبير السن بردائه الأبيض يفتحها باحتفال كبير ويضعها في دلو في زاوية البار. شربت الأنخاب مع روبرت وانضم إليهما خادم الحانة بناء على إصرارها. جاء (إد) وبعض الصحفيين الآخرين وتوقفوا لتهنئتها.

أتى (مات تانر) ووقف خلفها. كان قد أصبح جندياً مارينز سابقاً مؤخراً وقام بذكر نكتة عدة مرّات مفادها أن المارينز قاموا بطرده. قالت الشائعة إنه أحبّ الحرب كثيراً وأنه جلب معه شهوته للدم ليقدّمها إلى الصحافة. كان دائماً يشعر بالمنافسة عندما كان ينجز أحد المخبّرين الآخرين عمله بشكل جيّد، كأنهم كانوا يسرقون فرصته في الوصول إلى المجد. عندما يكون غيوراً وثملاً هو الآن كان وجهه يزداد نحولاً كما لو أنه اكتسب صفة الدُّئاب.

«حيلة دعائية لطيفة لهذا الصباح. لكن ستدفعين ليلتقط هذه الصورة؟»

قال روبرت وهو يقف: «انصرف يا تانر».

«ما هذا؟ أهو ملاكٌ جميل».

«ربّما عليك أن تأخذ استراحة من أن تطأ على ظهور الآخرين
لتحصل على القصة قبل غيرك، قالت هيلين.
«من اللطيف الكلام معك». قال له روبرت: «ولأسف إنّه
عليك أن تذهب».

غمز تانر لروبرت ليقرّر إذا كان مزاجه ملائماً للشجار: «كلّ
ما أودّ معرفته من الشخص الذي اضطرّ لممارسة الجنس معه
هذه المرّة».

«لماذا؟» قالت هيلين «هل تريد الرقم ٩».

قال روبرت: «هذا يكفي».

«جميعنا نعلم أنّ هذا لم يحدث مع روبرت». قال تانر هذا
الكلام ومشى بغطرسة خارجاً من البار.

جلس روبرت على مقعد البار وأفرغ كأسه وصبّ كأساً أخرى.

قالت هيلين: «أتمنى أن تعيده قوأت المارينز إليها».

«أنا صديقك وليس من شأني أن أمرك أنت ودارو. لكن عليك
أن تكوني حذرة فـ (تانر) منافس لك، وهو ليس خائفاً مثلي من
مغادرة سايفون وحفلاتها الرّسميّة. ستشعرين بالحرقان إذا لم
تأكلي شيئاً حلواً».

«أنت ذكيّ بما فيه الكفاية. ألا تحتاج إلى لفت للانتباه».

تصلّب روبرت: «ليس عليك أن ترمي لي عظمة».

شربت هيلين كأسها ونظرت إلى القاع فلربّما تجد إجابات
هناك: «لو كنت شاباً لما قلت لي أن أقلق من الإحساس
بالحرقان».

«لو كنت شاباً لطلبت منك أن تلكميه، لكنني كنت سأخبرك
بالحقيقة، ولربّما لم أكن سأحضر زجاجة الشمبانيا هذه
أيضاً».

ضحكت هيلين فهذه التمثيلية من المغازلة الخفيفة كانت
ضرورية لكليهما: «هل بإمكانني أن أعترف بشيء؟ بيننا فقط؟
يعطيني هذا شعور جيد».

«استمتعي به، فقد استحققتَه، لكن كوني مستعدة».

«ما الذي سأستعد له؟».

«لما سيأتي بعد ذلك».

في الصباح تصدّرت صورها وقصّتها عناوين عدّة صفحات
أماميّة حول العالم. مجلة لايف اشترت السلسلة من الصور
وخطّطت أن تستخدم واحدة منها كغلاف للأسبوع القادم،
وملاحظات المساهمين وصفتها بأنّها أوّل امرأة مصوّرة للقتال
في حرب فيتنام.

نظرت إلى اسمها المطبوع بإحساس من الرّاحة. إنّها تستطيع
البقاء دون أيّ مزاح أو نكتة في الأمر. قبل سنّة أشهر لم يكن
أحد سيصدّق أنّها كانت قادرة على فعل ذلك. خلفيّتها الوحيدة
كانت حصص تصوير في المدرسة الثانويّة وبعض الأعمال
لجريدة الكلية مثل تصوير مباريات كرة القدم. وبطريقة ما، لم
تكن مؤمنة بنفسها لكنّها الآن أحسّت بشعور الانتماء إلى ناد
للرجال، حتّى لو أنّها لم تكن متأكّدة إن كان واحدٌ أرادها فيه.
ومع مرور الوقت كانت تجد نفسها عُرضة للتّجاهل والترحيب
بقدر متساو.

ثورة الأعصاب التي أصابتها لم تكن من جزاء قتل العجوز
الذي كان رُعباً متكرّراً، ولا من الدّليل أنّ جيش فيتنام الجنوبيّ
أصابه السّعار وكان يهاجم الجمع المدنيّ، ولا حتّى وجهة النّظر
أنّ أمريكا كانت تدّعم حلفاء مشكوكاً بأمرهم. متعتها بدأت
بالتّلاشي عندما أدركت أنّهم استخدموا قصّة الكابتن تونغ

وكيف هدد امرأة مصورة مواطنة مدنية أمريكية. ولكونها امرأة كان هو أساس القصة.

اعترضت حكومة فيتنام الجنوبية على الفور إلى السفارة الأمريكية قائلة: إنه تم تزيف الحادث. أنكر الكابتن تونغ قصة هيلين وقال عنها إنها جاسوسة، مع أنه لم يستطع أن يشرح لماذا كان الأمريكيان يشوهون سمعة حلفائهم، لكن الصور وشهادة الكابتن أولسن كانوا بمنزلة تأكيد وافر. تم إجهاض مهمة الرفاق لأن الدعاية نبهت قوات الغوريلا الفيتنامية بتحركاتهم. هناها أولسن وقال: إنه احتفل مع الرفاق بشرب البراندي والسجائر في قاعدة المخيم الآمنة. كان هناك حركة في طريقها تهدف لتسمية منطقة إنزال باسمها وليس اسم جائزة سكانلون.

رفضت في تلك الليلة دعوة روبرت للغداء مع الشباب وأمضت أمسياتها تمشي وحيدة في شوارع سايفون. الشعور العالي بالأدريين من الأحداث التي حصلت تحول الآن إلى هبوط الثوتر. أثبتت لنفسها ما عرفت من قبل أنه تحت الظروف الصحيحة بإمكانها أن تكون شجاعة. وتلك هدية غير معروفة، غريبة وعشوائية مثل القدرة على العزف على آلة أو القدرة على لعب رياضة ما. لكن ذكرى الرجل العجوز سممتها.

رأسه الأصلع، عيونه المتبلدة الغامقة والأرجل النحيلة المعضلة المفلطحة. أحست بالذنب أنه كان خارج قريته، كانت الوحيدة التي حزنّت على موته، كانت فكرة متعجرفة ربما، لكنه دخل إلى حقل الإحصاءات مسبقاً. ربما كان الوقت مناسباً للمغادرة الليلة وحالاً دون أي وداع.

استطاعت أن ترى قدرة الحرب على التأثير فيها. ولم يكن هناك أية طريقة ليخرج الحادث بصورة أفضل مما خرج عليه،

ولكن كان هناك طرقٌ كثيرةٌ كفيلاً بأن تجعله يخرج بطريقة أسوأ.

أغلق حلاقو الطريق محالهم على طول الأرصفة تاركين المرايا والزفوف معلقة خارج جدران المبنى. جعلت رائحة الطعام معدتها تدمدم فهي لم تأكل منذ الفطور.

توقفت بشكل أخرق عند كشك للحساء وأشارت إلى ما أرادته. ابتسم العجوز وسرعان ما تجمهر حشدٌ كبيرٌ ليشاهدها ضاحكين لرؤية امرأة غريبة تقرفص على الطريق وتاكل بالعيدان وملعقة مثل المغرفة. حذرت كتيبات الصحة الرسمية من طعام الشارع لكن هيلين كانت متعبة من إطاعة القواعد ومن كونها مرعوبة. كانت هذه الليلة محصنة. ارتشفت الحساء بالطريقة نفسها التي كان يقوم بها الرجل الفيتنامي إلى جانبها.

بعد أن أنهت حساءها نهضت على تصفيق عدة فيتناميين حولها وهم معجبون بأنها أنهت الحساء كله، فانحنت ومشت عائدة إلى الفندق.

كان المقال الأساسي عن الكابتن تونغ وعن مقتل سكانلون عند نفق تحت الموقع بينما كان خارجاً في الحملة التي ذكرت مصادفة فقط، لم يكن موته يستحق أن يكون بين الأخبار في وقت الحرب، لكن موته بالطبع كان الشيء الوحيد المهم في ذلك اليوم. أما موت القروي المسن فكان مأساة أخرى لا تستحق الذكر. واست نفسها بفكرة أن الصور حية ونابضة بما فيه الكفاية لتهز الناس وتوقفهم عن الرضى عما يحدث حولهم، كان ذلك يعني أن الحرب ستنتهي بشكل أسرع، وأن حادثتي الموت اللتين وقعتا لم تذهبا سدى. تمت بثقة تقل يوماً بعد يوم أن موت مايكل لن يذهب سدى، هناك الكثير من الموت الضائع الذي لا يمكن تحمله.

لم تغادر فكرها كلمات ماك كراي: (يريدونك أن تكوني جزءاً من فيلمهم لا تنسي ذلك أبداً). طاردها علم الغيب الخاص بهم، وإذا كان هناك أي أحد احتاجت للكلام معه تلك الليلة كان هو. من المناسب أنه تحوّل إلى شبح الآن. وكان أي نصر تحسّ به منقوصاً بسبب أن صورها ستُستخدم لأغراض لم تكن في نيّتها. تخيلت وجه ماك كراي عبر الطاولة في تلك الليلة. كانت صورة أكثر إظلاماً. هل سيسمح تشويه سمعة جيش فيتنام الجنوبي بإحضار المزيد من الجنود الأمريكيين؟

التأثير الوحيد الملموس لصورها كان عدد الطلبات التي أتت لتغطية حركات هيلين نفسها. أرادت فرق تصوير من الولايات المتحدة أن تخرج وتصورها وهي تصوّر الحرب. إذا سمحت لذلك بالحدوث فمن الأفضل لها العودة إلى الوطن لأنها ستثير مشهداً للفرجة. خطيئة الصحفي الأساسية هي أن يتحوّل هو إلى مركز القصة. أخرجها الأمر وجعلت (آرني) يرفض طلبات الجميع. ثمّ أتاها عرض من مجلة لم تستطع رفضه وهو أن تنضمّ إلى طاقم التصوير.

عندما حصل (آرني) أخيراً على تصريح ليعرض عليها عملاً بدوام كامل بخدمات الشبكات اللاسلكية، احمرّ وجهها وقالت: «غاري قدّم لي مسبقاً عرضاً كبيراً».

«نعم ظننت ذلك. جيّد. هذا غير مهمّ هنا».

«سأفتقدك».

قال (آرني): «لا، لا، عليك العثور على جندي جيّد لتتزوجيه». تعلّم على مرّ السنين أن لكلّ صحفي أسبابه الخاصة والمحدّدة التي توضح أسباب ذهابه إلى ميدان المعركة. وظنّ أن سببها كان مناسباً مثل أسباب الجميع.

طلبت أن تكون مهمتها الأولى تغطية منطقة (هايلاندز) المركزية ومنطقة (آي كوريس) التي تتبع لوحدة القوات الخاصة التي كان يعمل فيها أخوها.

تجاهلها غاري قصداً وأدركت أن ذلك هو ثمن أن يتم شراؤها. عندما نظفت أسنانها في تلك الليلة لتجهز نفسها للفرار سمعت طقطقة خفيفة على الباب. خفق قلبها وعادت إليها كل المشاعر التي مرّت بها طوال الأسبوع متمنية أن يكون دارو. فتحت الباب بقميصها الداخلي، لكنّ لين كان واقفاً هناك.

«هل أيقظتك؟» قال جافلاً لرؤيتها دون ملابس.

«لا لا، هل كل شيء بخير؟» سألت هيلين وهي تنظر خلفه. «سأعمل لديك الآن».

«ماذا؟ ماذا تعني؟».

«طلب مني سام أن أعطيك هذا». سلّمها لين ظرفاً.

«ادخل، اجلس» أشارت له إلى كرسيّ وفتحت المغلف.

إلى هيلين التي أطلقت ألف سفينة. مبارك. مع أنك صدمتني بوجودك على غلاف المجلة، وكدت تعرّضين نفسك للقتل في تلك المقامرة. وبما أنك قرّرت أن تلعب لعبة الرجال، اقبلي مني على الأقلّ حارساً لحياتك، وهو لين، سيكون ذا قيمة كبيرة بالنسبة لك. مع حبي. دارو.

وقف لين إلى جانب النافذة وهو يحدّق إلى الخارج. عندما تكلمت معه أبقى وجهه بعيداً وظنّت أن قميصها الداخلي أخرجها فلبست رداءً ولكنّه حافظ على تأمله.

سألته: «ما شعورك حيال هذا؟».

«من المهمّ بالنسبة لسام أن أعمل معك. أتمنى أن تكوني قويّة. ستكون هذه حرباً طويلة».

(7)
(هوى تشانه)
(الفارون)

بعد أسبوع من الغداء الذي كان قد تمّ فيه تقديم (لين) لهيلين للمرة الأولى، ذهب لين إلى غرفة دارو الفندقية وفوجئ برؤية صورتها على قمة صور مطبوعة. لم يختلط دارو كأصدقائه الصحفيين بفتيات الباربات الفيتناميات في النوادي العديدة. عرف لين عدّة نساء مواطنات بمن فيهنّ تلك المرأة من كمبوديا، ولكن لم يكن لديه صديقة بشكل واضح.

ربّما فضّل دارو النساء الغربيات، لكنّ لين ألذي كان هناك شاهد عدداً لا بأس به من النساء يحاولنّ لفت انتباهه دون أيّ نجاح. هل كان يحاول البقاء مخلصاً لزوجته في أمريكا؟ لم يتكلّم أبداً عنها بالطريقة التي يتحدث بها رجلٌ عن امرأة يحبّها. ولكن حتّى لين نفسه لم يتكلّم عن (ماي) حتّى رحيلها. ما الذي جعل صورة مصوّة جميلة أكثر إفضالاً من انفجار واحد على أرض قاع نهر عطشى.

تفحص لين الصورة عن قرب أكثر، ورأى أنّها كانت ترتدي سترة واقية من الرصاص وسروال تمويه، حيث بدا النخيل خلفها، كانت أوراق نخيل مسقية بالماء. لم يذكر دارو الخروج

معها في أية مهمة، وأحسّ لين بضربة خيانة لحذفه من تلك المهمة. لقد أصبح تملكياً عندما يتعلق الأمر بصحبة دارو وأسراره.

قال دارو وهو يدير وجهه وقد بدا عليه الغضب من انتباه لين وضرورة اضطراره لشرح أسبابه له: «أتذكر تلك الصحافية المستقلة من الولايات المتحدة؟»،
«صحافية مذهلة جداً».

«أنت محق. عليّ تصويب خطئي. فانا أكسر قواعدني الخاصة. الجميع يميز بفترات الشعور بالوحدة حتى سام دارو العظيم نفسه».

«لا تجعلني أشعر بشعور أسوأ مما أشعر به».

ارتجف لين وأجبر نفسه أخيراً على النظر بعيداً عن الصورة. كره حقيقة أنه أجبره على ذلك الاعتراف. كان يتحوّل إلى شخص يتصنع الحياء. وكان دارو أنقذه من أخفض نقاط وصل إليها وكان عازماً على ردّ صنيعه اللطيف.

في المرة الثالثة التي رآها فيها لين كانت تقفز إلى الحياة من تلك الصورة وهي تمشي إلى غرفة دارو الفندقية. وعندما صافحته عرفت أنها معمة بسبب معاملة دارو القاسية. كان دارو يكسر قلبها الصغير وكان لين يهرب من تلك المذبحة.

في بار الفندق وقف يشرب شراب (سترون بريسي) وسأل (توان) خادم البار الذي كان رجلاً كبير السن من منطقة هيو عن ابنه الأكبر الذي انضم إلى جيش سايفون. اشتكى توان من غلاء الرشوة التي تضاعفت عن العام الماضي وهو يضطرّ لدفعها ليحصل على عمل مكتبي آمن. تخيل لين طوال المحادثة وجود دارو وهيلين فوق وهما يناقشان طريقة

لحبّهما. مع أنّه رأى وعانى الكثير لم يرهما طائشين. في الحقيقة رأى الأمر يدعو للتفاؤل لأنّه في وسط الحرب لا يزال الناس يفكرون بتلك الأشياء. الا يعني ذلك أنّه يمكن للعالم أن يشفى؟

مع أنّ لين أخذ وقتاً طويلاً في إنهاء شرابه لكنّه عاد مبكراً جداً، ورأى هيلين مثل ملاك ييكي وحيداً في الزواق. كشاب صغير، قام بدراسة وافية لكلّ الأساطير الفيتناميّة وكان الملاك غالباً سمة أساسيّة في قصّة البطل. والذي هربت البطلة عندما راته.

مرّت شهوّر ولم يذكر سام أو لين موضوع هيلين مرّة أخرى مع أنّه يوجد لها صورة داخل إطار على الطاولة. وفي إحدى حكاياته المفضّلة، وهي ما حدث مع الملاك، كان هذا هو ما حدث معها تماماً، إذ اختفت من خلفيّة الصّورة. من المحتمل أنّ هيلين عادت إلى بلادها وأنّ خيال الحرب قد فقد بريقه.

فوجئ كلّ من دارو ولين بصور الإعدام، واعترف دارو أنّه كان يتتبع خطاها. والطريقة التي قالها بها كشفت أكثر من ذلك. «لقد نالت إعجابك».

«أراها تمرّ بكلّ الأشياء التي مررت بها».

«فعلاً؟».

«ولا أريدها أن تقوم بها، إنّي أرى كلّ خطوة كان بإمكانني التوقف فيها».

أمضى مع دارو فترة طويلة كافية ليرى أنّه كان الأفضل في مهنته، وأنه يهتمّ بها بشغف. كان هناك حزنٌ لكنّه فكّر أنّ ذلك أمر من الأمور الشخصيّة لا أكثر.

«لا أفهم».

«لقد عرض عليها غاري العمل بأن تنضم إلى فريق التصوير مع المجلة. لا أريدها أن تعرض نفسها للقتل وهي ترتكب خطأ غيبياً. أن يعمل معها».

«ماذا لو لم تقبل؟».

«ستقبل».

فهم لين من نبرة الصوت أنها كانت تأكيد العاشق: «أفضل العمل معك».

«سيعني لي الكثير يا صديقي لو حدث ذلك».

عندما أتى لين إلى غرفتها الفندقية بدت محرجة. أشعلت سيجارة وقدمت له واحدة وجلست على السرير. قالت: «لم نبدأ مع بعضنا بداية جيدة».

«عذراً؟».

«عندما التقينا جعلت من نفسي أضحوكة».

هرّ لين رأسه كما لو أنه يطرد شخصاً يضايقه. كان هؤلاء الأمريكيان لا يزالون يحتاجون وقتاً ليتعود المرء عليهم بصراحتهم الكاشفة واعترافهم الدائم بعللهم ونواقصهم. كانت قواعد الأدب في فيتنام تمنع الحديث عن أمر كهذا. مضى على زواجه ستة أشهر وهو يحضر أوراق الموسيقى لـ (ماي) بشكل أسبوعي، لكنها لم تغن الأغاني الجديدة مطلقاً قبل أن تجعله يغنيها لها بصوت عال أولاً. عندما غضب منها، اعترفت أخيراً أنه لا يمكنها القراءة، ظن أنها قصدت أوراق الموسيقى لكنه استشف أنها كانت تحفظ الكلمات.

نظر الآن إلى هيلين وصدّم باستقبالها له وهي عارية. مع ذلك جرّده الأمر من دفاعاته وجعله يشعر أن عليه حمايتها كما لو أنها طفلة صغيرة عاجزة تثق بالجميع.

«رايتُك أوّل مرّة في المطعم، دخلت مبلة بالمطر».
 تغيّرت ملامح وجه هيلين وقالت: «انطبأ سيئ آخر».
 «لا.. ظننتُ أنّك امرأةٌ جائعة». ضحكوا. لماذا أغفل ذكر المرّة
 الأولى التي رآها فيها حقيقةً وهي خارجة من سيّارة الجيب
 الحرّية أمام الفندق بينما كان جالساً في البار مع مستر باو؟
 هل كان ذلك لأنّه لم يردها أن تتذكّر أنّه كان بصحبة مستر باو؟
 أو هل كان السبب أنّه أراد أن يحتفظ بذكرى المرّة الأولى التي
 لمحها فيها لنفسه؟ أو ربّما الأسوأ؛ هل كان السبب أنّ عادة الغشّ
 أصبحت متأصلةً فيه جدّاً، وبات يفضل الأكاذيب على الحقيقة؟
 في الصّباح الثّالي مشى لين إلى الفندق وأمضى اليوم كلّهُ
 يشاهد المدينة من خلال عينيها. حدث ذلك كلّ يوم، وقد أدرك
 يوماً بعد يوم أنّه كان يريها وطنه.

كان طلبها الأوّل أن تتعلّم اللّغة الفيتناميّة بما يكفي لتجعل
 النّاس الذين هم مادّة تصويرها مرتاحين. لم يطلب أيّ أمريكيّ
 آخر ولا حتّى دارو طلباً كهذا. كانوا يختبئون خلال الأمطار
 الموسميّة تحت أكشاك الشّاي الصّغيرة. وكانت تحمل كوب
 الشّاي الخزفيّ تلفه بأصابعها الطّويلة وهي تستمع إلى صوت
 المطر يقطّط على الشّرفة المعدنيّة للسّطح بينما يتدربون
 على المحادثة. كان الأولاد غالباً ما يتجمّعون عند رؤية امرأة
 غربيّة في حيّهم، كان الأمر لا يزال جديداً، وكانوا يضحكون
 على أخطائها في التّلفّظ. جلسوا على الأرض حول الطّاولّة
 المهشمة مثل قطع بلاستيك منفردة ملتقّة حول أكتاف نحيلة
 تحت المطر. نادى هيلين بائع الطّعام واشترت منه كعك الأرز مع
 حبوب السّمسم للجميع. كان لين متأكّداً أنّهم أحسّوا بأنّهم في
 حضرة ملاك.

«كيف تقول شكراً؟».

«كام أون».

«تعال؟».

«قوليها من جديد».

«كام أون».

«هذا أفضل». ضحك لين.

«كيف تقول: «هل بإمكانها تحدث الإنجليزية؟».

«تشي أي بيت موي تبيتج أنب كبونج».

أنت الكلمات على شكل فيضان يستحيل فصل أجزائه، مع توقفات وأصوات تصدر عن الحلق. أحسّت أنها لن تتمكن من فهمها على الإطلاق.

«أسفة أنني سألت».

«سنبدأ ببطء، استخدمني الكلمات كل يوم واستمعي إلى القصص. هكذا تعلّمت الإنجليزية».

صبت هيلين المزيد من الشاي من إبريق شاي قديم: «أعلم أنّ الأمر مُحبط أن تنتقل من العمل مع دارو إلى العمل مع مبتدئة».

«ما معنى كلمة محبط؟».

«أعني هبوطاً في المرتبة وخطوة للأسفل».

أخذ لين كوبه. مرّة أخرى كان ذلك بداية ما يجب أن يبقى سراً ولا يتحدث أحد عنه، ومع ذلك احمرّ وجهه من الإحراج وخمّنت هي مشاعره: «عندما تتشكّل الكلمات على لسانك بشكل طبيعي، أعتقد أنّك ستدخلين قلب البلد».

«لكنك لم تزر أمريكا يوماً».

«كانت شيكاغو المفضّلة لديّ في أحد الأيام».

لكن حالما بدأت باستجوابه، سارع إليهما مجموعة من الأولاد وأكثروا من إلقاء الأسئلة عليهما.

بعد إعادتها إلى الفندق في ذلك اليوم، مشى هو على طول النهر. كيف له أن يعترف بأمر كهذا؟ إن ذلك يدعو للعار. لكنه كان وحيداً لفترة طويلة ولم يفصح عن مكنونات نفسه مع أي شخص آخر ففاضَ فمه بالكلمات مع أول إشارة اهتمام منها. لا أحد يجب أن يعرف عن سنواته في الخارج.

كان والده عالماً في السياسة في الجامعة يعاني من القيود الفرنسية غير العادلة التي عارضت حقّ الفيتناميين في أن يتقدّموا لاحتلال أية سلطة حقيقية. اقتنع من دراسة حياة (العم هو) بأهمية أن يرى العالم. صرّف الكثير من المال واستخدم عدة وعود ليضع لين على سفينة شحن متجهة إلى الشرق الأوسط ثم إلى أوروبا. فضّل لين الذهاب إلى أمريكا. مع أن تلك السنوات كانت أسعد سنوات حياته لم يشك يوماً بنيته على العودة وعدم تحقيق آمنيات والده بأن يكون في خدمة وطنه.

كان لا يزال مطارداً بما رآه في (فان رانغ)، غرق عمال الموانئ وطافوا كفواكه في الحليب بعد أن أمروهم بالقفز إلى الماء لإنقاذ السفينة. ضحك المسؤولون الفرنسيون عند الشاطئ بكروش اهترت من السمّة. أصبح لين مائلاً وهزياً مثل خنجر. وفي ذاكار شاهد رعب الاستعمار ذاته وشاهد سگان البلد يؤمرون من قبل الفرنسيين أن يسبحوا إلى سفينة في عاصفة.

كان لين يُشاهد عاجزاً عن ظهر المركب كيف كانوا يغرقون مثل حيوانات ثقيلة خرساء في الماء. مع أنهم كانوا يسمّونه الرئيس الصيني في أمريكا، لكن الحرية كانت تعصف به. وبعدها ذهب

إلى الجنوب. علّمته تجربته أن الحاجة للحرية ضرورية مهما كان الثمن.

أول مهمة قام غاري بتوكيل هيلين بها كانت تغطية إضرابات البوذيين الذين يزورون معابد (الباغودا) في سايفون. احتجاجات الفرق البرونزية في منطقة ألوي التي كانت تخرج ضد الحكومة. وصف لين المسيرات التي حدثت قبل ثلاث سنوات ضد (دييم) وأخذ يخبرها عن الفوضى في ذلك الوقت. كان الرهبان والزاهبات يستخدمون أجسادهم كمادة لإشعال الحريق حول فيتنام الجنوبية ليخيفوا الغرب ويبعدوه. في قرية لين، وصفت إحدى الزاهبات كيف وضعت الأردية على جسمها بشكل جميل في ساحة البلدة، وكيف شكّلت دائرة من البرونز حاجزاً ضد التدخل الخارجي. «ماذا يمكن للجيش أن يفعل؟ يطلق النار عليهم؟» سُخف الوضع في سايفون جعل الفرق المضادة للانتحار المسلح بأدوات إطفاء الحريق تجوب الشوارع.

أراد غاري من هيلين أن تلتقط صوراً للحياة اليومية في معابد الباغودا.

أخذوا صوراً لصبية بأردية لونها بُني وهم يستقبلون التعليمات وميداليات البرونز القديمة ويرتاحون داخل غرف مظلمة يشربون الشاي ويخطّطون. وشباب يركضون جيئةً وذهاباً بأرديتهم البرتقالية مثل النّدى في مطعم مزدحم، والكتيّبات ترفرف معهم، وهم ينظّمون المقابلات مع كبار الرهبان كما لو أنهم نجوم رقصة (الروك).

حرارة الظهيرة والعصي المحترقة لرجال الدين البوذيين أصابت هيلين بالخدر وأبطأت حركتها كما لو أنها تمشي

في نومها. عندما ارتاح الجميع في استراحة الظهيرة صار مزاجها أكثر سلاماً، راهبة مرتدية الأبيض كانت تكنس الأراضي أمام الأعمدة المنحوتة للمبنى وظلّ تمثال بوذا بالكاد مُدرَكاً لمن حوله.

تحت شجرة (بانيان) استندت هيلين إلى مهد من جذور الأشجار المتشابكة وقميصها معلق على ظهرها. أشار لين إلى أحد الباعة أحضر لهما ثمار جوز الهند المليئة بعصير مالح قليلاً. ترددت عندما أعطاها قشة تشرب بها العصير. «اشربيه».

أومات برأسها وأفرغته بشرية واحدة: «تعبت من كوني خائفة».

«ميليشيات الغوريلا الفيتنامية مخادعة لكنّها لم تدرّب أشجار جوز الهند على أن تنمي السم».

شاهدوا النساء المسنّات والشابات وهنّ يدخلن أرض الباغوندا (معابد البوذيين) حاملات أطباقاً محضّرة أو سلالاً من الخضر الطازجة.

«هل يقوم المجتمع بتزويد الطّعام؟».

«المجتمع هو الباغودا حيث يقومون بإحضار الطّعام أو المال أو أي شيء يحتاجونه».

«لكن ليس لديهم ما يكفي لأنفسهم».

«كل واحد منهم مثل قرميدة في جدار، كلّ معتمداً على الآخر ولا معنى لأحدهم خارج علاقته بعائلته وبالأخرين».

نهضت هيلين وأبعدت قماش قميصها الذي كانت ترتديه عن ظهرها: «هل تعرف لماذا أتيت إلى هنا؟».

هزّ لين رأسه محترساً من مزيدٍ من الأسرار.

«أردت أن أكون مشهورة. كان لدي حلم بأن أكون الأمريكية الوحيدة التي تلتقط صوراً لسلسلة (هوتشي منه). غبية اليس كذلك؟».

ابتسم لين: «يسعد دارو كل مرة يضعون فيها صورة من صورك على الغلاف».

ضحكت هيلين: «حقاً؟».

«يجلس في غرفته ويشرب كأس ويسكي ويحدّق في الغلاف لنصف ساعة. ثم يضع المجلة في درج ولا ينظر إليها مطلقاً مرة أخرى».

ارتجفت هيلين: «لكنه يغفل لقطات كان من الممكن أن تكون له، ويحزن على كل موت حتى يبدو أنه من المستحيل أن يستطيع أن يكمل». قالت: «لهذا أحبه».

لم يحتمل أن يسمع أكثر. كيف بإمكانه أن يتابعها هكذا وهذه المرأة تكشف روحها له يوماً بعد يوم: «عليّ أن أعود بالفيلم إلى المكتب».

«أين عائلتك؟ أعني ما قلته قبلاً عن كون المرء قرميدة في جدار؟».

«لا أريد أن أهين أحداً. نحن مختلفون عن الأمريكيان فنحن نتشارك في الأشياء المهمة فقط مع الناس الذين يكسبون ثقتنا. وإلا فسنكون أسانا لذكرياتنا».

احمرّ وجهها كما لو أنّها عوقبت وحاولت أن تخفي ذلك: «أنا أسأل الكثير من الأسئلة. هل تنضم إليّ على الطعام هذه الليلة؟».

«سألقاك أمام الفندق في الصباح الباكر غداً».

أدارت وجهها إلى المعبد البوذي لتخفي مشاعرها المجروحة.

مشى لين في الشوارع المزدحمة ووقف عند مقهى خارجي. أشار إلى النادل ودفع له ليوصل الفيلم إلى المكتب، ثم طلب الشاي وشربه. أحسّ بالذنب من فظاظته معها لكنه تغيّر منذ مجيئه إلى سايفون ونما له جلدٌ جديدٌ وانعزل عن الآخرين. سيكون تعامله أذكى لو صار اللطف من ذلك. فهذا في النهاية ما أعجبه في الأمريكيين، براءتهم وقدرتهم على مشاركة قصصهم مع شخص غريب. وبعد خمس عشرة دقيقة عبر الشارع ومشط أراضى المعابد البوذية.

كانت المنطقة لا تزال فارغةً ومع ذلك لمح هيلين كحديقة مهجورة. كانت وحيدةً وتبكي. شعر بالإحباط، وجهها كان في غاية العري، كأنها كانت واقفةً أمامه دون ملابس. وعرف الشيء الصحيح ليفعله وهو أن يمضي دون أن يريها نفسه لكنه توقف متسماً في مكانه. لقد تعرّف إلى ألم مشابه لألمها. السبب أن دارو أخبره أنها فقدت أخاً في الحرب، هل كان هذا كافياً لتسبب لنفسها وضعها الخطر الذي هي فيه الآن؟ هذا مكان غير مناسب لرجل، فكيف به لامرأة؟ ظهر له أنه عاد ودخل من باب المبنى ووقف أمامها. عندما رآته لم تظهر مفاجاتها ولكن ببساطة مدت يدها إليه.

«اعتذر عن التطفل، فانا أكره حين يسألني الناس عن أخي أو عن والدي أقول إنني بالكاد أتذكره».

سحب منديلاً قماشياً من جيبه وأعطاه إياه: «أظن أن سرد هذه القصة لصديق لشرفٍ عظيم».

ابتسمت ابتسامةً مأكرةً ملتويةً وقالت: «كامون» (شكراً بالفييتنامية).

قبل أن يستطيع إبداء أية ردّة فعل وقفت وعانقته. لم يعانقه أحدٌ منذ فترةٍ طويلة. أحس أن رأسه خفيفٌ، والدم يندفع حاراً

إلى جلده. وقام لخوفه بهروب أخرق: «سوف أذهب لعدة أيام،
لأسبوع كحد أقصى».

«لكن لدينا قصة لنغطيها».

«ليست قصة تحتاجين فيها للمساعدة، ستكونين بخير».

طلب ويسكي في المقهى. كان سيلتقي مستر باو في اليوم
التالي وكان عليه أن يصفّي ذهنه. سيجمع الخرائط ويمرّ على
مندوب أمريكي ويأخذ ممتلكات باو التي كانت علبتين من دخان
مارلبورو وأربعة أرغفة من خبز (واندر بريد).

سمح لين لمستر باو أن يصدق أنهم كانوا يؤثرون على
الأمريكان الذين يعملون مراسلين للحرب مع أن المراسلين
أصبحوا بعيدين بالحقائق التي شاهدوها عن أي شيء يمكن أن
يقوم لين بافتعاله. «ليس بإمكانك أن تأخذ أحد الأطراف دون
الآخر». هذا ما قاله باو بعد أن عثر عليه. مما يدعو للسخرية أن
ذكاء لين الذي استجمعه الآن والذي يضمن لباو خطّه الجديد
في الاتجار بالمخدرات مستخدماً الجيش لحمايته كان يجني
الملايين إلى جانب انشغاله ببيوت الدعارة الثافهة. جعله فساد
الشريك المثالي للين فقد كان رجلاً دائماً الانفتاح على المساومة.
بعد أسبوع أنزلت إحدى المروحيات هيلين ولين في مدينة
(بليكو) في الصباح الباكر. كان التغيير الجغرافي مخيفاً
بشكل مفاجئ، فالقيظ الشديد لأراضي (ميكونغ) المسطحة
ومحيطات حقول الأرز الداخلية التي تعلوها السماء البيضاء
الحارة كلّها تبدل بهواء اللف وأخف منطقة هايلاندز المركزية
الغنية بأعشاب الفيل المحروقة ذات اللون الذهبي، وأشجار
الرّيتون الأحادية اللون والأشجار المنخفضة بين الخيزران
وأشجار الماهوغني القديمة وغابات شجر (السّاغ) الضخم.

داخل التّجمع العسكريّ كان يتمّ التّحضير لمهمّة إنقاذ قافلة كانت قد خرجت في وقت مبكر متوجّهة إلى مخيم للقوّات الخاصّة على الحدود الكمبوديّة، ونسبة إلى البرقيّات الأسلكيّة التي وردت سابقاً فقد كان هناك بعض النّاجين فقط صامدين حتى الآن.

تناقشت هيلين مع رئيس الجراحين (ميدلوك) الذي كان له وجه يشبه وجه كلب الصّيد. وحصلت أخيراً على إذن لمرافقة حملة الإنقاذ، شعرت بالتوتر لكنّها ابتلعت غضبها وكانت قد اعتادت على وجود لين إلى جانبها.

«هلا شاركتني ببعض من ذلك؟» وجّهت هيلين السّؤال أولاً إلى الملازم (ريللي) الذي كان جالساً على صندوق ذخيرة يأكل قطعة من الشوكولاته.

«بالأكيد». وكسر قطعة من الشوكولاته وأعطاه إياها: «إني بحاجة إلى هذه لتعطيني الطّاقة».

أومأت هيلين برأسها ووضعت قطعة الشوكولاته التي ذابت بنعومة على لسانها.

«علينا أنا وأنت الاستمرار بارتداء قبّعاتنا». وأشار إلى شعره الذي كان له لون لهب أحمر. «رؤوسنا مثل أهداف التّدريب على التّصويب». قالها وأخرج قبعة كثيفة منخفضة. «هذه القبعة هي التي تجلب لي الحظّ فقد قام أحد الكهنة أو ما شابه بمباركتها بالثبول عليها».

ضحكت هيلين ضحكة قصيرة: «أتمزح؟».

«نعم، لكنّه قال: إنّه أيّاً كان من يلبسها فلن يتعرّض للأذى وأنا لم أخدش حتى الآن».

«عليك أن تعوّض عن ملكيّتك لها بارتدائها».

«لديّ اثنتان في حال أضعت إحداهما. أتريدان ارتداءها؟»
 «لديّ قبعتي الخاصة». لمست القبعة التي أعطاها لها أولسن،
 والتي قادتها إلى صور الكابتن تونغ. وقفت وقالت: «شكراً على
 الشوكولاته».

«تعرفين أين تجدينني إذا غيّرت رأيك».
 أطلق (ميدلوك) صرخة وقامت هيلين بالبحث عن لين
 لتجده بين مجموعة من المظليين الفيتناميين. وقالت له:
 «لنذهب، حان دورنا».

نظر إليها ثم عاد بنظره إلى الضباط الفيتناميين وحمل
 حقيبة الكاميرا والأفلام وتبعها. في الخلفية استطاعت هيلين
 أن تسمع همهمة من أحد المظليين: «لن نذهب» قال حابساً
 أنفاسه.

«ماذا؟»

«سوف يتم نصب كمين لهذه القافلة».
 «حسناً، هناك احتمالٌ لذلك. لكننا سنذهب على كل
 الأحوال». لم تستطع أن تتساهل مع الأمر لأنها كانت تشعر
 بحرقة في معدتها، ويدها تهتران. ألم يكن من الواجب عليها
 التغلب على تلك الحالة بعد مضي ذلك الوقت كله.

وضع الرجل الحقائق أرضاً وقال: «هذه المرة لا».
 نظرت هيلين إلى الجنود المظليين ثم نظرت إليه. كانت
 الشاحنة مصفوفة ومحملة بالمؤن، والسيارات العالية محملة
 بالأسلحة وبالقذائف. كانت تنظر بغرابة وب نظرة غير حقيقية
 إلى كل شيء، وكان لين يخيفها الآن. قالت وهي تشير بذقنها إلى
 الجنود «هل هم على علم بأي شيء؟».

«لنخرج». صاح الرقيب ميدلوك من جديد.

«استمعي إليّ هذه المرّة». قال لين. نظر إلى وجهها لأنّ الأمر كان أكثر إلحاحاً من التزامه بالأدب «ابقي، في الخلف».

قالت: «سأبدو غبيّة، غاري يتوقّع أن يحصل على صور».

«كوني غبيّة إذا». أصبح حلقه ضيقاً، وتابع «استمعي إليّ، فهنا أنا من يعرف أكثر وأفضل».

أتى الرقيب إليها بلوح وقال: «أدامز اركبي سيّارة الجيب الثّانية».

وقفت للحظة وهي تنظر إلى الأرض. لم تتوقّع ذلك، لم يكن معاوناً بقدر ما كان جليس أطفال. كانت ثقتها ضعيفة جداً لدرجة أنّها كانت خائفة أنّها إن تراجعت فستجد دوماً سبباً لذلك.

تنهّد ميدلوك «لا تسبّبي لي مشكلات في السيّارة القائدة فأنا في حاجة لرجالي فيها».

حافظت هيلين على صمتها. وعينا لين كانتا عليها وإذا سمحت له أن يأمرها فلن يكون هناك نهاية للأمر في المستقبل.

«أدامز؟ هل أسبّب لك الإزعاج؟».

«أنا مضطّرة لأن أرفض».

«أسرعوا. تخلصنا من مشكلة إضافية». مشى بعيداً وكان قد نسيها مسبقاً.

الآن وقد تمّ الاختيار خلعت قبعتها ومسحت جبينها غاضبة من نفسها أنّها استسلمت، وغاضبة لأنّها أحسّت بالراحة الجسديّة من الشعور بالخوف. أحسّت بالفشل يضرّ بها. «أشكّ أنّك كنت ستمكّن من منع دارو من الدّهاب».

«لم أكن أحتاج لذلك. فقد كان سيعرف بنفسه ما يجب فعله».

«ماذا كان سيعرف؟».

ارتجف لين وكان قد تعب من المحادثة. لم يكن ليتحمّل ذلك. كان سيعود ويعطي دارو تحذيراً إمّا أن يعمل لديه فقط وإمّا ألا يعمل مع أحد. بالتأكيد ليس هذه المرأة.

نظرت هيلين بسخط دون أية كلمة ومشّت مبتعدة إلى غرفة الاتصالات. وقامت بأخذ الصور في المشفى الميداني لبقية اليوم. كانت أعصابها مشحونة بسبب التوتر الذي حدث في المخيم ومشهد الجرحى وفكرة ما كانت قد تجنّبتة. ومع أنهم عملوا جنباً إلى جنب لم تتكلّم مع لين لمرة واحدة. كانت غريزتها تخبرها أنّه قد فاتها شيء مهمّ، وبدل مساعدتها قام هو بإقناعها بالتخلي عنه. كانت قد خطّطت لإنهاء الاتفاقية بعد العودة إلى سايفون. لكنّ الرّحلات الخارجة كانت محمّلة بالجرحى وكانوا مجبرين على إمضاء الليلة. عند غروب الشّمس بينما كانت في غرفة الاتصالات تقرأ مجلة قام المسؤول عن اللاسلكي بالتلويح للرقيب ميدلوك وأدخله.

«لقد انفجر لغمّ بالسّيارة الأولى وقد أصيب كلّ من في داخلها».

هرّ ميدلوك رأسه وبدأ وجهه الطّويل أطول، ولكم قبضته على الطاولة.

استمع رجل اللاسلكي مرّة أخرى «يبدو أنّ بقية الحملة عالقّة في كمين ولا تستطيع العودة. يريدون أن يعرفوا كيفية المتابعة».

قال الرّقيب: «اللّعة. أعطني الهاتف». نظر حول الغرفة إلى الوجوه العابسة ورأى هيلين. «هذا سرّي يا حلوة».

غادرت هيلين ومرّت ساعة، وتمّ إخراج الرّقيب من الغرفة لاهثاً، اقتربت منه.

«علق بقيّة الرّجال ولم يبق إلا اثنان مختبئان في الأدغال». لم تقل شيئاً وحاولت ألا تفكر في وجوه الرّجال الذين مازحتهم في الصّباح. عند حلول اللّيل فقد رجل اللاسلكي الاتصال وتوصلوا إلى نتيجة أن الرجلين الباقيين لم يتمكّنا من النّجاة، لم يبق لين مع الأمريكيان لكنّه خلد إلى النّوم مع الجنود الفيتناميين.

في هواء الغرفة الرّطب الكئيب تمّ استخدام المصابيح الكهربائيّة فقط للإضاءة. جلس الرّقيب ميدلوك على صندوق بجانب هيلين متردّداً ثمّ مرّر إليها قارورة وأخذت شربة عميقة وسألها لماذا غيّرت رأيها بتلك الحملة.

«لم أفعل لكنّ مساعدي رفض الدّهاب».

«ذاك الجبان الصّغير أنقذ حياتك. فقد أتت أوامر مشددة من القيادة العامّة. لقد نشأت في أراضٍ أوكلاهوما وعملت في حظائر الماشية، دعيني أخبرك أنّه لا يوجد فرق. فالحرب مضيعةٌ للحياة ولا أريد أن أعطي الأوامر فيها».

طال اللّيل وكان بطيئاً ومُزّاً، وكانت أفكارها تنتقل من الخوف إلى الشّفقة على النّفس إلى فرح غريزيّ لكونها بسلام. غادرت الغرفة حوالي منتصف اللّيل لاستنشاق بعض الهواء النّقي ولتدخّن. أوّمت إلى حراس الحدود الخارجيّة وعرضت عليهم السّجائر عندما صَفّروا لها لينبّهوها أنّ نار السّجائر يمكن أن تجذب القنّاصة، لكنّ الخطر لم يكن كافياً ليمنعها من جلوس القرفصاء على أكياس الرّمّل وتغطية مقدّمة السيّجارة بيدها حتّى امتصّتها كلّها إلى عقبها.

كان الجوّ رطباً وساكناً والضّباب متجمّعاً في أشجار المطّاط البعيدة والنّجوم من فوق كانت واضحة بين الغيوم الشائكة والعنيفة.

كانت تكره الليل وتوقف النشاط. وكان النوم احتمالاً بعيداً، حيث كانت معدتها ممخضة وأمعائها رطبة. كانت تنظر حولها متسائلة كيف وصلت إلى هناك ولماذا كانت بحاجة إلى ذلك؟ كانت جملة مكزرة أنها هناك لتعرض الحرب أو حتى لتختبر نفسها فيها. أياً كان السبب فذاك المكان كان جاذباً للشّر، أو ربّما الأمريكيان قاموا بإحضاره معهم كما فعل الغزاة الأوروبيون بإحضار مرض (السفلس) معهم إلى العالم الجديد. لا شيء آخر سينفع، ولا حتى التصوير يمكن أن يكون له أي تأثير. كانت فقط رغبة رهبانية ملحة لإيجاد هدف أو حتى للراحة. فمنذ أن وصلت كلّ ما فعلته هو أنها تركض من وهم إلى وهم مهووسة وضائعة ومحتاجة ومشغولة بنفسها ظناً منها أنها حققت بعض الفهم. كان ماك كراي يغذي غرورها لكنها كانت الآن وحيدة ومتعبة وحائرة.

عادت إلى الغرفة بعد أن أحست بالبرد واستلقت بكامل ثيابها على السرير المتسخ وهي ما تزال ترتدي حذاءها، والكاميرات بعيدة عنها بطول ذراع، وعقلها كان غير قادر على التركيز في شيء واحد لفترة طويلة. سمعت في الساعة الثالثة صباحاً صوت إطلاق نار وسلاح مدفعية قادماً. بدأت تسمع مدافع الهاون وصوت انفصال الصّدف عن الأنبوب، وعلى طول الساعة التالية كان هناك صوت أسلحة وضرب على الأرض. لم يتكلم أحد داخل الغرفة التي كانت ملجأ. كانوا مثل لحم ضعيف في رحم الأرض. في الظلام التصقت هيلين بسريرها أكثر وكانت تتوق إلى رفاهة الراحة في غرفتها الفندقية في سايفون حيث كان بإمكانها تناول وجبة جيدة وشراب مثلج. كانت راحة تلك المخلوقة في التفكير بالأهمية المناسبة لكل ما كان يُعرض عليها. كانت باستمرار

تعقد لنفسها بعض الصفقات والاتفاقيات الصغيرة بشراء شال حيرري تتوق للحصول عليه منذ مدة إذا تمكنت من شرائه.

غفت بعد الساعة الرابعة والنصف صباحاً ثم استيقظت مرة أخرى في الخامسة. كانت مرهقة بشكل قاتل، نهضت متصلة الجسم وغسلت وجهها بمنديل وماء من القرية. أعطاها الرقيب كوباً من القهوة الفاترة، وكان مجرد التفكير بالطعام مثيراً للغثيان لكنها بادلت حصص الطعام الخاصة بها بكوكتيل الفواكه الذي تناولت منه علبتين وشربت عصيرهما.

خرجت حملةً ثالثة عند الفجر لتستعدّ لجمع جثث الحملتين السابقتين اللتين فشلتا في مهمتهما. جلس لين بجانب نار صغيرة مع الجنود الفيتناميين الذين كانوا يغلون الأرز والشاي لإعداد الفطور. ترددت فقد كانت غير متأكدة إذا كانت تريد الاقتراب منه لكنه عندما لمحها نهض من فوره وسار إلى جوار جدار رملي صغير وأخبرها أنه عليها أن تجلس. بدأت بالقول: «أريد أن أعتذر».

«وصلتني رسالة عبر اللاسلكي أن المروحية التي كانت تقل دارو قد أصيبت في منطقة كاماو ودارو بخير».

أحسّت بأن الأرض تهتز من تحتها لفكرة إمكانية أن شيئاً ما كان يمكن أن يحدث له: «أهو بخير؟».

أدار لين رأسه فالتعبير على وجهها كان مؤلماً جداً. كان قد رأى ذاك التعبير على وجه ماي من قبل وعده من المسلمات. قال: «إنه أصيب ببعض الخدوش فقط».

عندما بدأت الشاحنات بالثحميل وقف وحمل حقيبة المعدات على ظهره ومشى إليها. واستقلا الشاحنة دون أن يتكلما مع بعضهما كلمة أخرى. لم تتذكرا الآن لماذا علقت

أهمية كبيرة على تلك المهمة إذا ألغوها؟ كان بإمكانها استقلال الرحلة التالية. لقد فقدت ماء وجهها مع لين ولم تعرف كيف تصلح الأمر.

حرّكت الشاحنات عجالاتها بتناقل بينما تسَلّقت هي إلى أعلى الجبل على المنعطفات الحادة المليئة بالطين. كان جدار الأشجار والنباتات على كل طرف يوقّر طبقة سميكة تقي من القناصة مهما كان عددهم.

أحياناً مجرد فتحة صغيرة في تلك الخضرة كانت تسمح بإظهار مرمى للقنّاص داخل الأدغال على مسافة خطّ بعشرين أو ثلاثين قدماً حيث كان ضوء الشمس يظهر تحت القبة الكثيفة محوّلاً أشعة منفردة من الضوء إلى لون العسل الفاتح.

مدّ لين يده ليلمس زهوراً بيضاء صغيرة معلقة على جذوع الأشجار التي مرّوا بجانبها. تسَلّقت الشاحنات الطريق الطيني بنوع من الغضب حيث كان صوت المحركات يصم الأذان وكان هناك ارتداد واهتزاز على الأرض من إثر الحركة التي جعلت أجساد الجنود تتمايل. استدار بعضهم إلى الخارج ونظروا إلى الأدغال مشيرين إلى قطع السلاح المتروكة وإلى مفاتيح القنابل اليدوية المرمية هنا وهناك. جنود آخرون اكتفوا بالتحديق في أرض صندوق الشاحنة، بعضهم أغلق عينيه وصلّى، مستسلمين وغير عابئين حيث كانت الأسلحة متناثرة تحت أقدامهم. كان هناك وقتٌ كثيرٌ للخوف حين توقّفت الشاحنة لكنّ هيلين كانت بالكاد واعية لما حولها، وبالكاد لاحظت الأدغال أو الجنود متسائلة إذا كان دارو قد أصابه ضرر أم لا؟ ماذا لو حدث لها مكروه الآن قبل أن يتسنى لها أن تراه من جديد؟

وصلوا إلى جزء مستو من الأرض حيث كان هناك انخفاضٌ خفيفٌ عند طريق طينيةٍ بما تبقى من قطرات جدول هزيل يعبر ذاك الانخفاض. كانت الشاحنات المهجورة بمقدماتها المغمورة في الأدغال تشكّل عائقاً أمامهم.

تمّ إيقاف المحركات وساد الصمت الجديد وغمر أذني هيلين. أخفضت رأسها عندما سمعت صوت صرخة عصفور وضحك الجنود في الشاحنة. كان الاحتمال الأقوى أنّ العدو غادر منذ زمن لكن مع ذلك تابعوا تقدّمهم بخطا متائية بطيئة.

أول شيء كان رائحة الخلّ الحلو الأشبه برائحة اللحم التي كانت أشبه بدمغة ابتدائية في الدماغ يتمكّن المرء من التعرف عليها دون أن يعرف لماذا. كانت الغريزة توحى بالهروب لكن الجنود زحفوا إلى الأمام وتبعتهم هيلين بتردد، وعندما اقتربوا شاهدوا غيوماً من الطيور والحشرات وفتات المعركة يتناثر على الأرض ما بين أغطية ذخيرة إلى أجهزة اتصال مدمّرة وأكياس رمل تمّ نقلها بسرعة بالإضافة إلى ضمّادات يملؤها الدّم وأسلحة مسروقة.

ارتفع سرب حشرات شفافة برتقالية الأجنحة وكانت نوعاً من الجراد الصحراوي وفي الأسفل لمحت هيلين لمحة من شعر أشقر مائل إلى الاحمرار الذي ظلّته شتلاً من الأزهار. كان عبارة عن هيكلين أشبه بجذع شجر صغير مغطى بالأوراق ولما اقتربت رأت أنّها كانت أرجلاً بشرية منتفخة. وبعد عدة أقدام كانت هناك القبعة التي تجلب الحظ. وضع جنديّان البقايا في معطف مطاطي لكن الجسد لم يتحرّك حركة واحدة. ابتعدت وتقيأت.

«هذا ما نجنيه من إحضار النساء إلى هنا».

غسلت وجهها بماء من قريبتها وتركت الدّموع تجفّ على وجهها بينما سحبت غطاء العدسات عن الكاميرا. كانت أغلب

المشاهد أكثر فظاعةً من أن يتم تصويرها لكنها صوّرت على أية حال لأنه توجب عليها إبقاء يديها مشغولتين وعقلها كذلك. تكرّرت وعود المغادرة نفسها في ذهنها. في هذا المكان المليء بالموت كان من المستحيل التصديق أن دارو لم يتعرض للأذى. أرادت أن تذهب إلى لين لتطمئن مرةً أخرى لكنها لم تستطع أن تبعده عن الجنود الآخرين. لذلك التفتت إلى العمل.

خلال أيام تجوالهم في سايفون لم تتعلّم هيلين أكثر من تحميل الكاميرا بالأفلام والتصوير وكانت تركز صورها على ما تريده لكي لا يتم حذفها لاحقاً لكنّ لين علّمها كيف تعطي معنى للصورة. بدا من المستحيل التركيز على الضوء وسرعة مصراع الكاميرا وفتحتها وسط المعركة أو حتى فيما بعدها لكن تلك كانت المتطلبات الخاصة بعملها كصحافية. أنقذتها الآن مسألة التقنية.

قال لها أن تتخيّل صورة المشهد وهي تتشكّل وفكرة الضوء وهو يمر بالعدسات ويضرب الطبقة الحساسة الشفافة حتى تصبح معتمّة. كلما زاد الضوء زادت المدة وزادت العتمة. تلك المناطق المشبعة بالضوء بكثافة ولمدة طويلة تسمى صوراً كامنة. لا مجال للعودة. المجال فقط للتقدم صورةً بعد صورة وكلّ الصور الزمادية كان يتم تصنيفها واحدة واحدة؛ الفاتحة والغامقة حتى لو تطلّب الأمر أن تكون مختلفة. رأت أنه حتى الصور التي ادّعت الحقيقة كانت تحتوي على قدر كبير من التكثّم والدّوق في الاختيار وأن الموضوع والزاوية والمحتوى كانت متضمنةً في صناعة الصورة كما كانت متضمنةً في البيانات العسكرية الموجزة.

بعد أن تمّ تفتيش المنطقة وقف لين بعيداً ينظر إلى جدول على جانب الطريق في الأسفل. ذهبت هيلين للوقوف إلى جانبه

متمنية أن يقول شيئاً أكثر عن دارو لكن عندما بقي صامتاً، نظرت شزراً إلى الوادي وسألت: «ما الأمر؟».

«انظري إلى كل تلك الأزهار البيضاء في كل مكان على التل. لاحظت وجودها أثناء مرورنا في الشاحنات».

لأنها لم تفهم تلك الصلابة حدقت لدقيقة فيه بقوة بينما كان واقفاً بشكل جانبي.

«كيف علمت أن حملة الإنقاذ ستعرض للهجوم؟».

«تعين أنه كان لدي معلومات تجسسية؟ إنه كان لدي هاتف سري يصلني بالجهات العليا في فيتنام؟ كان ميدلوك يعرف أنها مهمة تفضي إلى الموت لكن لم يكن لديه خيار، فعندما يترك جيش فيتنام البعض على قيد الحياة، يعد ذلك إغراء لجذب الآخرين ليأتوا إلى حتفهم».

«هذه تقنيات تلك الفرق وأنا أعرفها فقد كنت جندياً فيما مضى».

اشتكى الجنود الفيتناميون لأنه كان عليهم تحميل الجثث على الشاحنات. تناقش الرقيب ميدلوك وضابط آخر معهم. وعلت حدة الأصوات. أخيراً قام الأمريكيان بتحميلهم وقام الفيتناميون بالمساعدة على مضض. كان الثور قد اشتد بعد أن تم تحميل الجثث على الشاحنة.

أخذت هيلين صورة للشاحنة المحملة بحمولتها البشرية التي كانت أشبه بمنحوتات من دائرة الجحيم. انحنت وصورت الشاحنة مثل جبل وكان التركيز حاداً على خط سير العجلات ونعال أحذية الموتى. ظلام الأدغال المحيطة والضوء على الطريق جعل المكان يبدو وكأنه أبعد بقعة في العالم.

قال أحد الجنود: «لننجز هذا المكان».

هدرت الشاحنات عائدةً إلى الحياة. ركبت هيلين في السيارة العالية مع ميدلوك بينما ركب لين مع الجنود الفيتناميين في الشاحنات.

عندما وصلوا عائدين إلى المخيم الرئيسي ذهب الأمريكيان إلى خيمة الطعام ليأكلوا بينما تمّ تحميل الجثث في المروحيات لنقلها إلى سايفون. لم تعرف هيلين ماذا تفعل إلا أن تقوم باللاحاق بالضباط ووقفت في صفٍّ لتنتظر دورها في الحصول على (همبرغر) وعلب من كوكيتيل الفواكه. جلست إلى الطاولة وأكلت الدراق بالملعقة مع أن طعمه كان قذراً بالنسبة لها.

«هل رأيت أسعار أجهزة الاتصال التي يبيعونها في القاعدة الأمريكية للتبادل التجاري؟»

«من الأسهل شراء أجهزة الاتصال ومبادلتها بالسجائر أو بيعها في السوق السوداء حيث يمكن كسب ثروة من ذلك».

قال ميدلوك مازحاً من آخر الطاولة: «سأبدأ صندوق تقاعدي هنا في سايفون». «المرّة القادمة التي أكون فيها في البلدة سوف أبدأ بتخزين الشوكولاته».

كانت هناك وقفةٌ ولحظة رعب لأن هيلين لم تسمع نصف كلماتهم فقد كانت تائهة في الشوكولاته الخاصة بذكرى الجندي ذي الشعر الأحمر المشقر، ثمّ سأل ميدلوك إن كان أحدهم قد رأى نتائج مباراة كرة القدم في الجريدة. لقد استمرّ العالم في الحياة.

كانت هيلين تشرب القهوة عندما دخل لين: «هل يمكنني أن أتحدّث معك؟».

شعرت بالإرهاق وعدم القدرة على التعامل معه. كانت علاقتهما متعبةً لكليهما. تنهّدت لكنّها لم تُرد أن تجعل الأمور أسوأ: «هل من الممكن تأجيل الموضوع؟».

«أخبرت دارو أننا عائدون إلى سايغون الآن، يريدك أن تطيري اليوم إلى (دلتا ميكونغ)».

قالت هيلين بتردد «أهو بخير حقاً؟»، «أما عن الأمس...». كانت هيلين تكبح مشاعرهما بما بدا أنه نوبة غضب من جانبها. «سوف أرى متى يكون وضعنا مناسباً للإقلاع».

مشى باستقامة مبتعداً لكنه لم يردّها أن تتلاعب به أكثر من ذلك فكان من الأسهل المحافظة على وضع مسافة بينهما. كان ذلك كله مقبولاً مع دارو. لكن هي أرادت أكثر، أرادت الكثير ودفعته خارج حدوده، فما أرادته كان أكثر ممّا كان قادراً أن يعطيه.

(8)

(تشا)

القرية

طار كل من هيلين ولين إلى منطقة ميكونغ الجنوبية في مقاطعة (آن غيانغ) التي حكمتها مجموعة (هوا هوا) وهي مجموعة دينية تابعة للبوذية. وكانت تلك المجموعة معارضة لمجموعة الفيتناميين الشيوعيين. كانت تلك المنطقة واحدة من المناطق القليلة الآمنة في تلك الأنحاء، وهناك قرردارو البقاء واسترداد عافيته.

كان الهواء حاراً ومبهماً والسماء تلونت بلون أزرق ملحي. انتشرت مستنقعات (المنغروف) السوداء لأميال كما لو كانت محيطاً راكداً متحذراً ومتصدعاً. مرواً بعد ذلك بروافد نهر ميكونغ. نمت أنواع مختلفة من المزروعات بغزارة كالباايا، أو الجريب فروت، نخيل الماء، المانغوستين، وكل أنواع البرتقال التي كانت تتساقط على الأرض إثر الأصوات المجلجلة لتنفجر أزهاراً حارة تحت أشعة الشمس. كان الثراب غنياً جداً من تفريغ المحاصيل على طول العام، ومؤونة الطعام المحلية بقيت وافرة حتى في وقت الحرب، مما سمح للقرى وسكانها بالاستقرار بشكل واسع حول القنوات والأنهار بدل

التمرکز بشكل ضيق كالمحرومين خلف سياج البامبو كما في الشمال.

بعد أن عبروا مهبط الطائرات الطيني استطاعت هيلين أن ترى دارو واقفاً بجانب سيارة جيب مع مدنيين آخرين. كان واقفاً باستقامة وبهيئة رسمية زيادة عن اللازم قياساً بهذا العالم الواسع الرطب. كأن يرتدي قميصاً أبيض قصير الأكمام وذراعه الأيمن مسنودة بحمالة قطنية، بدا أكثر نحولاً وشعره البني أقصر وعيناه غير ظاهرتين خلف لمعان نظارته.

أحنت رأسها تحت اندفاع محركات الطائرة وركضت لتعانقه حتى جفل عندما ضغطت على كتفه. تبعها لين منسياً. واقعة إصابة لين فاجأتها بقوة جديدة وأخافتها مرة أخرى: «هل أنت بخير؟».

«أنا بخير لولا معاملتك الخشنة». ابتسم وأبقى بينهما مسافة: «أقدم لك بعض الأصدقاء الذين عرضوا أن يستضيفونا حتى يشفى كتفي».

كان كلاهما يعمل لصالح وكالة التطوير في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يتعاملان مع إنتاج الأرز والري في المنطقة. كان (جيرى نيكولز) الأصغر بينهما يتمتع بوجه محروق من الشمس وشعر أشقر مائل للبياض متأثراً بوجه الشمس أيضاً مما أعطاه شكلاً لبني البشرية. صافح هيلين وابتسم وفمه يضيق بأسنان كبيرة. تمتع الرجل الآخر (تيد ساندرز) بشعر مقصوص قصير جداً وقد كان أيضاً عسكرياً متقاعدًا وعاملها بكل تهذيب ورسمية.

سأله هيلين: «إلى متى أنت باق هنا؟» أغضبها سلوك دارو أنه افترض عدم وجود شيء أفضل عندها لتفعله.

«تبدو هذه الأسابيع الأربعة كأنها إلى الأبد لكنني لم أقض عطلة منذ خمس سنوات لذا حان وقتها».

لم يلحظ أحد تردده إلا لين. هو فقط استطاع أن يفهم كيف كان دارو يساومهم والطائرة آخذة في الهبوط، كم مرة يمكن للمرء أن ينقذ نفسه دون أن يتعرض للأذى؟ كان يعتريه خوفٌ من أن ذاك التَّحطم قد جعله عاجزاً من جديد كما حصل في (إنغكور).

وصل لين إليهما وتحرك دارو ليعانقه. وبعد أن رأت هيلين الصداقة السهلة بين الرجلين. فكرت بمدى غبائها في معالجة الأمور.

«اعتنيت بها بشكل جيد».

«لكنك تعمل بلا إتقان من دوني الآن على ما يبدو». كان على استعداد أن يقدم أي شيء ليعود هو ودارو من جديد إلى القرية كما كانا في إنغكور. لقد غيّرت امرأة كل شيء.

«هذه المروحيات الملعونة تبدو غير قادرة على البقاء في الجو». صعدوا إلى سيارة الجيب، جلست هيلين على تلك المقاعد الكتانية المغبرة الحارة بعد أن داست على الأسلحة نصف الآلية الملقاة على الأرض. قاد (نيكولز) السيارة في طريق قصير مبتلّ وموحل إلى قرية صغيرة فيها منازل من قشّ تعرض دوائر واسعة في نهرهاو. توقفت سيارة الجيب أمام كوخ صغير في ظلّ أكمة من شجر النخيل وجوز الهند والمانجو.

«البيت السعيد». قال دارو.

سأله تيد: «هل أنت متأكد من أن هذا الكوخ مناسب؟».

«إنها فتاة تتمتع بدوق بسيط».

قال نيكولز: «لم نتحول إلى سگان أصليين هنا مثل دارو فإذا أتعبك المبيت هنا نستطيع أن نقدم لك شرائح اللحم وحمّاماً ساخناً».

«اذهبوا يا شباب فإذا غيّرت رأيها فسنأتي إلى الغداء».

تجاهل الرجلان لين الذي كان بالكاد يخرج من سيارة الجيب مع حقيبته قبل أن تمضي السيارة وتملأه بالغبار.

كانت مقدمة الكوخ شرفة ضيقة تطلّ على أرض موحلة وسقف من القش مدعوم بأعمدة من الخيزران. كما شكّلت أحواض من الصلصال أمثالات بمياه المطر حدوداً مع الخارج. كان الهيكل من الخيزران، أما الجدران والأسقف فقد تشابكت فيها أوراق النخيل مع طبقة من قش الأرز على القمة التي كانت رائحتها كالعشب الكثيف في حرارة ذلك اليوم ممّا ذكر هيلين بالنوم في مخزن الإسطبل عندما كانت طفلة.

كان في الداخل غرفة واحدة أرضها يملؤها الطين، فيها طاولة خشبية منخفضة تستخدم للأكل والجلوس والنوم. كان يوجد أوان فخارية مملوءة بالأرز حول أطراف الغرفة. وفي الزاوية كان هناك حزمة من البسط المحيكة.

كانت امرأة شابة ترتدي بيجامة زرقاء أسمها (نجان) تحمل صينية فيها أكواب صغيرة من عصير المانجو. دخل رجل فيتنامي أكبر سناً فانحنت له. كان رئيس القرية واسمه هوتنغ، رجل راق وأنيق بشعر فضي مسترسل وملامح قد ليّنها الزمن كما يلين الحجر الأملس. بعد أن رحب بهما بقي لفترة قصيرة وشاركهما بكوب من العصير قبل أن يغادر.

«منطقة (آن غيانغ) متعدّدة الجنسيات ونحن معتادون على الغرباء خاصة من الغربيين. وحفيدتي تعيش في سانت لويس» قال.

قال دارو: «حقاً».

«لم نسمع عنها منذ عامين لكنها أخبرتنا في رسالتها الأخيرة أنها في سانت لويس حيث يهطل الثلج. وتتحرك الأشياء بسرعة كبيرة».

«أنا متأكد أنها تقول الحقيقة».

«هكذا تعلمت الإنجليزية الممتازة».

تخيلت هيلين الحفيدة وهي تعيش وحيدة في المدينة العظيمة وتعمل لساعات طويلة في عمل خفي، لكن مع ذلك كانت مشهورة في مدينتها. بعد مغادرة هوتنغ حملت نجان حقائبهما إلى الداخل.

«عليّ أن استرخي على الأقل مرة واحدة في الشهر فما من فائدة لمصوّر بذراع واحدة. أتمنى أن أسترّد عافيتي خلال أسبوعين. فقلت لنفسي لم لا نأخذ استراحة واسترخاءً سوياً في القرية». أتمنى أن يكون الأمر بتلك البساطة. منذ الحادث وهو يصاب بالتعرق الليلي والأرق والاهتزاز وكل شيء يذكره بالانتقام. لم يتمكن من القول بصوت عالٍ إنه كان يتمنى أن تنقذه.

«وافترضت أنت أنني سأترك كل شيء؟».

التقط دارو يدها وقبلها. لم يتعود على كونها متحفظة وصعبة وكاد يتمنى صحبة النساء الوطنيات ورغبتهن المنصاعة له، وبعد وداع الرعيم عادت هيلين تحت ظل السطح وجلست، لكن لم يكن الطقس أكثر برودة من الوقوف على الطريق.

قال دارو: «ما رأيك يا لين؟ يبدو أنك بحاجة إلى استراحة أيضاً».

قال لين: «إننا بحاجة للقيام ببعض المهام».

«ابق هنا وخذ قسطاً من الراحة فقد جهّزوا لك مكاناً على الطريق». أراد أن يقول له ابق هنا بصحبتي.

«سأعود في نهاية الشهر». كان هناك حدسٌ ضئيل يخبره أن دارو كان يتوق أيضاً إلى الأيام الخوالي في إنغكور. لكنه بدلاً من ذلك قام بربط كليهما مع هذه المرأة الواحدة. تذكر كيف كانت ماي تغضبه ومع ذلك كان مستعداً أن يعطي أي شيء ليشعر بذاك الغضب من جديد، هل كان دارو يشعر بذات الإحساس مع هيلين؟

«ما الذي ستجده لتفعله هنا، هنا في وسط اللا مكان؟» سأله دارو.

تحدث مع نجان بالفيتنامية وضحكا.

«ما المضحك؟» قالت هيلين.

«المضحك هو قوله: إننا في وسط اللا مكان فالجميع يعرف أن هنا مركز الكون».

«لا تتصرف معي كما لو أنك مثل بوذا» قال دارو.

تكلم الرجال خلال الغداء عن معارفهما وعن العمليات القادمة التي يمكن أن يكونا مهتمين بها ويحصلوها، مع أنهما وافقا أن كل شيء يمكن أن يتغير خلال شهر.

«سأبقى على اطلاع بالأمور». قال دارو.

فاجأ هيلين كيف تصرف لين بشكل مختلف تماماً الآن حيث كان مسترخياً وصريحاً مع دارو بينما كان معها مرهقاً وشديد التكلّف. تنهد دارو ووضع طبقه جانباً وقال: «سمعت أنكما تعرّضتما لمشكلة خارج منطقة (بليكو)؟».

قال لين: «نعم، لقد أرسلوا حملة انتحارية، فانتظرنا إلى الصباح التالي ودخلنا».

توجّه دارو بحديثه إلى هيلين قائلاً: «هل كان الأمر سيئاً؟».
تابعت هيلين الأكل وقد أحرقها الدّل.
«لا بأس».

عندما كان لين جاهزاً للمغادرة، مدّ يده إليها لكنّها تحرّكت
حولته وعانقته، كان عرضاً صامتاً من أجل السّلام «عد بسرعة
ولنستمتع سوياً نحن الثلاثة، حسناً؟».

أوما لكنّه كان قد مشى في طريقه على الدّرب الطّيني. كان
يحبّ كليهما كلّاً على حدة، لكنّه كان يشعر بالخجل أنّه لم يكن
يريد أن يراها معاً.

سألت هيلين: «أين تظنّ أنه سيختفي؟».
«ربّما لديه فتاة جميلة صغيرة عرفها في البار أو أنّه جاسوس
لصالح فيت كونغ».
ضحكت «ماذا؟ لين؟».

«عليك أن تبدئي برؤية باطن الأشياء وتبحثي عن القصّة
الحقيقيّة».

«تذكّرني بأسلوب ماك كراي بحديثك هذا».
«كنّا في إحدى المرات في سوتشي وقد تحطّمت كاميرتي فقام بعمل
قطع احتياطية من لا شيء. قلقت على الفيلم وقال إنّ سيظهره في
ملجأ تحت الأرض إذا أردت بما أنّ المكان كان مظلماً، وقمنا بذلك
فعلاً تحت ضوء النّجوم. كان يسافر ومعه طبقان من الخزف؛ واحداً
من أجل مظهر الأفلام والآخر من أجل الذي يصلحها. كان يربط
حجراً صغيراً في نهاية الشّريط ويضعه في الجدول ليغسله. فقط
عناصر جيش فيتنام الشمالي يتعلّمون ذلك».

ضحكت هيلين وقالت: «أنت تمزح، هذا ليس لين، مستحيل».
جلس كلّ من هيلين ودارو عند باب الكوخ في وقت الغسق.

وقدّمت لهما نجان الغداء الذي كان عبارةً عن أطباق من الأرّز الدّبق والسّلطعون والقريّدس المقلّي مع الأرّز، ثمّ انحنّت وانصرفت. أرسل العاملون في الوكالة الأمريكيّة للتّطوير الدّولي بّرّاداً من الجعة وقامت هيلين بوضع زجاجة مثلّجة على رقبتها.

كان فيه شيءٌ من صفات المؤدّي عندما كان مع أناس آخرين، ولكن وحده كان يبدو متعباً وشارد الدّهن. ومع أنّها كانت سعيدة لوجودها هناك لم يكن لديها وقتٌ لتتباطأ في المهمّة. مرّرت يدها على النّدوب في ذراعه السّليمة، ودفعه جلده جعلها تشعر بمدى سعادتها لوجودها معه هناك مرّة ثانية.

«سأعرف على الأقلّ سبب هذا النّدب الجديد».

«إنّه علامة تدلّ على أنّ شيئاً أكثر سوءاً لم يحدث وأنّه علامة على أنّي قاومت وعشت».

«أوقفني لين عن الدّهاب إلى تلك الحملة».

«عن أيّ حملة تتكلّمين؟».

«في بليكو أردت أن أظهر كم أنا مذهلة وظننت أنّه كان جباناً

لعدم سماحه لي بالدّهاب».

«إنّها تجربة، لكنّه حارسك».

«من يحرسه هو إذا؟».

حلّ الظلام وهدأت الأدغال فجأة. والصّوت الوحيد المسموع

كان نبض الشّعلة في لمبة الكيروسين. وضرب الماء على القوارب

الرّاسية على طول ضفّة النّهر. حلّقت بعض الخفافيش الصّغيرة

فوق الأشجار والنّهر في دوائر واسعة كما لو أنّها ثملة.

«أحبّ هذا البلد وأحلم أن أصوّر الجنوب والشّمال وهما في

سلام». قال دارو.

«لماذا طلبت مني أن آتي إلى هنا؟ أعني أنه كان يمكن أن نلتقي في سايفون».

«هذه هي المرة الثالثة التي أكون فيها في مروحية وتعرض للإنزال، مرة نفذ الوقود وارتطمت بطرف الثلة، ومرة تم إطلاق قذيفة علينا، كان ذهني صافياً دوماً قبلها وجاهزاً لكن هذه المرة كل ما استطعت التفكير به هو أنت».

«هذا شيء جيد أليس كذلك؟»، ارتشفت هيلين رشفة طويلة من الجعة. كل كلماته كانت صحيحة لكنها تساءلت إن كانت قد أتت متأخرة على مسامعها. «ماذا؟ فكرت بي بالضبط؟».

قال: «لقد حولتني إلى شخص أناني وإلى شخص طامع أن يعيش الحياة من جديد».

في منتصف الليل أوقف هيلين صوت خشخشة على السقف. أمسكت بضوء كهربائي وأبعدت به الناموسية التي كانت تقيهم البعوض أثناء النوم ووجهته إلى الأرض. بدا لها في الضوء أبو بريص مائلاً إلى اللون الأخضر في الزاوية.

وفي فمه جسم عقرب يهتز. وبحركة سرية كما اللصوص مشت هيلين حول بساط القش ووقفت تشاهد الليل.

كان ضوء القمر الذهبي معلقاً فوق شجرات النخيل المعزولة. كان هناك برودة خفيفة في الهواء وما زادها روعة، شدة الحرارة التي سبقتها.

أعطت أسقف القش الباهتة المحيطة بالكوخ هيلين شعوراً بالهدوء والحماية. كل ما خطر ببالها أنها أرادت وأصبح في متناول يدها وكل شيء بخير. لو توقف الزمن في تلك اللحظة لكن شيئاً ما كان قد تغير مسبقاً.

لم يعد هناك مجال للعودة. لم يعد هناك مجال إلا للتقدم؛ صورة بعد صورة بعد أخرى. لم يكن المشهد أمامها هو نفسه لكنه لقطة لصورة محتملة. أوسع فتحة وأبطأ مصراع كاميرا موجود، كانت تخترق كل قطرة ضوء ممكنة. كان هناك تعدد بسيط للعمق، والتركيز كان على شيء واحد. لكن هل كانوا هم الشيء الذي وجب التركيز عليه؟

شاهدت عن مسافة امرأة عجوزاً تخرج من أحد الأكواخ وتمدد ذراعيها فوق رأسها تحت ضوء القمر. مشت إلى البئر وسحبت دلواً منه وشربت بشهية من المغرف، فصورتها. سحبت دبوساً من الكعكة التي خلف رأسها وتركت شعرها الفضفي الطويل ينسدل على كتفيها، فصورتها. مشت إلى حافة النهر وإلى رصيف السفن الخشبي حيث علقت قدمها الحافية على حافة القارب الذي كان يضرب بمرساة. لم تشعر بالإزعاج في الإبهام حتى توقف الضجيج. انحنت المرأة بحركات شخص خبير متدرّب وشدت الحبل أكثر. ثم مشت عائدة عابرة البئر بين أجمة من الأشجار. وباستخدام مصراع كاميرا بطيء بما فيه الكفاية كان من الممكن لتلك المرأة أن تختفي وتصبح شبحاً.

ظهرت نجان من حول زاوية البيت وقالت: «أحتاجين شيئاً أحضره لك؟».

«لا». أزعجها ظهور الفتاة المفاجئ قاطعة حبل أفكارها لكنها حاولت ألا تظهر ذلك وقالت: «لا أستطيع النوم».

طوت نجان قدمها ثم مدتها. راقبت هيلين ضفة النهر كما البلشون الأبيض: «ليل دافئ».

«من كانت تلك المرأة العجوز التي بجانب رصيف القوارب؟».

«لا أحد. هي مجرد امرأة عجوز. من الأفضل أن تعودى إلى النوم».

شاهدت هيلين نجان تختفي حول المنزل حتى قطع صوت دارو ذلك الهدوء بينما ضحكت هي بفيض كبير من السعادة لأنها لم تعد مستيقظة وحدها.
قال: «لماذا أنت مستيقظة؟».

«هذا المكان يشبه (جراند سنترال)، عدنى أن نبقى هنا إلى الأبد».

«تعالى ونامي. كل ما أعددك به هو فطائر الأناناس للفظور، وقضاء يوم في الصيد».

أدارت وجهها عن سواد وغموض القرية. استيقظوا عند الفجر وانضموا إلى اجتماع الفلاحين الذين ذهبوا إلى حقول الأرز بعد أن دعاهم إليه هوتنغ. طلبت هيلين من نجان أن تعد القهوة في الصباح لكن الفتاة لم تكن تعرف إلا كيف تغلي الشاي. عندما عاد دارو بعد أن أخذ حماماً كان يحمل بيده السليمة صينية فيها إبريق من القهوة الفرنسية وأكواب. صب كأسين بينما جلسا معاً يشاهدان الفجر يلون قباب أشجار النخيل.
سألت هيلين: «من أين حصلت على هذا؟».

قال وهو ينحني ويقبل عنقها وكتفها ومرفق يدها:
«الصحافي الجيد لا يكشف مصادره أبداً».

ثرثرت النسوة على الطريق الطيني لمسافة نصف ميل. بينما الأطفال كانوا يتنقلون جيئةً وذهاباً كما طيور السنونو. وكان هناك فتاتان صغيرتان تقصان قصة عن شبح يعيش في شجرة ويوزع المال. ضربتهما الأم على أذنيهما لأنهما كذبتا لكنها اعترفت أنها احتفظت بالنقود. عندما رأت الفتاتان هيلين

صرختا وركضتا بعيداً. بقي الرجال هادئين يدخنون سجائرهم
وعيونهم على السماء يستغرقون في طقس ذلك اليوم. على
حافة حقول الأرض خلعت النسوة صنادلهن وخضن في الماء المالح
قليلاً. ربطن قبعاتهن تحت ذقونهن ليحررن أيديهن وبدأن
بالحركة والثمايل إلى الأمام وإلى الخلف عبر صفوف حقول
الأرض الأخضر ليزلن العشب الضار.

إنه لمعجزة أن الحرب لم تلمس ذلك المكان. كان بالإمكان
الافتراض بأنهم يعيشون في وقت السلام لكنهم كانوا مدينين
بذلك إلى مجموعة (هوا هوا).

قامت هيلين بالتقاط الصور والاستماع إلى نصائح دارو
التي تخص الزراعة. أشارت إلى ثلاث فتيات صغيرات ليقتربين
أكثر بينما كن منكبّات على عملهن، ووجوههن مختبئة تحت
قبّعات مخروطية متطابقة. وما يميزهن عن بعضهن اختلاف
أشكال قمصانهن.

كانت مياه الصباح المضاءة بضوء الشمس تمتد خلفهن.
أحاطت بهن نباتات الأرض الخضراء البراقة الصغيرة كما لو أنها
ضربات ريشة رقيقة.

«هنا لديك الوقت لتحريك الأشياء. لكن في الميدان عليك
أن تجدي ملاذاً للصورة؛ كوجه جندي أو خلفية وحينها فقط
يبدأ التصوير، لا مكان للخطأ في التركيز على وجه. صوري
طوال اليوم، ومن الممكن أن تحسلي على صورة واحدة جيدة».

توغل جميع الفلاحين أكثر في الحقول وجلس كل من هيلين
ودارو تحت شجرة عند الضفة. تلاشت غيوم بيضاء عالية في
الحرارة المرتفعة حتى أصبح لون السماء أبيض قاسياً وفارغاً
كما قشرة البيض.

عندما لم يكن أحدٌ منتبهاً لمست هيلين دارو على صدره
وُكبتِه. وقد بدأ شعورها بالرضا بسبب قربه الجسدي وشعورها
بالتحفز الذي أحسّت به عند بداية وصولها، بدأ يتلاشى.

«تريّتين عليّ كما لو أنّي كلبك المدلّل».

«ماذا كانت لعبتُكَ المفضّلة عندما كنت صغيراً؟».

شاهدها تتمدّد على العشب وشعرها ملفوفٌ حول حلقها
وأجاب: «لا أذكر أنّني كنت ولداً صغيراً».

عدّلت هيلين جلستها وقبّلت جفنيه مع أنّ القرويّين
سيرونها. لم ترغب حينها بسماع تفاصيل حزينة. «أنت كلبى
المدلّل، كلبٌ ذهبيٌّ من النوع الصياد المكتشف».

عضّ دارو أصابعها بشكل خفيف وقال: «الصياد جائعٌ».
ظهرت نجان في وقت بعد الظهرو معها سلّة من الطّعام. وبعد
أن وضعتها خارجاً جلست في الظّل على مسافة منهما متجاهلةً
دعوتهما لها لتنضمّ إليهما. بدأت إحدى النّساء بغناء ترنيمة
رخيمة (كا داو) وانضمت إليها بقيّة النّسوة لغناء المقدمة.
قال دارو: «يظنّون أنّنا عديمو الفائدة، فلو كانت ذراعي أفضل
لأنضممتُ إليهنّ».

«حقّاً؟».

«نعم أكيد، لمّ لا؟».

وقفت هيلين وخلعت صندلها ورفعت (بنطالها) عند
القدمين.

«ماذا تفعلين؟ عودي إلى هنا».

دخلت إلى الماء فيما بينهنّ، فتوقّفت النّسوة عن العمل وبدأن
بالإشارة والتحدّث والضّحك بحماس. سارعت نجان إلى طرف
الماء وهي تضحك وتغطّي وجهها بيديها.

قال دارو: «كنت أمزح. جعلت من نفسك قارباً العرض». لكن هيلين لوّحت له بعدم اهتمام بما يقوله. كان يمتلئ بالحسد وهو يدرك اندفاعه السابق.

تفتّت الوحل بالماء بين أصابع قدميها وغرقت عدّة بوصات في الطّين ثمّ إلى منتصف السّاق واستطاعت أن تشعر بأشياء تضرّ بين قدميها كلّ مرّة كانت ترفع فيها قدماً، وهو انسحاب الطّين على كاحليها. ظهرت صورة مايكل دون دعوة، وتذكرت صراعه ضدّ سحب الطّين وهو عاجز يطلق نيرانه عندما خانتة المروحيّة وانطلقت، والألم والدّعر الذي أحسّ به عندما أدرك أنّه يُحتضر، لكنّها أبعدت تلك الصّورة عن مخيلتها سريعاً. لم تكن لتفقد ماء وجهها وتعود إلى الضّفة، فلوّحت بيدها وتوغّلت أكثر.

بعد أن انضمت إلى خطّ النّساء أرتها إحداهنّ طريقة زرع صفّ من الثّباتات. وعندما قامت هيلين دون قصد بنزع إحدى نباتات الأرز أمسكتها المرأة وأبعدتها بعيداً وهي تؤنّبها، وأعادت غرسها من جديد. كان هذا عملاً جاداً يشكّل فرقاً بين الأكل وعدمه. لم يكن هؤلاء النّاس سيئين، وهي والأمريكيون الآخرون لم يكونوا سيئين أيضاً، هي الحرب فقط التي جعلتهم يبدون على تلك الصّورة.

بدا المشهد جميلاً عن بعد لكنّ بالقرب من العمل كان الوضع مُرهقاً. عذبتّها الحرارة، ووجوه النّسوة يملؤها العرق والقطرات تسيل على أنوفهنّ وذقونهنّ.

أحسّت هيلين بالألم في ظهرها بعد ساعة من ضغط الانحناء المستمرّ فاستقامت لتهدئ الألم وهي تلکم أسفل ظهرها محاولةً تدليكه. استمرّت نظّاراتها الشمسيّة بالانزلاق فاضطرت أن

تضعها في جيبها. أعطتها إحدى النسوة قبعة لكن مع ذلك فإنّ الشعاع المنعكس على الماء أعماها فاضطرت أن تغلق عينيها نصف إغلاق لتري دارو والضفة. فاجأها مظهره من بعيد بكتفيه المنحنيين ورأسه المنخفض كأنه تماثل إلى الشفاء تقريباً.

بينما كانت الأقدام تحفر العمق ملأت الهواء رائحة عصيدة حامضة ورائحة طحالب خضراء ممتزجة مع عفن الفضلات التي تستخدم كسماد. غناء النسوة كان الشيء الوحيد الذي جعلها تستمر كأنه كان سحراً.

تذكرت صوت الإيقاع عندما كانت صغيرة تذهب مع والدها إلى القاعدة العسكرية لتأخذ تعليمات التدريب العسكري بينما كانت تنتظر بنعاس على طريق أرض الميدان المعشبة.

بعد العمل لنصف يوم تشكّلت البثور على يديها، أعادت القبعة ومشيت بإجهاد وتثاقل إلى الضفة. فقد أحسّت بتلك الطريقة المحدودة بما وصفه لين أنّه حجر في جدار غير مرئي إلا كجزء من كلّ. وعندما توقّفت على الأرض الجافة من جديد كان دارو متّكئاً على شجرة يقرأ كتاباً.

«بثور». قالت وهي تمدّ يديها وراحتها إلى الأعلى.

ابتسم وأغلق الكتاب وقال: «لماذا؟ علامة على المعاناة؟».

ابتسمت ومسحت يديها المبللتين بقميصه: «لن أكل الأرر مرة

أخرى بالطريقة نفسها».

كانت هيلين تشعر بالراحة في البداية لكونها بعيدة عن القتال لكن بينما مرّ الوقت عادت أفكارها إلى الجنود الذين التقت بهم، إلى ما حدث لهم وإلى معناه. ضايقها الفضول القديم وظنّت أنّها لن تستطيع الاستمرار وأنّها ستحتاج لأن تخلق عذراً لتسرع في العودة إلى سايفون من أجل الأهمية

البادية للأحداث ورغبتها أن تكون هناك لتنقلها. لكن مع مرور الأيام أصبح الأمر صعباً؛ أن تتذكر شكل وطعم الخوف الذي غمرها، فتوقفت عن تصديق قوة ذلك الخوف. أثرت فيها المسافة والأرض. وإغواء الحرب قد تلاشى وأصبح الهدأ وفقد وجهه المفترس. تقلص العالم إلى حجم قرية ثم انفتح مجدداً إلى اللانهاية في وقت واحد.

أصبحت حياتهما نسقاً من الإشراقات والغيابات للشمس، إضافة إلى همس الريح في حقول الأرز النامية، وإلى غيوم صباحية تتلاشى في حرارة بعد الظهر المعدنية اللامعة. تباطأت حركتهما إلى سرعة الأنهار الكثيفة الجارية وإلى هبوط ثقيل لأقدام جواميس الماء. أصبحت أذناهما معتادة على الشرنقة الفيتنامية، يعيشان كالأطفال الصغار غافلين عن المعنى إلا من اجتهد نجان والكلمات البطيئة التي تتطلب جهداً للفهم، كما لو أن نجان ممرضة تجعل كل شيء مريحاً. أفكارهما أيضاً أصبحت بطيئة وممتلئة بضوء الشمس الذي كان يمز بين أوراق النخيل والحرارة التي تُرخي العضلات، والضغط الذي أثر على جسديهما حتى أصبحت الحرب شيئاً خارجاً عن كيانهما.

جاءت الأمطار الموسمية ونقر الماء على أوراق الموز العريضة وأشجار المطاط التي سيّجت طريق القرية. فهناك رائحة المطر الثقيلة على الأرض، والقطرات تضرب على الأسقف القشبية، والجداول الصغيرة تتموج في زوايا الجدران.

بعد الظهر كانا يستلقيان في ظلام كوخهما تحت الشبكة الواقية من الناموس وهما يرتديان أخف الملابس، منقوعين في عرقهما. كان دارو يمزّر إصبعاً بكسل على ذراع هيلين الرطبة من الداخل وعلى رقبتها..

«سأخذك إلى سويسرا».

«حقاً؟ لماذا سويسرا؟» همست وهي مترددة أن تكسر اللحظة بصوتها.

«إلى نزل صغير فوق أعلى جبل وهو جبل (مونتني روزا) العالي جداً لدرجة وجود ثلوج في الصيف حيث سنلتجئ إلى فراش من الزيش أمام نار مستعرة ولن نستطيعي التذكر أننا شعرنا بتلك الحرارة».

«لنذهب الآن». كان ذلك كشفاً أنه بإمكانهما أن يكونا سوياً في مكان آخر من العالم، في مكان لا حرب فيه. «قريباً».

غيرت هيلين اتفاقهما الضمني بالآي تكلماً عن المستقبل بعد أن وعت أنها أصبحت قريبة جداً من الحافة. ومع أنها هي ذاتها لم تكن ترغب بالمغادرة، لكن تردده شجعها. قالت: «سأفتقد طبخ نجان وكيف تغطينا بالناموسية في الليل وهي كيف تستمع إلينا كل ليلة». توقفت وتابعت: «يجب ألا نكون هنا، أليس كذلك؟».

«ماذا تعنين؟»

«في هذا البلد».

«لا».

«إذاً لماذا نبقى؟».

«نريد أن نعرف نهاية القصة».

«كيف تظن أن قصتنا ستنتهي؟».

عبس دارو وقال: «كنت في أوروبا الشرقية أعطي الهنغارين الذين كانوا يهربون من بلادهم قبل أن يستولي عليها الشيوعيون. كان الطقس ليلاً أقل من درجة التجمد، والروس كانوا يجولون الأراضي الحدودية بأسلحتهم الآلية. كانت الأراضي هناك

مسطحة دون أي نقاط للاستدلال. وكان الناس يضيعون وهم يعبرون الحقول في الظلام ويمشون لساعات طويلة في دوائر فإما أن يتعرضوا للاعتقال وإما أن يموتوا بسبب انكشاف أمرهم. لذا كان المزارعون التمسائيون على الجانب الآخر من الحدود يبدوون بإشعال المواقد في حقولهم، والتي يمكن رؤيتها عن بعد أميال. ليلة بعد أخرى استمرت النار بالاشتعال حتى اضطروا إلى حرق محاصيلهم لتستمر النار بالاشتعال وإذا استطاع الناس الوصول إلى مسافة يستطيعون من خلالها رؤية النار. كان ذلك بمنزلة فرصة لإنقاذ أنفسهم. كان إشعال تلك النيران في ذلك الوقت يبدو كآه أفضل شيء يمكن فعله في العالم. فإن تسليطي لضوء صغير، ووجودي هناك جعلني أشعر أن حياتي أكبر مما كانت عليه من قبل».

كان هوتنغ يدعو دارو أن ينضم إلى رجال القرية حيث كانوا يجلسون في بيت شعبي بسيط في مركز القرية الصغيرة ليشربوا الجعة.

حاولت هيلين أن تقرأ إلى جانب ضوء المصباح لكنها وجدت التركيز على كلمات الصفحة مستحيلاً، كانت الكلمات في غاية التجريد والبعد مقارنة بضوء القمر بين الأشجار في الخارج أو الحلاوة الكثيفة للجريب فروت وبراعم ثمار (الفرانغيباني). أغلقت كتابها وأطفأت المصباح وحدقت في سماء الليل. كانت الكلمات غير مجدية لأنها وصلت إلى نقطة من السكون التام في حياتها، خالية من الرغبة فلم يكن هناك شيء يمكن إضافته ليخل توازن كمال الحاضر.

قلقت من كلمات دارو لأنها صدقتها إلى حد ما. صورة الكابتن تونغ خلقت عناوين، لقد فتحت الأعين ولم تجعل موت

الرَّجُل العجوز يذهب سدى. كما أن كلمات دارو جعلتها تشعر بأن حياتها كانت أكبر وأهم من ذي قبل. لكن لتعيد ذلك كان على هيلين أن تخرج في مهمات مرّة بعد مرّة بعد مرّة. تاقت إلى وجودها في ذاك البيت السويسري إلى درجة كادت أن تكون قادرة على أن تدير ظهرها للكابتن تونغ وكل من ماثله لتكون في ذاك الكوخ. ما خطب هذه الحياة الصغيرة الأنانية؟

كانت نجان تدخل في الليالي التي كانت فيها هيلين وحيدة وهي تحضر طبقاً من الماء المعطر ومنشفة تصرّ على أن تجعلها تستحم بها. عندما رفضت هيلين في البداية كانت نجان تصرّ حتى توافق هيلين وهي مترددة.

كان عمر الفتاة عشرين عاماً فقط وكانت أرملة وأماً لطفل في الثانية. كانت عيناها مشرقتين وصافيتين، وجبهتها عالية، وكانت هيلين تراها في غاية الجمال.

«لماذا ليس لديك حبيب يا نجان؟»

ضحكت وعصرت الماء من الإسفنجة وجعلته يسيل على ذراع هيلين: «لا أحد يهتم بي».

«ليس هذا ما سمعته. فقد قالت امرأة في القرية إنه تقدّم لك فلاح في منتصف العمر وقد تمّ رفضه».

ارتجفت نجان وقالت: «شخص يدعى (منه)؟ لقد درست لسنة واحدة في سايغون فأنا أريد أن أصبح معلّمة وأتعلّم المزيد من الإنجليز».

«لكن بلا حبيب؟»

عبست نجان وأدارت هيلين وتحركت حركات نظامية متكررة على ظهرها: «لا أريد أن أكون زوجة مزارع. أريد أن أعود إلى سايغون وأدرس لأصبح معلّمة».

«دُون (منه)؟».

وضعت نجان يدها على ظهر هيلين وهمست ضاحكة: «هو قبيح وكبير في السن ورائحته مثل الجاموس». وضحكت هيلين. «تريدين رجلاً شاباً ووسيماً؟» استطاعت أن تشعر برأس نجان يومئ على ظهرها.

«رجلٌ جيّد مثل زوجك».

لم تصحّ لها هيلين وقالت: «ألا يعجبك أحد؟».

«لين».

صمتت هيلين للحظة ثم قالت: «يا للهول!».

«ماتت زوجته ولا عائلة له ولا أولاد».

سحبت هيلين الغطاء حول نفسها وجلست وسألتها: «هو أخبرك بذلك؟».

ابتسمت نجان وأومات ووقفت لترمي محتويات القدر المليء بالماء بين الشجيرات: «أليس لديك صديقات من النساء أيضاً؟ هذا مناسب».

تظاهرت هيلين بالتثاؤب وقالت: «سأذهب إلى النوم الآن».

غادرت الفتاة الغرفة بعد أن لاحظت هيلين استقامة ظهرها والانحناء الرقيق لقدميها.

وحيدة ونفسها عميق وبطيء تأملت بمأساة عائلة لين. إذا كان معنى وجود المرء أن يكون حجراً في جدار، فماذا يعني عدم وجود أحد إذا؟ أن يكون الإنسان مركباً بلا مرسى؟ ماذا يعني في فيتنام ألا تكون جزءاً من عائلة؟ هل كان ذلك إجابة عن سبب الحزن الذي أحسّته؟ هل كان ذاك سبب إخلاصه لدارو؟ انتظرت أن تسمع خطا دارو وهي نصف نائمة، انتظرته أن يخلع ملابسه وأن يعبر الناموسية البيضاء المحيطة

بسريرهما حيث كانت تنثني خلفه لكي تجدها شفتاه، كان زوجاً بكل معنى الكلمة.

هدوء تام وتواصل تام، ومع ذلك كانت تعاني لتبقى في حاضرسعادتها حيث كانت أفكارها تعود بها مرّة بعد أخرى إلى لغز لين. كانت تفكر أيضاً بما حدث في الحملة في بليكو. سبرت خبايا تلك الحملة كما لو كانت ضرساً يؤلمها وهي تتحقق من تأثير أخطائها. لكن تلك الأخبار التي سمعتها من نجان أخذت حيزاً من تفكيرها أيضاً. هل كان صحيحاً أنه فقد عائلته؟ وماذا عن موقف دارو المتفائل من إمكانية أن يكون جاسوساً؟ إلى أين ذهب الآن بينما كانت تخيم في تلك القرية المنعزلة.

شكّت في أنها حتّى إن أغلقت عينيها عن شرور العالم في الكابتن تونغ لتعيش في سعادتها المنعزلة بكوخ في سويسرا، فقد كان ذلك خيار شخص أحمق لأن دارو كان قد اتخذ قراره منذ زمن بعيد قبل أن يلقاها.

تحول حذر القرويين إلى لطف، ودارو وهيلين مطوقان بحياة القرية. بذرة بذرة. انتهى قلق هيلين حين أصبحت جزءاً من جدار لين. كان التفكير بالعودة إلى المعركة جنوناً. لكن بينما استعادت ذراع دارو قوتها، قالت إنها كانت تستمع إلى شبكة فيتنام للقوات المسلحة على الراديو وكانت تقرأ آية صحف تستطيع أن تستجديها من مجمع المركز الأمريكي للتطوير الدولي.

كل صباح ومساء كانت هيلين تنضم إلى النسوة لتستحم في النهر في منطقة أعلى التيار في القرية وهن يضعن حولهن أغطية قطنية. كانت النسوة تتعزى تحت الضوء المخضر الذي يميز بالأشجار ويترك على الضفة. كن يغتسلن بالصابون بينما يتحدثن بعضهن إلى بعض، حيث تجد أجساد المراهقات

الجميلة الناعمة إلى جانب الأطراف القويّة الغامقة للنسوة الأكبر سناً. العديد من النسوة المتزوجات وقضن ببطون ناتئة بينما كن يرضعن أطفالهن من أثدائهن.

كانت نجان تبقي نفسها بعيدة عن هيلين أثناء الاستحمام. كانت الفتيات يشعرن بالخجل بالقرب منها. منذ حديثهما فكرت هيلين أنها ندمت على بوحها بأسرارها. وقفت فتاتان صغيرتان عاريتان في مكان ضحل وهما يغسلان أنفسهما وهيلين تشاهدتهما. نادتهما لكنهما ركضتا بعيداً.

أهدت هيلين الفتيات بعض ألواح من صابون (أيفوري) وسببت احتياجاً كبيراً عندما أخرجت شفرة وجلست على صخرة لتحلق شعر رجليها.

كانت قد استعادت بعضاً من الوزن الذي خسرت في المعركة. كانت تنام لساعات طويلة نوماً عميقاً بلا أحلام تغذيها الحياة الغنيّة من حولها.

كانت هيلين ودارو يذهبان أسبوعياً إلى المركز الأمريكي للتطوير الدولي الذي كان مقره في مبنى فرنسي استعماري قديم في البلدة المجاورة من أجل الطعام الأمريكي ولتبادل الحديث. كان نيكولز قد تقاعد لتوّه من الخدمة العسكرية وحاول الآن أن يؤسس مشاريع ليزيد الإنتاجية الزراعية. كان مسؤولاً عن بناء مخازن للأسمدة والمبيدات الحشرية والحبوب المطوّرة التي ستتم زراعتها. وقد تناقلت الشائعات أنه أحب نمط الحياة الذي يضمن له عشيقته الفيتنامية الشابة، كان لديه الكثير ليتركه خلفه إن قرّر الرحيل.

كلّما طال بقاء هيلين في القرية ساقّت أعذاراً أكثر لكي لا تزور المقر الخاص بالوكالة الأمريكية للتطوير الدولي. شعرت

بأنها خرقاء أمام الخدم الفيتناميين الذين كان يعاملهم الرجال الأمريكيون بطريقة سيئة. بدا دارو غير واثق أو أنه قد اختار ألا يلاحظ ما يجري حوله. كان يشرب الويسكي ويسمع الموسيقى بسعادة وهو يتصفح المجلات والجرائد.

كان صوت نيكولز وساندرز عالياً في محادثتهما والموسيقى التي عزفها. ارتجفت هيلين في هواء المكيف البارد. قطع لحم (الستيك) الكبيرة المشوية ومشروبات الكوكتيل التي لا تنتهي جعلت هيلين تشعر بالملل. قامت بالبداية بإحضار منشفة معها من أجل إظهار الوجه الحضاري لحمام ساخن. لكن بينما مرت الأسابيع وجدت نفسها تفضل الاستحمام في النهر.

خلال الأمسيات الطويلة كانت تشاهد عشية نيكولز في الساحة الخلفية؛ تلك التي كانت نساء القرية يتكلمن عنها. كانت في الخامسة عشرة فقط وعائلتها كانت قد تبرأت منها بسبب تلك العلاقة، لكنهم كانوا قد اشتروا قطعة أرض بمال كانت قد أرسلته. كانت قد تلقت أموالاً من نيكولز لتصرفها خلال أسبوع أكثر مما كان يكسبه والدها من الزراعة خلال سنة. لم يسألها نيكولز أن تشاركه الوجبات كما لو كانت فتاة ضالة، كانت تبقى جالسة في الساحة الخلفية على الطرف وهم يقضون أمسياتهم.

سألته هيلين وهي تأخذ قطعة من البطاطا الخمرية المخبوزة المستوردة من الولايات المتحدة: «لماذا لا تطلب منها أن تنضم إلينا؟».

استدار نيكولز ونظر إلى الفتاة التي كانت تمشي في الزدهة بكعبها العالي غير المتوازن: «(كيو)؟ هي أكثر سعادة عندما تكون وحيدة، تأخذ وقتاً للراحة».

«أنا متأكدة من ذلك». قطعت هيلين وجبة الستيك بسكين لحم كبيرة كمنشار.

أغلق نيكولز عينيه قليلاً وأصبح جلده أكثر احمراراً: «قلت إن لديها لساناً حاداً».

قال دارو: «قلت إنها كانت حادة جداً بالنسبة لك ولن تستطيع التعامل معها». نظر إليه نيكولز للحظة وبدأ بتقييم الأشياء ثم ليقرر أن يعد الأمر مزاحاً وينفجر في ضحكة عالية: «هذا هو، هذا ما قلته عنها، حسناً». ثم وضع (الكاتشب) في صحنه.

تحولت الغرفة إلى الصمت. ظل طعام ساندرز دون لمس، تنحنح ساندرز. كان قد فقد الكثير من الوزن منذ وصول هيلين ودارو إلى القرية. خمنوا أنه اعتاد على الغليون: «لا بد أنك تموتين شوقاً لتعودي إلى الحياة في سايفون».

أجابت هيلين: «ليس حقيقياً».

قال دارو: «أنا جاهز لفحص هذه الذراع، أرسل أحداً ما حالما تصل رسالة من مساعدي».

قالت: «هل تواصلت مع لين؟».

شعرت أنها تعرضت للخداع ليس فقط لأن دارو كان يخطط للعودة منذ البداية، لكن أيضاً بسبب شعورها بالرعب لفكرة العودة. لماذا اختار هذه الجلسة العامة ليعلن نواياه؟

ابتسم نيكولز وقال: «يا إلهي هل تسببت بأية مشكلات؟ كانوا قد قاموا مسبقاً بإسناد بعض المهمات لي».

قال دارو: «سأقوم قريباً بأخذ صور افتتاحات لبعض المحال في (أماريلو)».

«سأتنازل عن أي شيء لو استطعت أن أكون في سايفون الآن».

قال نيكولز وهو يبلع لقمة لحم صغيرة ويلحس شفثيه برقة.

«يبدو أنك بخير هنا». قال دارو مومناً برأسه في اتجاه الفتاة التي كانت قد غادرت. وكان قد تعمّد وخز هيلين مشيراً إلى نزعتها في الثمّلك.

«ساندرز كان يحصل على دخان الغليون وأنا أحصل على الهرة». نظر نيكولز باتجاه الفتاة التي كانت قد غادرت «لكن هناك الكثير من الخيارات المتاحة في سايفون».

استأذنت هيلين في الخروج إلى القاعة. كانت تكره أولئك الرجال وتكره دارو عندما يكون معهم. كانت تلك زيارتها الأخيرة. وضعت أحمر الشفاه أمام المرأة وهي تفكر في عذر للمغادرة.

جفلت عندما خرجت كيو من الغرفة كما لو أنها قد لاحظتها. بدت الفتاة أصفر سناً عن قرب. أشارت إلى أحمر الشفاه مبتسمة وهي تكشف عن السنّ الأماميّة التي بها ثقب كبير. أشارت إليها هيلين أن تجزّيه. أغلقت كيو شفّتيها بخجل ووضعت اللّون على شفاهها.

لم لم يأخذها نيكولز لتصلح سنّها؟ قرّرت هيلين بعد أن أحسّت بالحنق أن تأخذ الفتاة بنفسها إلى طبيب الأسنان. تأملت كيو اللّون الوردّي اللامع على شفّتيها بجديّة كبيرة، كانت شديدة الحزن والحكمة بالنسبة لعمرها. انسّي طبيب الأسنان، احتاجت الفتاة أن تؤخذ بعيداً عن هناك وتوضع في مدرسة. كيف يمكن لهيلين أن تتدبّر ذلك؟

أعادت كيو أحمر الشفاه لكنّ هيلين ربّتت حول أصابع الفتاة لكي تحتفظ بالأنبوب وقالت: «هذا لك». عندما دخلتا غرفة المعيشة كان نيكولز متمدداً على أريكة الجلوس وهو ثمل. نظر نظرة واحدة إلى كيو وقال: «تعالى إلى هنا! تعالى الآن!».

ظهر عرقٌ نابضٌ على صدغ كيو وكان يظهر مع اقترابها أكثر فأكثر.

قال دارو عندما وقفت هيلين ولا حظ عدم اقترابها للجلوس إلى جانبه: «دعها وشأنها».

أمسك نيكولز كيو من ردفها وسحبها إلى حضنه وهو يمسح فهما بكّمه: «تبدّين كعاهرة يا عزيزتي لا تبدّين بحالة جيّدة، عاهرة ومغطّاة بتلك الأشياء». ربّت على خدّها وقال: «تلك هي فتاتي، فتاتي الجيّدة النّظيفة».

استدارت هيلين ومشت خارجة.

قال نيكولز: «ما الخطب لا أريد منك أن تريها الأشياء السيّئة».

تعثّر دارو في الخارج على الطّريق الترابيّ عندما حاول إعادة لبس حذاءه: «هل سنمشي إلى البيت؟».

مشت هيلين في الطّريق دون أيّة كلمة. كان الظّلام والهواء الدّافئ مريحين.

«هل أنت غاضبة منّي؟».

«لا. ليس منك. لمّ لم تقلّ أيّ شيء؟».

«إذا كنت انتقائيّة فلن تحظي بالكثير من الأصدقاء هنا».

«لن أعود إلى هناك أبداً».

«حسناً لكنك تعاقبين الفتاة أيضاً».

تباطأت هيلين وهي تحرّك الحصى لتخرجها من حذاءها.

ضحك دارو وأمسك بذراعها. سألته: «ما الذي يضحكك؟».

«يا لك من صارمة وصالحة. وكم كنت غاضبة، لم يكن لديّ

فكرة أنّك هكذا».

لم تقل هيلين شيئاً.

«لقد أضعت تلك الميزة في الماضي لكئي معجبٌ بها الآن».
«أنت تسخر مني. وأنت لم تخبرني بخططك بالعودة إلى العمل». قالت، كانت تعلم أن غضبها لما حدث لكيو كان أيضاً غضباً لنفسها.

«كان الأمر، فلم أرد أن يكون شيئاً رسمياً».. قال دارو فجأةً بجديّة: «جميع الأشياء الجيدة تنتهي».

أثارت التّحضيرات لاحتفال الصّيف الهياج في القرية، وكان كلّ من هيلين ودارو مدعوّين للمشاركة. عرف هوتنغ خططهما بالمغادرة لكنّه أصرّ على بقائهما في الاحتفالات.

خرجت هيلين عن سكونها وكلّ ما استطاعت التّفكير به أنّها كانت تفقد شيئاً أرادته. لكنّها لم تستطع إخبار دارو ماذا كان ذلك الأمر وهو تفكيرها بالاختيار بين وجودهما معاً أو الحرب، فلن تستطيع أن تحصل على الاثنين معاً. بدا لها أنّها لم تستطع المرور خلال القرية من الخارج كما كان الوضع من قبل. كان من المستحيل عليها أن تغطّي الحرب بإحساسها بالوفاء لكلا الطّرفين المتنازعين على حدّ سواء. هل كان ذاك ما حدث لماك كراي؟ تساءلت هل كان موالياً لعدّة أطراف في الوقت ذاته؟

تمّ ذبح الخنازير وأخذت صرخات الدّبح تطاردها حتّى هربت إلى النّهر. عندما عادت كان البيت المشترك مليئاً بالمصابيح المعلقة. تمّ إجلاسهما في مكانٍ شرفيّ إلى جانب القائد. تكلم عن إمكانيّة غلاء تكلفة إرسال رسالة من أمريكا خاصّة سانت لويس ولم تعرف هيلين ماذا كان عليها أن تفعل إلا موافقته بالرّأي. قال هوتنغ: «أعرف أنّه يتمّ تشتيت الفتيات الشّابات. لكن كيف يمكنها أن تنسى أصلها ومن أين أتت؟».

تمايلت النسوة تحت صوان من الطعام والأطباق الشهية مثل الأرز الدبق، وكعك الأرز الحلو المسلوق، ولحم الخنزير المقطّع مع أغصان الخيزران، ثم شرب الأنخاب مع كحول الأرز المخمر. أمضى دارو ساعات طويلة مع المترجم في محاولة معرفة ما يجب عليهم المساهمة به. ثم تمت الموافقة على الجعة للكبار والآيس كريم للأطفال.

تم أخذ محراث مزين إلى حقل الأرز المشترك خارج القرية وكان ذلك خلال فترة بعد الظهر ليوم الاحتفال، حيث تم حرث أخدود احتفالي.

تجمع القرويون لاحقاً في المنزل المشترك من أجل طقس تشريع القانون الخاص بحصاد الأرز، لقد كان طقساً للخصوبة يتم فيه اختيار أربع من فتيات القرية لتمثيل الغيم والمطر والزعد والبرق.

تم نسيان العمل وترك الحقل دون رعاية، ولبست النسوة أفضل أثوابهن وغسلت الفتيات غير المتزوجات شعورهن بماء العطر وتركته منسدلاً طويلاً على ظهورهن. كانت هناك أطباق كثيرة من الطعام، وكان يمكن رؤية حشد من الناس منشغلين بلعب لعبة ما في أي ساعة تقريباً.

تعافت يد دارو بشكل جيد حيث كان بإمكانه التخلص من حمل الأشياء، وقام هو وهيلين بتصوير سباقات القوارب ومسابقات الطيارات الورقية ومسابقات طبخ الأرز وصنع كعك الأرز والقتال بالعصي والمصارعة والرقصات التقليدية.

قال دارو: «أحب هذا، سنسافر في أنحاء العالم ونقوم بالتصاميم الحضارية ونصور الحياة البرية في إفريقيا ولن يكون هناك حرب بعد الآن».

قالت: «أتعدني بذلك؟» محاولة ألا تُظهر مدى رغبتها في الإجابة.

في الليلة الأخيرة أضيئت الألعاب النارية على طول النهر وظهرت انعكاسات أشرطة من الضوء على الماء حيث هرب العشاق الشباب إلى الظلام. وضحك هوتينف لأن عدة زيجات جديدة سيتم الاحتفال بها بعد انتهاء الاحتفال الرسمي. كان قد حرّض نجان لتعيد التفكير بمشكلة (منه). رأت هيلين الاثنين يمشيان على نحو مريبك على ضفة النهر، ونجان عابسة لكن القائد هز رأسه وقال: «نجان رفضت الاستقرار فقد انتقلت إليها الأفكار الجديدة غير السعيدة».

في الصباح التالي عند الفجر عاد كل شيء إلى حالته الطبيعية والنسوة مختبئات من جديد تحت ثيابهن الغامقة وقبعاتهن المخروطية، والرجال منحنون لثقل جرافاتهم. عادت الحقول مسكونة من جديد وعاد الهواء ليمتلئ بالأغاني الاحتجاجية، وكان الأسبوع الماضي بعيداً ومنفصلاً كما لو أنه كان حلماً. حلمت هيلين حلماً ثالثاً يجمعها بدارو غير السفر إلى سويسرا أو الحرب، وهو البقاء في القرية عاماً كاملاً حتى الحصاد التالي.

تجاهلت حقيقة كتف دارو الذي تماثل للشفاء، لكن بعد انصرافها عن نيكولز وكُل من مثله. ذهب دارو وحيداً ليقضي أيامه في مجمع الوكالة الأمريكية للتطوير الدولي. كان قد غيب نفسه عن المكان مسبقاً قبل ذلك. كان بالكاد شيئاً قد بدأ ثم انتهى.

بينما كانت عائدة من الاستحمام في النهر في أحد الصباحات ظهر لين على الطريق فحقق قلبها. «أراك قد عدت» قالت له عندما أصبحا على مسافة تحدث مع بعضهما. مدت يدها ولمست ذراعه: «كنت مرتعبة من هذا اليوم طوال اليوم».

(9) (الجنّيات)

كان لين قد احتفظ بصورة مسبقة له مع هيلين حين كان غائباً، كان يحلم ويحدّق بها غالباً طوال الشهر الذي كان وقتاً صعباً لبعده عنها، لكنّه أجبر نفسه على ذلك الوضع. عندما لمحها للمرة الأولى على الطّريق الثّرابيّ صدم من كيفيّة امتلاء جسمها وكيف تحوّلت بشرتها إلى اللون البرونزيّ وبدأت أصغر سنّاً وظهرت ورْد في هيئتها لم يره من قبل. لكنّ حالما اقترب منها اخشوشن وجهها ونزل للأسفل عندما تعرّفت عليه فأصابه الجمود.

«قال دارو إنّهُ حان وقت الرّحيل».

«أعلم ذلك». مشّت بخطاها خلفه عائدين إلى القرية. كان أحمق وويّخ نفسه بقسوة لإضاعته وقتاً طويلاً في الأحلام. بعد ظهر ذاك اليوم سلّم لين هيلين إلى ذراعي دارو، كان رجلاً متعباً. وبعد أن استأذن منهما وهو يودع معدّات كاميرته في مجمّع الوكالة الأمريكيّة للتّطوير الدّوليّ، لبس ملابس فلاح بسيطة ومشى على الطّريق الثّرابيّ. وفي خارج القرية مشى إلى انحدار ضفّة النّهر إلى منطقة عشبيّة معزولة وخلع ملابسه ونزل ليسبح.

كان العشب على ضفة النهر كثيفاً وطويلاً. ظهرت فيه ضربات المنجل باتجاه معين ثم بالاتجاه المعاكس. كما لو أنه مرخٌ محصودٌ باليد. ذكرته البقعة بالمكان الذي كانت تغويه فيه ماي في أيام دراستهم وهي تغني له.

أحس بالمياه تغطي جسمه وكانت الوحدة متعة عميقة. وكانت راحته في عدم اضطرابه للكلام. ففي حياته الماضية كان يعيش في خياله كثيراً ويكتب في دفاتره وكان ذلك جهداً مستمراً ليبقي عقله متوجهاً نحو العالم محاولاً فهم الآخرين أكثر مما يفهم نفسه وليعيد كتابة أفكاره في لغة أجنبية. بعد سباحته أعاد تسلق الضفة العشبية ولبس ملابسه وغفا تحت الأشجار.

أيقظه صوت ضحكات الأطفال في وقت متأخر بعد الظهيرة. كانت هناك فتاتان صغيرتان تصطادان القريدس والسلطعون في المياه الضحلة من أجل الغداء. وكانتا منهنكتين في رش المياه على بعضهما أكثر من اهتمامهما باصطياد أي شيء. نهض لين مباغتاً الفتاة الأصغر فوقعت على ردفها في الماء. وبخته الفتاة الكبرى قائلة: «لقد أخفتنا».

قال لين: «أنا أسف، اقتريا مني وسأعطيكما هدية». ضحكت الفتاتان واقتربتا أكثر وأعطى لين كلاً منهما قطعة من علك الفواكه الطري.

كان وجه الفتاة الكبرى بيضويّاً ناعماً كحصى النهر المصقول، ربت لين على شعرها الحريري الشديد السواد وهي تقسم القطعة الأولى إلى نصفين وتعطي النصف لأختها وتضع الثانية في حزام خصرها المحيط بسروالها لتحفظها بأمان. سألت الأخت الصغرى: «هل تحكي القصص؟».

«كنت أفعل ذلك».

«أرجوك، أرجوك».

أجابها: «هناك قصة واحدة خطرت ببالي:

يحكى أنه كان هناك حطّابٌ فقيرٌ توفيت زوجته. وكان في غاية الوحدة. ورأى في السوق صورةً جنية جميلة فوقع في حب تلك الصورة. فأخذ الصورة إلى بيته وعلّقها على جداره وكان يحدثها في الليل واضعاً طبقاً من الأرز وعيدان الطعام أمامها في أوقات الوجبات.

عاد أحد الأيام إلى بيته فكان كوخه نظيفاً وكان هناك طعامٌ شهيّ محضّرٌ له ليأكله. كان ذلك يحدث كل يوم دون إشارة عمّن كان يأخذ على عاتقه الاهتمام به. فقرّر الحطّاب حلّ اللغز فتظاهر أنه ذاهبٌ إلى عمله في أحد الصباحات لكنه عوضاً عن ذلك عاد ليسترق النظر من خلال صدع في الجدار ليجد الجنية في الصورة تعود للحياة فيسرع إليها ويطلب منها البقاء والزواج منه، وكنوع من التأمين قام بوضع الإطار الفارغ في خزانة، فعاشا مع بعضهما بسعادة وأصبح عندهما ثلاثة أولاد. كبر الأولاد الثلاثة وأصبحوا بالغين أما الحطّاب فقد أصبح عجوزاً لكنّ الجنية بقيت صغيرةً وبشكلها نفسه؛ ذلك الشكل الذي كانت عليه عندما خرجت من الصورة، لأنها خالدة. بدأ أهل القرية بالكلام عليهم وقَرّر الأولاد في النهاية مواجهة أبيهم وعندما أخبرهم بالحقيقة رفضوا تصديقه. فتح الأب الخزانة بغضب وأظهر لهم الإطار الفارغ كدليل على كلامه لكنهم مع ذلك استهزؤوا به. عندما غادر إلى العمل واجه الأولاد أمهم التي أنكرت حتى ذكروا لها الإطار فتوسّلت إليهم أن يردوه لها وعندما فعلوا اعترفت بالحقيقة وودّعتهم وعادت إلى الصورة إلى الأبد».

سألت الفتاة الصغيرة: «هل عادت الجنية؟»
 «نعم في الحقيقة يوجد جنية في قريبتكم الآن».
 «حقاً؟ أين؟»

«ابحثوا عنها، لها شعرٌ ذهبيٌ طويلٌ».
 «من أنت؟» سألت الفتاة الكبرى.
 «أنا شبح هذه الشجرة ألم تتعرفا علي؟»
 «لا».

«في كل مرة تأتي فينا إلى هنا سأعرف إن كنت فتاةً صالحة
 وقمت بالتقاط السمك من أجل أمك».

«لقد كنا سيئتين اليوم فقد لعبنا ولم نصطد أي سمك».
 ضحك لين ومدّ يده في جيبه وأخرج بعض النقود المعدنية:
 «أخبرا أمكما أنكما وجدتما هذه في الطريق لكي لا تعرضا
 نفسيكما للمشكلات هذه الليلة على الأقل».

مالت الفتاة الصغرى ولمست ركبته: «أنت شبح؟»
 أوما لين ببطء محاولاً جهده للتصرف كشبح.
 سألته: «هل ستكون هنا غداً؟»

«سأكون هنا دائماً، لكن ربما لن تكونا قادرتين على رؤيتي».
 استلقى لين عند الغروب على العشب الدافئ على الضفة
 واستنشق الرائحة الثقيلة لزهور الجريب فروت في هواء المساء.
 أغلق عينيه متذكراً رائحة شعر ماي بعد أن تغسله وتضيف إليه
 بضع قطرات من زيت الحمضيات لتبلمه فكان العطر يتغلغل
 في سريرهما، وعندها كانت تستلقي وتجعل الغرفة أيكاً مظلمة
 ليجدها فيها. خصص لنفسه فكرة واحدة عنها في كل يوم، وإلا
 لما كان قادراً على الاستمرار. كان يکنز ذكرياته كما كان الرجال
 الآخرون يکنزون السجائر أو الشوكولاته.

كان اليوم هو الذكرى السنوية الثالثة لوفاتها وكانت فترة الحزن الرسمي قد انتهت لكنه أحس أنه كان قد فقدتها منذ مئات السنين، وأيضاً فقط البارحة.

كان في بعض الأوقات يصاب بالفرع عندما يشعر أنه غير قادر على تذكري تفاصيل وجهها بوضوح كما من قبل. كان قلقاً على آلاف الذكريات لجسم اختفى من ذاكرته. كان الوقت كالكيماويات يدفع الصورة بعيداً جداً ويغلفها بالضباب، ألمه أنه كان يعتمد على عدة صور لها أكثر وأكثر، وكان كل ما يجعله يحبها هو شيء غائب عن الصور. بدت الصور قليلة الوفاء كأنه كان ينظروا يحلم بشخص غريب.

استيقظ وقت الفجر في الصباح التالي واغتسل في النهر من جديد وانطلق إلى مكان (كان ثو) وهو يتمنى أن يركب مع الغرباء في رحلتهم إلى الشمال. حالما وصل ذهب إلى مقهى خارجي وجلس على طاولة مستر باو.

كان قد رأى مستر باو منذ شهر لكن رأى وزنه زائداً جداً وكأنه لم يره منذ عام.

قال باو: «ما الذي أحرّك؟».

«لقد احتجت وقتاً للمغادرة».

«لم يكن هناك شيء جيد بقدر صورة الكابتن تونغ منذ أن تحدثنا آخر مرة».

أشعل لين سيجارة.

«لماذا ليسوا معك؟».

«دارو جريخ وهم لا يذهبون إلى المكان الذي أرشدتهم إليه بل بالعكس أنا خاضع لإرشاداتهم».

«أنت صديقهم، مهّد الأمر لذلك».

كره لين مقولة باو الكونفوشية ومكره الفلاحى. كانت تلك الخطب المملة تغمر الحفلة.

غَيَّر باو اتجاه الحديث: «كيف حال عائلة زوجتك؟».

«لا أعرف، أتصور أنهم ليسوا بخير منذ أن تواصلوا معي».

أوما باو: «عليك أن تؤدّي واجبك تجاههم كما تؤدّي واجبك تجاه بلدك».

ازداد غضب لين: «ما علاقة أداء الواجب ببيع الأفيون؟».

ضحك باو ضحكة خفيفة: «لقد نسيت مع من تتكلم».

«دارو وهيلين في القرية يتعلّمان كل شيء عن فيتنام. أظنّ أن هذا أمرٌ جيّد».

«وأفئك، في المرة القادمة التي أراك فيها، لديّ قائمة تسوّق؛

الخبز والسجائر وريّما البراندي هذه المرة».

طاف لين في قرية عائلته أوفي ما بقي منها بعد غيابه

عنها منذ الليلة التي أخذوهم منه فيها. كانت (ثاو) أخت

زوجته تعيش في كوخ مجاور. وحال وصولهم إلى سايفون تمّ

إلقاء القبض على زوجها وتقديمه إلى الجيش ممّا أجبرها على

العودة إلى القرية لبقائها دون دخل. ثم تواصلت مع لين بعد

انقطاع أخبار زوجها لمدة عام.

لم يخبرها أنّ إصاباته مع جنود جيش فيتنام الجنوبي

كانت جسيمة. حيث كان الضباط يلقون بالموظفين الذين

خضعوا بالكاد لتدريب بسيط إلى أوضاع خطيرة ليرضى عنهم

مستشاروهم الأمريكيّون، وهم يبقون بعيدين بأنفسهم عن أية

أحداث.

«لَمْ لا يخبرني أحدٌ إن كان حيّاً أم ميتاً؟» قالت. لم تكن ثاو

ممن يضخمون الأمور ويعطونها أكبر من حجمها: «كيف لي أن أتزوج مرة ثانية إن لم أعلم؟».

قالت إن أصحاب زوجها كانوا يتنقلون في منطقة المثلث الحديدي عندما رأوه آخر مرة. النكتة كانت أن الحصاد الأساسي من المنطقة هو المناجم. خمن لين أنه تم التفاوض عن الجثة. شعر لين بالاكئاب بعد السلام الزائف لجيانغ في تلك المنطقة التي ترك فيها هيلين ودارو. كانت الحقول مليئة بالأعشاب وجواميس الماء التي تتضور جوعاً بأطرافها الجذابة. كان يشاهد العائلات تحمل مقتنياتهما وتدير ظهرها عن تراث الأجداد. وكانت الطرقات مسدودةً واللاجئون يشكلون أنهاراً لا تلين، تصب في المدن الساحلية في (نهاترانا) و(دانانغ) وسايغون. كان أسفاً من سوء تصرفه مع مستر باو.

كانت قرية ثاو تخضع لعملية تفكيك، حيث يتم هدم الأكواخ قطعةً قطعةً ويتم نقلها إلى مكان آخر أكثر حظاً. وكان بعض القرويين يحزمون أمتعتهم للرحيل وآخرون يبقون بين حطام منازلهم. وفي الأسبوع الذي سبق تعرضهم للتفتيش من الجند كشفوا عن مخبأ أسلحة تحت أحد الأكواخ وزوادة كبيرة من الأرز تحت كوخ آخر. تم تفجير الأكواخ والمستودعات وتدمير محتوياتها مع الحفاظ على البشر.

كان كوخ ثاو لا يزال موجوداً. وكانت جالسة على الأرض في الداخل شاحبةً وعيونها حمراء. كان لديها طفلان؛ فتاة عمرها أربع سنوات وصبي كان لا يزال يرضع من ثديها. عندما ظهر لين بالمدخل، نظرت ثاو إليه دون أن تتفاجأ.

«جيد أنت هنا. لا نزال قادرين على إحياء الذكرى السنوية

لوفاة ماي».

«هل أنت بخير؟».

«نحن على قيد الحياة. لكن ما الهدف؟».

وضع ذراعه على كتفها. أعاد شكل وجهها والطريقة التي وضعت يديها على يديه ألم غياب زوجته.

قالت ثاو: «أشعر بالعار، أنت هنا وليس لدي أي أرز أو خضراوات أو حتى بخور لأحيي ذكر أختي».

«اجمعي أغراضك، سنغادر».

«إلى أين؟».

«سأدبر لك مكاناً للعيش في سايفون، فاستطيع العناية بك وبالأولاد أكثر هناك».

أحنت رأسها وابتعد الطفل عن صدرها. رأى لين حلمتها صغيرة وليئة. وخمن من حول الطفل أن حليبها كان قد جف.

«كيف تستطيع تحمل نفقة إعالتنا؟».

«الأمريكيون يعطونني أجراً جيداً».

أعطت ثاو الطفل للفتاة لكنها أبقت قميصها مفتوحاً: «كنت دائماً شخصاً عملياً أكثر من إخوتك لأنك تلتصق بالزابحين في الحرب».

ردّة قائلاً: «ستحصلون على علاج. الأطباء والأدوية في سايفون ونستطيع شراء الحليب».

نظرت إلى ثدييها وهي تضغطهما بطرف إصبع حتى تشكّل سائلاً حليبيّ عليهما وقالت: «لم أكل شيئاً منذ أيام».

هذا الاتصال الفجائي مع عالم النساء أريك لين، وشبهه ثاو بماي أشعل نيرانه. أبعد نظره عنها حتى لا تلاحظ ارتفاع حرارة وجهه كأنها كانت تشعر بوخز العار والضيق في جسمه: «ستحسن الأمور الآن».

تمايلت وهي تحاول الوقوف على قدميها وتحدثت مع الفتاة
بحدة وأمرتها أن تعتني بالطفل. نظرت إلى لين وأغلقت سترتها:
«إذا تظن أنه قد مات؟».

«إذا كان على قيد الحياة فسيجدنا في سايفون».
جمعت ثاو صوراً صفراء من الهيكل لوالديها هي وماي وعدة
أطباق من البورسلان الرقيق ومشط شعر بالياً ووضعتها في
سلة.

قالت وهي تضع الملابس في السلة: «إذا كان ميتاً فستكون
رغبة ماي لنا أن نتزوج».

«علينا أن نلحق بالقافلة الأخيرة، سنأكل غداً مساءً طبقاً
حاراً من لحم الخنزير والمعكرونة».

ضحكت ثاو ضحكة ارتياح ووضعت يدها على فخذه. أخذ
يدها ووضعاها بين يديه ثم تركها.

«سأحاول أن أعمل مغنية عندما أستعيد عافيتي وأمتلئ من
جديد».

«لا تقلقي يا أختي، سأؤكد من بقائك آمنة من أجل ماي».
توقفت ثاو عند الباب في أكثر بقعة ضوء تظهر جمالها
وقالت: «أتشعر بالوحدة دونها؟».

«الحرب تشئتني».

«ألم تلاحظ أن الكثير من الأولاد يولدون في الحرب».
وقف لين في الخارج حاملاً الفتاة الصغيرة بين ذراعيه. ثم
حاول تهدئة ارتجاف يديه. لم تكن ثاو هكذا من قبل وعرف
أن اليأس جعلها تلقي بنفسها عليه بتلك الطريقة ومع ذلك
أزعجه الأمر. نظر إلى أجمة النخل وتمنى أن يعود إلى الكوخ
في (إنجيانغ).

بدأ دارو بإعادة الاتصال مع لين بعد ثلاثة أسابيع لكنّ
لين أجاب بأن لديه أمراً يشغله في سايفون ويحتاج إلى أسبوع
إضافي. بعد وصوله وانتهاء الاحتفال جهّز دارو خططه للمغادرة
بينما كان مزاج هيلين يسوء أكثر فأكثر.

اقترح هوتنغ رئيس القرية رحلة وداعية لاستكشاف الأماكن:
«عليكم أن تتروا هذا، قلب المقاطعة، فالغرياء لا يعرفونه». ظهر
قاريان مسطحان بسوار. واقتسم كلّ من دارو وهيلين ولين
وهوتنغ قيادة القوارب. هيلين جلست في المقدمة ووجهها بعيد
عمن يحيطون بها في تأمل ساكن.

ذهبوا في البداية إلى فروع مختلفة من نهري ميكونغ وباساك.
كانت ألوان الأنهار تتغير من الأخضر إلى الأحمر إلى البني وتمتلئ
بالشقوق الثقيلة المتزايدة الآتية من الجبال. كانت القوارب متجهة
إلى جانب جدران من النخيل المائيّ بدت غير قابلة للاختراق ثمّ قام
أحد رجال القارب بتوجيه مقدمة القارب باتجاه فتحة ودفع جانباً
بعض أغصان العنب فوجدوا أنفسهم فجأة يبحرون في قناة شريطية
ضيقة لا يزيد عرضها عن عرض القارب نفسه. شرح لهم القائد أنّ
أبناء البلد فقط هم من يستطيعون الإبحار هنا، والمياه الجارية
لا يمكن توقعها حيث إنه يمكن لأربعة أقدام من الماء أن تتحوّل إلى
وحل في غضون ساعات وتسبب للقارب أن يجنح عن مساره.

كانت أغصان النخيل على الجانبين تلمح الموجودين على
القارب وقد أسقطت قبعة هيلين عن رأسها. كان الهواء قريباً
وثقيلاً وملئاً بالحشرات.

«أيزعجك الذباب يا حبيبتي؟» سألتها دارو بطبيعته الجيدة
وهو يعرف غضبها ويشعر بارتياح أكثر لمعرفته أنّها رغم كلّ شيء
مثل باقي النساء.

مَرَوْا عَلَى أَكْوَاخٍ وَحِيدَةٍ مُوَاكِفَةً لِلْمَاءِ وَمَذَاخِلَهَا مَلِيئَةٌ
بِالدَّجَاجِ الَّذِي يَبْحَثُ بَيْنَ الْقِذَاذِ وَرَاتٍ، وَأَطْفَالٌ عَرَاءٌ وَعَجَائِزُ
يَدْخُلْنَ الْغُلْيُونَ. عَاشَ الْفَلَاحُونَ هُنَا مِنْذُ حَصَادِ الْفَاكِهَةِ وَالزُّهُورِ
فِي عَمَقِ الْأَدْغَالِ وَتَنَقَّلُوا بِالْقَوَارِبِ حَيْثُ كَانَ الثَّنَقْلُ عَلَى الْأَقْدَامِ
مُسْتَحْيَالًا.

فِي كُلِّ مَكَانٍ تَوَقَّفُوا فِيهِ كَانَ الْأَطْفَالُ وَالنِّسَاءُ يَسَارِعُونَ
لِلنَّظَرِ إِلَى الْوُجُوهِ الْبَيْضَاءِ. أَنْهَتْ هِيلِينُ تَوَزِيعَ الْكِيسِ الْمَلِيِّ
بِالْحَلْوِيَّاتِ الَّذِي أَحْضَرُوهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى وَجْهِتِهِمْ بِوَقْتِ
طَوِيلٍ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي وَسْطِ جُزْءٍ وَاسِعٍ مِنْ نَهْرٍ
الْمَيْكُونُغِ تَشَكَّلَتْ مِنْ رَافِدَيْنِ تَجْمَعَا وَقَدْ تَرَسَّبَ الطِّينُ فِيهِمَا.
«الْأَنْهَارُ فِي مَنَاطِقِ الدَّلْتَا تَغْيَرُ اتِّجَاهَهَا فِيمَا أَنَّهَا تَتَزَايَدُ
وَأَمَّا أَنْ تَجَفَّ وَتَتَشَكَّلَ الْأَرْضُ مِنْهَا، كُلُّ شَيْءٍ دَوْمًا فِي حَالَةٍ
تَغْيِيرٍ». قَالَ هُوتَنْغُ.

قَالَ دَارُو عَابَسًا: «تَبْدُو مَتَعْبًا يَا لِينُ». كَانَ هُنَاكَ بِالْفَعْلِ دَوَائِرُ
سُودَاءٍ تَحْتَ عَيْنِيهِ وَنَحْوُهُ أَصْبَحَ حَادًّا: «هَلْ كَانَتْ عَلَى الْأَقْلِ
جَمِيلَةٌ؟».

ابْتَسَمَ لِينُ الَّذِي كَانَ يَرِاقِبُهُمْ مِنْذُ عَوْدَتِهِ وَكَيْفَ كَانَتْ عَيُونُ
هِيلِينِ تَطِيلُ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ دَارُو بِتَسَاوُلٍ.

قَالَ دَارُو: «رَبِّمَّا عَلَيْكَ الْعُودَةُ إِلَى الْحَرْبِ لَكِي تَسْتَرِيحَ».
قَالَ لِينُ: «رَبِّمَّا عَلَيْنَا أَنْ نَذْهَبَ لِنَرْتَاحَ سَوِيًّا». انْفَجَرَتْ هِيلِينُ
بِالضَّحْكِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى مِنْذُ وَصُولِ لِينِ.

عِنْدَمَا رَبطُوا الْقَوَارِبَ عِنْدَ الضَّفَةِ الْمُنْحَدِرَةِ تَسَلَّقُوهَا.
كَانَتْ الْحَرَارَةُ فِي غَايَةِ الْكثَافَةِ فَخَمَنْتِ هِيلِينُ أَنَّ الْأَنْهَارَ تَغْلِي
مِنْ جَرَّائِهَا. شَرَبُوا الْمَاءَ وَأَكَلُوا الْأَرْزَ الْبَارِدَ عَلَى الْغَدَاءِ ثُمَّ تَمَدَّدَ
الْقُرُوبِيُّونَ تَحْتَ الْأَشْجَارِ لِيَنَامُوا.

سأل هوتنغ: «متى ستعودون إلى أمريكا؟».

قالت هيلين: «قريباً».

«هل يمكنك - ربما - الذهاب إلى سانت لويس للاطمئنان على حفيدتي».

قالت هيلين: «إنها بلدة كبيرة جداً». وبعد أن رأت خيبة الأمل على وجهه تابعت: «أعطنا عنوانها».

ابتسم هوتنغ مرتاحاً أن مهمته تحققت. أشار الرئيس إلى كل من هيلين ودارو ولين للحاق به لاستكشاف ما في الداخل: «يوجد معبد في مركز الجزيرة».

«تعالى إذا». قال دارو ممسكاً يد هيلين.

دفعوا حاجز الأجمة الكثيف وتوجهوا في طريق ينمو فيه الكثير من الثبت. كل بوصة من هذه الأرض تمتلئ بالأوركيد الأرجواني الضخم، كان نمواً عنيفاً وافراً وكثيفاً.

تخلف لين وراء البقية لكنه توقف عندما رأى الأزهار وقال: «سأنتظر عند القوارب».

قال دارو: «لا، تعال لن نأخذ وقتاً طويلاً».

«أفضل أن...».

«تعال».

كانت الزهور المعلقة من الأشجار بشكل عنيف وبكثرة على الأرض وبين الصخور الكثيفة تختنق في الازدحام البري لا ترى الضوء وهي محبوسة فيما يشبه الظلام تحت قباب أشجار النخيل الكثيفة وأشجار المطاط.

قالت هيلين وهي تتحرك باتجاه بحر الأزهار ومزاجها السيئ قد تحول إلى فرح: «هذه حديقة مسحورة».

أخذت برعماً صغيراً في يدها وقربته من أنفها لكن الرائحة

كانت رائحة عفن خفيفة فقط. وضعت الزهرة خلف أذنها على كل الأحوال.

التقط لها دارو صورة عندما استدارت وقال: «تلك هي فتاتي». «هذا ليس عدلاً».

«انظري إلى هنا مرة ثانية».

«لا».

اقترب دارو خطوة أخرى في الخضرة الكثيفة وقال: «هيا». «لا». ضحكت هيلين وركضت وهي تسحق الطريق وتطؤه بقدميها بما عليه من أغصان العنب والأوراق وبتلات الزهور. «عودي إلى هنا». صاح دارو ضاحكاً وهو يركض خلفها.

ركضت وهي تتصبب عرقاً. ثم ركضت أسرع لسماعها الخطأ التي تركض خلفها وتابعت دون اهتمام حتى مرّ ظل فجأة من أمام وجهها ونظرت إلى شجرة (بانيان) ضخمة كان يتدلى منها مئات من زهور الأوركيدا تلونها بشعلة من اللون الأرجواني.

كانت هناك زهرة أوركيدا معلّقة من غصن طويل وبدت كبيرة ورائعة بشكل خاص. خطت خطوة أخرى لتصل إليها وتعثرت بجذع شجرة مختبئ في الأجمة السفلية ووقعت فوق النباتات.

«هل أنت بخير؟».

انحنى دارو إلى جانبها بينما ضحكت ولقّت على ظهرها، انحنى هو ونفض الثراب عن ركبتها بينما وصل إليهما لين ورئيس القرية.

«هل تأذت هيلين؟».

هز دارو رأسه وقال: «ليس بعد».

نهضت وهي تفتش الأرض عما كان يخز ظهرها والتقطت
عصوين بيضاوين صغيرتين. قرّبتهما منها أكثر وبدأت ابتسامتها
بالتلاشي عندما أدركت أنّهما كانا عظاماً وأرتهما لدارو.
«عظامٌ بشريّة؟»

«هذه الجزيرة مقبرة». قال هوتنغ مسروراً.
سألته هيلين: «لمّ لم تخبرنا؟».

«إنّهم يدفنون الرّهبان هنا. كان أوّل راهب ناسك يعيش هنا
وحده. وعندما أتى القرويّون لرؤيته بعد موسم الرياح وجدوا
عظامه هناك فقط وزهرة أوركيّدا أرجوانيّة تنمو من قفصه
الصدريّ. قيل إنّ الأزهار هي إظهارٌ لتنويره، ونحن نقول إنّها
الحظّ الجيّد».

أسقطت هيلين العظام على الأرض. لوّح هوتنغ بذراعيه
مشيراً إلى هيلين بينما كان يتحدّث: «احتفظي بها فهي تجلب
الحظّ الجيّد».
«ماذا تعني؟».

«تعالِي، أنت لا تصدّقين هذا الهراء». قال دارو.
هزّ لين رأسه وقال: «الحظّ الجيّد. بعض النّساء يأتين إلى
هنا لتصلّين لأنّهنّ يردنّ الأطفال أو لأنّ لديهنّ البنات فقط،
وأخريات يأتين للنّسيان».
سألت هيلين: «للنّسيان؟».

«لينسين أحزانهنّ. فإذا كنّ في غاية الحزن لا يستطعنّ
تحمل أرض الأحياء».
نظرت إلى لين والتقت عيناها وقال: «سأنتظر عند
القوارب».

قالت هيلين: «أنا أيضاً». اختفى المزاج الطيب وبدت الجزيرة

الصغيرة الآن مظلمة وتصيب برهاب الأماكن المظلمة.
«ألا تريدان رؤية المعبد؟ أنتما لا تحبان المرح». قال دارو.
أزاحت هيلين العظام بحذائها إلى تحت الأجمة. ووقفت وهي
تنفض عن نفسها الغبار. ركع هوتنغ وهو يشبك يديه ببعضهما
كما الحكيم وأخذ يغني بصوت خافت.
كأنه كان ينتظر هذه اللحظة، خلف الشجرة ظهر راهب
يرتدي اللون البرتقالي مشى إلى منتصف الطريق وانحنى لهم.
عاد لين وتحدث معه مطولاً.
«هذا هو الراهب الناسك للجزيرة وهو يدعونا لاحتساء
الشاي». ترجم لين كلامه.
جلسوا في معبد صغير دون وجود أغصان متشابكة معلقة
فوقهم بحرية تامة. حرك الراهب الأغصان ووضع إبريقه
الحديدي فوقها وهو ينظر نحو الزوار الغرباء ويقهقه.
«يقول إنه لم يزوجها بيضاء من قبل ويسأل لم أنتم هنا؟»
استهجن دارو وقال: «الحرب، أخبره أننا مصورون».
«من يريد صوركم؟»
ضحك دارو.
«يسأل أية حرب؟»
وقف: «الحرب بين الجنوب والشمال».
«يقول: إن هناك حرباً دائماً. لكن لماذا يقاتل الغربيون في
حرب الفيتناميين؟»
«ليعطوهم الحرية».
هرأ الكاهن رأسه وفرك يديه على فروة رأسه الصلعاء. ثم
تحدث مع لين بسرعة وهو يؤشر ويضحك: «هذا غير منطقي،
لماذا يموتون من أجل الفيتناميين؟»

«أخبره أن الأمر معقد وأنه متعلق بالسياسة الجغرافية وحركات الشيوعية ونظرية لعبة (الدومينو) التي تخص سقوط جنوب شرق آسيا».

وقف الراهب وتثاءب وتحرك باتجاه شجرة وأراح نفسه على جذعها. ضحك لين وقال: «كلماتك لا تعني له الكثير، لا تعني له أكثر من تبؤله على جذع هذه الشجرة».

أومضت عينا دارو ثم ضحك وضحك الراهب بصوت أعلى حتى احمر وجهه وعاد ليجلس.

«نحن نرتكب أخطاء أكبر وأكبر لأننا لا نستطيع الاعتراف أننا ارتكبنا الخطأ الأول. لا نستطيع تحمل خسارة حرب مع بلد آسيوي صغير».

ضحك الراهب وغطى فمه وقال: «لكن عليكم القتال حتى فناء آخر رجل في فيتنام».

نظر دارو إلى الأرض وأوماً برأسه: «أنت أول رجل حكيم التقيته».

هز الرجل رأسه وصب الشاي.

«إنه مجرد راهب بسيط خائف من أن الغريبيين سيضيعون أنفسهم بسبب التدخل في قدر فيتنام».

نهض الراهب وانحنى لهم ومشى مبتعداً.

«لم يتحدث هكذا خلال عام كامل. إنه متعب».

بعد شرب الشاي، مشوا عائدين في صمت، وبينما تسَلقت هيلين القارب الأول فقدت توازنها. كان دارو ينظر بعيداً إلى النهر وهو عابس، لكن لين مدّ يده إليها ليسندها لتستعيد توازنها.

كان صوت السيارات الجبلية هو ما يحرك سكونة الليل. كانت المصابيح الأمامية تضيء بينما ينزل الجنود الأمريكيون

والميليشيات الفيتنامية حاملين أسلحتهم ليشكلوا نطاقاً عسكرياً حول القرية ويبدووا التفتيش من بيت لآخر. لبس دارو قميصاً وسروالاً وركض إلى الخارج وقال: «ما الذي يجري؟».

«أنت هنا. أين هي آدامز؟ جميع الأمريكيين مطلوبون حالياً إلى مجمع منظمة التطوير الدولي».

«أعطنا دقيقة لنرتدي ملابسنا، ما الذي يجري؟».

«تم الهجوم على أمريكي وقتله في المنطقة».

«من هو؟».

«إنه جيرى نيكولز أحد أعضاء منظمة التطوير الدولية».

ظهرت نجان بينما كانوا يحزمون حقائبهم. وجثمت في زاوية الكوخ وهي تبكي. انحنت هيلين لترت على ظهرها لتطمئنهما بينما دخل لين.

قال لين: «سأبقى هنا، فحين يبدأ التحقيق يحتاجون إلى مترجم».

«سنلقاتك في الصباح».

تمت مرافقتهم إلى سيارة جيب بينما تم جمع رجال القرية كقطيع إلى مركزها ووضعهم تحت تهديد السلاح. وأثارت نساؤهم جلبية كبيرة وعالية وغازبة كما لو أنهم طيور تم إزعاجها في المبيت. أما الأطفال الذين بدؤوا بالنحيب حيث أيقظتهم من نومهم أصوات قاسية وغير مألوفة. كان هناك مروحية تحوم فوق الطريق والمصابيح الكاشفة تنير قمم الأشجار بسطوع بالغ كسحابة ضوئية غريبة وكان الضجيج يصم الأذان.

قالت هيلين: «لا أظن أن علينا أن نترك لين».

قال دارو: «سيكون بخير».

عندما وصلوا إلى مجمع وكالة التطوير الدولي كانت الحديقة مضاءة بنور كبريتي شبحي. وفي المركز كانت الجثث المحرمة لكل من نيكولز وعشيقتة الشابة في بركة من دم بلون الصدا. كانت أذرعهم وأرجلهم مربوطة بالأسلاك وقد تم التمثيل بجثثيهما إما قبل الإعدام وإما بعده، الإعدام الذي تم بأناقة في مؤخرة رأس كل منهما. ضرب دارو يده السليمة على غطاء السيارة عندما رأهما ثم أمسكها بيده المصابة. أتى الضباط إثر قلقهم من الهيجان، لكنه هز رأسه. تحركت هيلين مبتعدة فقد ضايقها ذلك العنف بعد تلك الفترة الهادئة. انتابها شعور بأنها جاهلة، مثل الشعور الذي انتابها بعد الحملة الماضية ولم يأت الوقت بفائدة تخفف من ذلك. كان مظهر الفتاة كشبح بالنسبة لها. لا يوجد مكان آمن في هذا البلد، هناك فقط أماكن مؤقتة للهروب إليها. كيو التي فقدت أشياءها شيئاً بعد آخر، بيتها، أهلها وقريتها، ثم فقدت حياتها. ولا يمكن الآن إصلاح أي شيء مهما كان صغيراً حتى لو كان عمرها. ذهب دارو بعد عدة دقائق ليمارس روتين وضع الأفلام في الكاميرا ليلتقط صوراً للجثث. من سيريد صوراً كهذه.

كانت البلاطات البيضاء والسوداء داخل الفيلا موحلة من أحذية الجنود. جلس ساندرز على إحدى الأرائك بعد أن تم استجوابه وقال: «كان الجميع يحبونه».

وقالت هيلين دون تفكير: «يحبونه بشق الأنفس». نظر الضابط إليهم واحمر وجه ساندرز. تم أخذ هيلين ودارو إلى غرفتين ولم يهتمًا بأن يتظاهرا بالشجاعة ودخلا غرفة واحدة فقط. استلقيا على السرير ذي الخشب الفرنسي المحفور بكامل ملابسهما غير قادرين على النوم. وللمرة الأولى لأكثر من شهر لم يلمسا بعضهما،

كلُّ تائه في أفكاره. لم ينته وقتهما في القرية فحسب، بل كان كائه لم يكن. وكلُّ شيء قبلوه دون سؤال كان وهماً.

استدارت إليه هيلين أخيراً وقالت: «ما رأيك؟».

«تسأليني من فعلها؟».

«قلتُ إنَّ المنطقة كانت آمنة».

«قلتُ إنَّ مجموعة (هوا هوا) كانت مشرفةً عليها وهم الذين يصادقون على كلِّ ما يحدث، لا بدَّ أنَّهُم سمحوا بذلك».

في الصُّباح لم تسعد هيلين بمياه المغسلة الدافئة بل تآقت إلى لون الخضار المنعش المحاذي للنَّهر. لم يأت لين. تذكَّرت أنَّ النسوة كنَّ يتكلَّمْنَ عن كيو. إلى أي جانب كانوا ينحازون؟ قادهم الكابتن المسؤول عن التَّحقيق بسيَّارة وأعادهم إلى القرية ليدلّوا بأقوالهم قبل أن يتمَّ إطلاق سراحهم.

كلَّما اقتربوا من القرية كانت حقول الأرز تبدو فارغةً كما كانت خلال الاحتفال. بدت القرية أصغر وأكثرو ضاعةً من داخل سيَّارة الجيب. استطاعت هيلين بالكاد تذكَّر فرح وجودها في الحقول، بدا الأمر لها أنَّها كانت منغمسةً وتدلل نفسها وتصرِّفاتها، والآن صارت بسيطة كالأطفال. حتَّى كوخهما بدا بعيداً وغريباً وهما يحزمان معدَّاتهما في السَّاحة المركزيَّة، تمَّ جمع النِّساء والرِّجال والأطفال كقطيع وإجلاسهم في الطَّين تحت اكتمال حرارة شمس الظَّهيرة.

بينما كانت هيلين تمشي تعرَّفت على البعض وأومات لهم بالثَّحية لكن لم يردَّ أحدٌ على سلامها أو يعطي إشارةً بالتَّعرُّف عليها. كانت الوجوه محدَّقة بتجهم وعزوف. حتَّى هوتنغ أدار ظهره لها. خاف أهل القرية أن يظهرُوا أية صداقة مع الأمريكيَّان أمام الجيش الفيتناميَّ أو جواسيس جبهة

التحرير الوطنيّة الفيتناميّة. فهم كانوا لا يتوقعون من أيّ طرف أن يساعدهم.

ثمّ رأت هيلين نجان ووجهها مليء بالكدمات وملابسها ملطخة بالدماء. نادى هيلين اسمها وتحركت باتجاهها. لكن الفتاة ارتعشت وانسلت عائدةً بين الحشد.

جلس الكولونيل الأمريكي على طاولة تحت ظلّ الأشجار. ووجهه أحمر غامق من شدة حرارة الشَّمْس وخدوده وجبهته عليها تقرّحاتٌ بُثور صغيرة كان يخرج أنبوباً من المرهم ويمسح به عليها. وعندما رأى هيلين ودارو وضع الأنبوب في جيبه وقال: «اللّعة على هذه الحكّة إنّها تثير الجنون، أخبراني كم طالت فترة بقائكما هنا؟».

قال دارو: «أكثر من شهر».

«ولم تنتبهوا أنّكم في مرقدٍ لجبهة التحرير الوطنيّة الفيتناميّة؟».

«دعاني جيرى نيكولز للبقاء هنا. لذا فهو لم ينتبه أيضاً».

«لم يكن هنا أيّ أحد من عناصر الجبهة» قالت هيلين.

«إنّه إعدام تقليديّ لعناصر جبهة التحرير الفيتناميّة».

قال دارو: «كيف عرفت أنّ الأمر بدأ من هنا؟».

«الأمر سهلٌ فالفتاة التي كانت تعيش معه في المجمع مخالفةٌ

بذلك القانون كانت عميلة للجبهة».

قال دارو: «من أين حصلت على تلك المعلومة؟».

قلّب في بعض الأوراق وقال: «من التّحقيق مع القرويين، في

الحقيقة هي الفتاة التي كانت تعمل لديك».

«نجان؟».

«نعم هي ذاتها».

«مَن أخذ تلك المعلومة منها؟ فيتناميؤ الجنوب؟»
«هم المسؤولون عن التَّحقيقات وصديقك كان حاضراً»
«هذا سخيف».

وضع الكولونيل يده على ذقنه وجفل: «ما هو سخيف برأيي
أنَّ المراسلين لم يلحظا وجود أيِّ شيءٍ مريبٍ طوال الوقت».
مشى دارو مبتعداً.

«كيو عميلتكم كانت طفلةً وكان يجب اعتقال نيكولز» قالت
هيلين.

«في الحقيقة لدينا تقرير عنك وعن عدوانيتك مع الضَّحية».
قالت هيلين وهي تنهض: «لا تحاول اللّجوء إلى هذا أبداً».
لحق لين بهم وهم يمشون إلى سيّارة الجيب. بدا شاحباً
وغير متأكد من أنَّ أوراقه الرّسميّة ستحميه وسط هذا الجنون.
اخترقت نجّان الحراس وركضت إليهم وهم يمزّون بجانب
القرويين وتعلّقت بخصر لين.

قالت هيلين: «ما الذي فعلوه بك؟».

ركض نحوهم حراس فيتناميؤنَّ موجَّهين أسلحتهم.
تحدّثت نجّان بسرعة وعيونها تجمع بالخوف واللّعب على
شفتيها. أخذ لين يديها وأسرّت إليه بكلام في أذنه ثم أعادها.
عندما أصبحوا في سيّارة الجيب في طريقهم إلى المروحيّة
استدارت هيلين وسألته: «ماذا قالت؟».

«أرادتنا أن نأخذها معنا وقالت: إنّها ليست عميلةً للجبهة
وقد ضربوها حتّى اعترفت بذلك لتوقف الضّرب، لم أستطع أن
أفعل شيئاً».

«مَن الذي ارتكب الإعدامات؟».

«لم يكن نيكولز محبوباً. قال القرويون إنّ كيو كانت حاملاً

وقد رفض هو الزّواج منها. ولم يخبرها عن زوجته الأمريكيّة إلا لاحقاً. ورماها خارجاً دون أيّ مال، ولإنقاذ ماء الوجه تمّ قتلها وجعلوا الأمر يبدو أنّ جبهة التّحرير هي التي غسّلت العار». سألت هيلين: «أليس علينا العودة لنخبرهم الحقيقة؟ ولين يمكنه الإبلاغ عن الضّرب».

استند دارو قريباً منها وقال: «لا تعرّضي لين للخطر أبداً. يمكن للأمريكان أن يخرجوا من السّجن، لكن إن سجنوا لين فلن يمكننا فعل أي شيء. لقد حصل فيتناميّو الجنوب على اعترافاتهم وسوف يحتفظون بها». قالت هيلين: «ماذا عن نجان؟». استدار دارو مبتعداً.

ارتفعت المروحيّة إلى مستوى الأشجار وهيلين تحاول تمييز كوخها من بين الأكواخ المحيطة. انفطر قلبها من فكرة الرّحيل خاصّة مع علمها بمصير القرويين غير المؤكّد. كان من المستحيل إيجاد الكوخ فالأسطح المغطّاة بالقشّ اندمجت بسرعة مع بعضها ثمّ ارتفعت إلى درجة أصبح من الصّعب التّأكد من مكان القرية بين العدد غير المحدود من القنّوات والأنهار. وبعد وقت قصير أصبح من الصّعب تمييز القرويين عن كثافة الخضرة والأشجار المحيطة وحقول الأرز التي جعلت المنظر متشابهاً في كلّ اتجاه. ثمّ تلاصقت الأراضي وأصبحت غير قابلة للاختراق من جديد.

استدار الطّيار وصاح ليعلو صوته فوق صوت المحرّكات: «أتريدون أن نمرح قليلاً؟».

(10)

(ثيين ها)

تحت السماء

كان اليوم جوهرة كاملة، وسوف يتذكره لين بعد مرور وقت طويل على أنه أسعد يوم في حياته. لم يكن الطقس حاراً جداً ولا بارداً جداً. كانت السماء بلون أزرق سماوي ناعم لا تشوبه سحابة واحدة. ورمل الشاطئ الأبيض ملتهب تحت ضوء الشمس.

أدار الطيار اتصال الراديو، واثجه إلى أقصى اليمين وانخفض فوق أشجار النخيل مثيراً موجة من هواء حركت الرمال في زوابع صغيرة، وقطعت الأمواج إلى زمر على حافة المحيط.

بعد نصف ساعة، وجد كل من دارو وهيلين ولين وطاقم الطائرة أنفسهم جالسين في مقهى على الشاطئ في (فونا تاو) في فندق الكابتن القديس (جاكوايز) يحتسون الجعة من نوع (33) ويأكلون السلطعون المشقوق.

بعد تحمس المالك لوجود هؤلاء الزبائن المحملين بالدولارات قام بوضع طاولتين مغطاتين بمظلات مخططة بالأبيض والأزرق على الرمال من أجلهم. وقام من أجل المناسبة بمسح غطاء الطاولات المشمع بمنشفة مدهنة. وعندما طلبوا المزيد من الجعة قام ولد صغير بالتفتيش في سلة المهملات المليئة بالثلج

الذي كان يملأ الرّجاجات الفارغة، وكان بالنسبة له غنيمة ذاك اليوم. وبينما استمروا في تناول وجبتهم شكّلت القشور المقطّعة باللّون البرتقاليّ الوردّي سلسلة ممزّقة حول الطاولة.

بعد الغداء فتح دارو عدّة الشّطرنج ولاعب لين بينما لعب طاقم الطّائرة كرة القدم الأمريكيّة على الشّاطئ موظّفين الصّبية من أبناء المكان ليركضوا بالكرة. أحد الرّجال أدار راديو شبكة فيتنام للقوّات الأمريكيّة.

أثّرت الظّروف في الحفاظ على طائرة (M16) حيث وجب وضع طبقة خفيفة من الشّحم عليها في الارتفاعات العالية بشكل رقيق غالباً وبخاصّة في منطقة الدّلتا والمناطق التي تكثّر فيها المياه؛ يجب الحذر ألاّ يتعرّض الشّحيم للتلوث.

«اعتنوا بسلاحكم وسيعتني سلاحكم بكم إذا غادرتم فيتنام لأوامر طارئة».

قال الطّيار: «أطفئ ذاك الجهاز الملعون. ألا ترى أنّنا في إجازة هنا؟».

وبالفعل جعلت وجوه النّاس المسترخية على الشّاطئ والنّسيم الرّطب والأمواج الكسولة، جعلت كلّ هذه الأشياء الحرب تبدو كأنّها في مكان بعيد. عندما مشّت هيلين إلى الشّاطئ حرّك لين حجر الفارس في الشّطرنج فأصبح ملكه مكشوفاً.

قال دارو: «لا يمكنك قذف اللّعبة».

«أسف لا أستطيع التّركيز».

نظر دارو حوله ورأى الطّيار متمدّداً على ثلاث كراسٍ وقال:

«أنت متيقظ يا (بلنغز)؟».

تنهّد الطّيار بسخرية وفتح زجاجة جعة وجلس إلى الطاولة.

مشى لين على قشور السّلطعون إلى طرف الأمواج المتكسّرة حيث

كانت هيلين واقفة. شاهدوا الصيادين وجلدهم الغامق كخشب عالجته الشمس يسحبون شباكاً لضرب الأسماك على الرمل. بينما سارا بجانب الأمواج المتكسرة، ركض صبي بالقرب منهما وعندما أصبح على بعد عدة أقدام من هيلين، مدّ يده إلى الأسفل ورشّها بالماء. وقفت ونظرت إلى سروالها المبلّل ثم إلى الولد. وضعت يديها وملأتهما بالماء ورشّته بدورها بكمية أكبر مرّتين. ارتفع حاجباه من المفاجأة ووقف ساكناً وضحك ضحكة عالية خرجت من بطنه. بدؤوا لعبة مطاردة جدية، هيلين والولد وانضمّ إليهما أصدقاؤه وبدؤوا يركضون في المياه التي وصل علوّها إلى حدّ الركبة، وهم يمسكون ببعضهم في وسط الماء. وفي مرحلة من اللعبة كانت هيلين تمسك لين داخل حلقة شغلها الأولاد من حولهما وحبسوهما فيها ليرشّوهما بالماء ويدورون، ويدورون حولهما. خطر ببال هيلين فجأة حلمها القديم بأولاد فيتنام عند بداية وصولها إلى سايغون، وكيف وجدتهم يهدّدونها عندما أحاطوا بها مع مايكل. ربّما رأت الحلم بشكل خاطئ. لم يكونوا يهدّدونها على الإطلاق.

بعد خمس عشرة دقيقة أصبحت حادثة وجود الأمريكيّة أمراً عادياً وانفضّ الأولاد عنها إلى كشك طعام ووقفت هيلين هناك مبلّلة بجانب لين.

«سأقول لك الحقيقة، كرهت هذا المكان عند بداية وصولي إلى هنا، كان غريباً ومخيفاً. لكن هذه المرّة في القرية ورغم كلّ شيء حرّكني هذا المكان». «أنا سعيدٌ».

قالت: «بما أننا مبتلان لنسبح إلى تلك العوامة».

«لا أستطيع».

«هيا. ماذا لو تشنّجت؟ سيتعين عليك إنقاذي». نظر لين إلى الماء الذي يضرب ركبتيه لكنه لم يقل شيئاً. «ماذا؟».

«لا أستطيع أن أسبح».

أحست هيلين بإحراجها وأخذت يديه بين يديها وقالت: «أنت محظوظ إذاً فقد كنت أعلم السباحة طوال فترة المدرسة الثانوية».

سارا معاً على الرّمْل بعيداً عن الحشود بالقرب من بعض قناديل البحر الميّتة التي فاحت من لحمها البنفسجي الشّفاف رائحة عفن في الشّمس. دخلا الماء في امتداد مهجور كان فيه أثر خفيف من البرودة. علّمت هيلين لين كيف يحبس نفسه تحت الماء وكيف يطوف على ظهره وكيف يحرك ذراعيه على ضربات الصّدر والضّربات الجانبية.

لمسته ويدها مقابل يده وذراعاها على صدره وجذعها خلف ظهره ويكلّ احتراف كما لو كانت ممرضة مع مريض. أنزل لين رأسه تحت الماء من جديد وفتح عينيه على وسعهما ليسمح للساعات الملح أن تكون عذراً لدموعه. لم يلمسه أحدٌ إلا بالمصادفة مثل عناق هيلين ولمسات الغرياء بعد أن فقد عائلته. كان قد خدّر نفسه على تعود غياب الأحبة، لكن عملية (التّعميد الكنسي) هذه أيقظت فيه عذاباً جديداً، أنزل رأسه تحت الماء من جديد وحبس أنفاسه حتّى بدأت رئتاه تهتّدان بالانسداد وتسطّح في وجه الصّوء وهو يسمع صوت بقبقة مع ضحكات الأولاد البعيدة.

وضعت هيلين يدها على ذراعه وقالت: «هل أنت بخير؟». هزّ لين رأسه، وسارا خارجين من الماء ووقفا على الرّمْل.

«لا تقلق لن تتعلم كل شيء دفعة واحدة ستعتاد عليها مرة بعد مرة».

«لماذا تحلمين بتصوير سلسلة (هوتشي منه)؟» سألتها.
حرّكت هيلين شعرها وقالت: «كنت أحلم بذلك وما زلت ولكن ليس للأسباب نفسها التي فكّرت فيها قبلاً». نفضت الرمال عن ذراعيها: «بدأت أعجب بهم وبارادتهم العنيفة. هل تفهم شخصاً ما أفضل عندما تأكل معه طبقاً من الأرز؟».

دارت الشمس في السماء على نحو منخفض محوِّلة بحر الصّين الجنوبيّ إلى حقل من سائل برونزيّ.
«فكّرت فيك طوال الوقت في القرية، كان يجب أن تكون معنا. قالت هيلين. لقد شعرت بالذي تحدّثت عنه أنّ الأمر حجرٌ في جدار».

عرف لين بهذه الكلمات أنّه يحبّها دون شك. بالكاد تذكر السير على الزمل عائداً إلى المقهى وكيف وقفوا كتفاً إلى كتف وكيف جفّ شعرها وأصبح بلون القشّ الخفيف.
عندما اقتريا مدّ دارو ذراعيه فوق رأسه مبتسماً حتّى عندما نظر إلى الشاطئ نظرة شك. كلّ ما استطاع لين أن يراه هو شعاع وجه هيلين وهي تنظر إلى دارو.

قالت مخاطبةً لين بصوت منخفض: «لديّ رغبةٌ عنيفةٌ فقط تجاه من أحبّهم، عليّ أن آخذه بعيداً عن هنا».

سيتمنى لين بعد عدّة سنوات لو كانت هناك إشارة أنّ تلك اللحظة كانت اللحظة المناسبة المتوازنة على حافة التّغيير، وأنّ ثلاثتهم لن يكونوا أبداً سعداء معاً كما كانوا في تلك اللحظة. لكن حتّى لو عرف كيف يمكن لأحد أن يوقف تحرك الوقت؟ عوضاً عن ذلك صرخ أحد رجال طاقم الطّائرة: «آيس كريم».

وأمسكت هيلين يد لين وهم يمشون مسرعين في الزمل الناعم
يتعثرون ويضحكون بشكل أعمى.

عاد الثلاثة إلى الحرب التي جمعتهم. لكن الحرب نفسها
كانت قد تغيرت وتغيرت سايفون معها.

ذهب كل من هيلين ولين لتصوير اللاجئين المتجمعين في
الأحياء الفقيرة التي غمرت المدينة. كانت الوجوه التي راوها
متعبة وعظام الوجوه بارزة والخدود مجوفة والعيون غائرة
ومتحجرة من الصعوبات التي واجهتها، كانوا ينظرون بعيداً
وليس إلى الكاميرا، كان ذلك دليلاً أن العدو بدأ يريح.

بقيت الحياة في المدينة مزدوجة كما كانت. كانت هيلين
تخوض كل ليلة في دعوات العشاء الرسمية في المطاعم الأنيقة
وحفلات الاستقبال في السفارات. وكلما كبرت الحرب كبرت
معها الحياة الاجتماعية في المدينة.

حضرُوا المناسبات الرسمية بدافع الواجب دون أن يعرفوا ما
الذي سيتأتى من حضورها إلا الكلام عن كسب الحرب.

عاد دارو وهيلين إلى بعضهما وأخذاً مكاناً في حياة الاغتراب
الخاصة بالصحافيين والمغامرين. أتى العديد منهم بدافع
الطموح كما ادعى دارو. لكن عدداً مماثلاً أيضاً جاؤوا ليهربوا
مما كان يربطهم بالوطن وعملهم والعائلة والملل. كانت صور
نجوم الإعلام تختلط بصور الرحالة والصحافيين الأحرار
الذين لم يلتقطوا صورة لابن أحد نجوم الأفلام أو لموسيقي
مبتدئ من (كونيتكت) أو صور مراقبين أمريكيين انتهى بهم
الأمر على الطرقات بعد أن تركوا الكلية أو الثانوية.

كانوا يلتقون في كل الحفلات الليلية التي تتم استضافتها
في الفيلات الفرنسية المتهذبة أو في البارات الرديئة المتوزعة في

المدينة. وكانوا يستمعون إلى الموسيقى الكوبية ويتم تزويدهم بخدمة الإرسال الصحافي اللاسلكي، ويتم تزويدهم بشارب الزوم والويسكي ويدخلون الحطيش والأفيون. كان معظم الرجال لديهم صاحبات هيلناميات، والعدد القليل من النساء كان لديهن عدد من الرجال ليهتاروا منهم.

كان حديث الحفلات يدور من سعر البراندي وعن توفر بخاخ الشعرو عن الحرب، والحر المطاعم والنوادي الليلية والحرب، وعن حالات الطلاق والزواج والحرب، وعن الأطفال وخطر الحياة في الزيف والحرب، وفي الحر الأمر يعودون إلى حجر أساس الوجود وسبب التجسد الأمريكي الحاضر لسايفون. لقد كانت هي الحرب دوماً.

لكن كانت حياتها مع دارو في الشقة الملتوية خلف باب بوذا في تشولون هي التي تشكّل تاريخها الحقيقي. والذي كان بينهما كان يوازن الجنون في الخارج.

تم إرسال هيلين ودارو لتغطية هجرة جماعية للاجئين في منطقة خالية من الأعمال العسكرية حيث كان يسير إليها خط أفعواني ومتوثر من الشاحنات التي تعمل بالديزل القديم الذي يصدر الدخان، وتحمل تلك الشاحنات دراجات وعربات ومراكب وبشراً. وفي الوقت الذي وصلوا فيه إلى القافلة كان قد سبقهم إلى هناك مجموعة أخرى من الصحافيين ومن ضمنهم روبرت، ثم ظهر مات تانر، لم تلتق هيلين به منذ أن تبادلت معه صور الكابتن تونغ واعتبرت ذلك أمراً جيداً وأسفت لرؤيته الآن.

تابع تانر مشيه دون التعرف عليهم. صافحه روبرت بتهذيب وفضول وحالما رآهما معاً أدرك أنه فقد فرصته معها.

سار كل من هيلين ودارو إلى جانب خطّ اللاجئين بينما بدأ
لين يطرح عليهم أسئلته. أخلّى الناس مناطقهم في ذعر وكان
هناك نقص في المؤن الرئيسيّة. مرّوا بجانب هيلين بخطا بطيئة
ومثّنة دون أن يلاحظوا كاميرتها.

كان هناك شخّ في الطّعام والماء. تجنّبت هيلين الشّرب من
حافطة الماء الخاصّة بها مع أنّها كانت ظمأى؛ لشعورها بالذّنب
لأنّها تملك الماء وغيرها لا، ولخوفها أن يتجمهروا عليها
لأخذها منها. فامتنعت عن الشّرب لتحمي نفسها أيضاً.

بعد هدوء القرية، جعلها حجم المصيبة والعدد السّاحق
للشر تشعّر أنّها عديمة الفائدة. لعقت شفّتها بعد أن جفّ
فمها فتذوّقت ملوحتهما ممّا زاد من شعور العطش لديها.
وعندما انهار عجز على طرف الطّريق انحنّت إليه وأخفته عن
الأنظار وأعطته جرعات غالية من مائها لكنّ حشداً آخر تابع
وصوله وكان عليها أن تتحرّك.

كانت أطراف الطّريق تُستخدم كمطبخ وكحمام لقضاء
الحاجة فتحوّلت إلى طين وأصبحت الرّائحة لا تطاق. وكان
بعض القرويين من كبار السنّ في غاية الضّعف لدرجة أنّ
كلّ خطوة يخطونها كانت معجزة من إرادة قويّة. تقدّم دارو
في مشيّه والتقى بتانر واثنين من المصوّرين الذين كانوا
يحيطون بشابّ يحاول جاهداً أن يجرّ عربة مليئة بالمقتنيات
وعليها زوجان كبيران في السنّ، ربّما كانا الجدّين، يجلسان في
الخلف مع ثلاثة أطفال صغار في أحضانهم. كان الشاب قد
خلع قميصه ولفّه حول رأسه، وكانت أضلاعه حادة ومحفورة
وكلّ العضلات والأوتار مشدودة من الإجهاد النّاجم عن جرّ
العربة. بدا تانر خاصّة كالثور لتحلّقه حول الشاب وانحنائه

بينما يوجه كاميرته إلى (أوبه) يستطيع فيها التقاط تعابير وجهه.

قفز دارو إلى الأمام ودفع لائر بقوة من ظهره مما اضطره أن يمسك بأطراف العربة ليحمي نفسه من السقوط. كانت عجالات العربة تهتز وتصدر صريراً من جزاء دفعها على جوانب الطريق. «ماذا تفعل يا هذا؟»

توقف الشاب وطرح حبال العربة أرضاً وجاش صدره بقسوة عندما جذب الطاسه. كان غير آبه ومستسلماً لما سيحدث بعد ذلك.

أشار عليه دارو أن يتحرك إلى خلف العربة والتقط حبالها بنفسه وبدأ يجرها. اتسعت عينا الشاب من الدهشة لكنه تبع العربة وهو يتحدث بصوت منخفض للزوجين ذوي الشعر الأبيض. أدارت المرأة المصابة بالتهاب المفاصل عنقها لتنظر إلى ظهر دارو.

صرخ تانر: «ما الذي يفترض أن يحدث فيما تفعله أيها المجنون؟»

راقب روبرت المشهد، لم يهتم لدارو لو شقق نفسه، لكنه لم يستطع تحمّل وجه هيلين المجروح فقال: «تابع طريقك يا تانر». «هذا الملعون المجنون».

صاح روبرت: «تابع طريقك».

أخذ لين رياطي الرقبة من عنق دارو.

قال دارو: «ضعهما في العربة والتقط بعض الصور من الأعلى».

عدا لين ببطء إلى الأمام. كان وجه دارو مشدوداً وفكّه يرتجف. لم تعرف هيلين ماذا عليها أن تفعل ومشّت إلى جانب

العربة في تردد. وتفادوا الشجار. تأخروا بروت عنهم إلى الخلف من خط السير ولم يكلم أيًا منهما كلمة واحدة. كل ما كان يدور في بال دارو من مشكلات وأفكار أصبح مشكلتها الآن ويتعين عليها التعامل معها.

لم يتكلم أحد كلمة لساعتين. وأخيراً مشى الشاب إلى مقدمة العربة وربّت على كتف دارو. أشار إلى بقعة ظل تحت شجرة وأوما لدارو وسحب العربة خارج الطريق. في اللحظة التي انزل فيها حبال العربة نهض الزوجان وشرعا بتناول الأطفال لإنزالهم. وبينما كان الرجل العجوز يغسل وجوههم بمنديل وبيعض الماء، أفرغت المرأة العجوز سلة من أوراق الموز المغلفة.

وقف دارو يفتح ويغلق يديه المتقرحتين بشكل أخرق دون أن يعرف كيف يتركهم. ما حدود الإحسان؟ عندما يبدأ أخلاقياً، متى ينتهي؟ كانت تربيته علمانية لكنه كان يتوق لأن يمتلك ركيزة إيمان حتى لو مؤقتاً. انفجر شيء في رأسه ظلّ أنه غضب قديم كان قد تعامل معه. الشيء الرّائع بالنسبة لنا هو أنه حين تنتهي هذه الحرب سيوجد دوماً حروب أخرى. طافت في ذهنه الفكرة الهادئة أنه كان سيطلق النار على تانر مباشرة لو حانت الفرصة.

أتت هيلين إليه بصمت وأعطته حافظة الماء. كانت تشعر بالخجل عنه لمعرفتها أنه كان يتمنى لو أنها لم تشاهد الحدث. لم يكن مهماً ما أتى بعد ذلك فقد رأت ما كان يخفيه هذا التبجح، يأس عميق. إذا كان هناك تناقض في المحبوب، هل يحبه الحبيب أكثر أو أقل؟

فتح العجوز قطعة بامبو وورقة موز. كان بداخلها مكعب من الأرز. أشار لدارو أن يأكله لكن دارو هز رأسه وفشّش في جيبه

عن أية نقود كان يحتفظ بها وأعطاه إياها، وجد ثروة من أوراق
العشرين دولاراً، كما لو كان يشعر بالأسف. أضاء وجه الرجل
لكن دارو كان قد انسلّ مبتعداً مختفياً على الطريق.
في ذلك المساء جلس كل من هيلين ودارو ولين على طاولة
موضوعة على شرفة في فندق الكونتinentال. كانت كلتا يديه
مربوطتين بشاش. فلف يده ليلتقط زجاجة الجن والثونيك.
وأصرّ قائلاً: «أخبرها عن مدى عظمة إنغكور».
ابتسم لين لإحساسه بوجود تغيير واثفاق جديد بينهما
وقال: «إنها مجموعة جميلة من الصخور».
قال دارو: «أنا أتكلّم بجديّة». وأخذ جرعة كبيرة من شرابه
واستدار باتجاه هيلين وقال: «يجب أن آخذك إلى هناك».
قالت هيلين: «يوجد فقط حربٌ صغيرة تجري الآن».
«لا تقلقي أنت محظوظة، سيكون هناك الكثير من الحرب
أيضاً عندما نعود».
سمع دارو السّخريّة في صوته ولكنّه شعر أنّها سخريّة قديمة
وبالية وأنه تخطّأها.
أنهى لين شرابه ورفع ثلاث أصابع للنّادل ليحضر كميةً
أخرى من الشراب.
قالت: «يوماً ما».
تبادلوا النظرات.
«كانت مدينة (بنوم بنه) كصورة في حلم. فيتنام ما قبل
الحرب».
نكز دارو لين وقال: «هل تتذكّر الهدوء؟».
«ظن الجميع أننا مجانين عندما كنّا نعمل طوال اليوم في
الشمس الحارقة».

«لكنّ الحال كان جيّداً، ألم يكن كذلك؟» ضحك دارو وقالها بحرقّة لحاجته. أن يكون كلامه حقيقياً.

تساءل لين عمّا كان يحدث بداخله. أكان الغضب والانفجار الذي حدث بجانب العربة مبرّراً؟ وقال: «نعم كان جيّداً».

وضع النادل ثلاثة مشاريب إضافية.

«ما رأيك أن نطلب بعض الطّعام مع المشروبات؟» قالت هيلين «لا ليس يوماً ما، بل الآن عليك أن تريها، لنذهب إلى هناك صباح الغد».

انزعج لأنّ كليهما لم يكن منتبهاً له ويعاملانه كما لو أنّه ولدٌ نرقيّ. فاستاء من ذلك.

انتبعت إلى عيون النادل وقالت: «نذهب إلى أين؟».

قال دارو: «أنت لا تصغين، لقد نسي (موهوت) وطنه وعائلته، وكان سعيداً باستكشافاته، ولم يستطع إبعاد نفسه».

«يا له من رجل أنانيّ!» قالت هيلين.

«لا ليس كذلك. لقد فهمت الأمر كلّ خطأ. لقد كان مثل آكلي اللّوتس في قصة هوميروس، ببساطة لقد نسي كلّ أفكار العودة».

«لكنّك غير محتاج للذهاب إلى إنغكور فالحرب موجودة هنا».

كان النادل واقفاً بانتظار أن يعرف طلباتهم عندما دخل تانر.

«لا تحضر الطّعام أحضر قائمة الحساب».

قال دارو.

«على أيّة حال لا نستطيع الذهاب، فأنا ولين خططنا للذهاب مع وحدة (أولسن) بعد يوم غد».

شرب دارو نصف كأسه في جرعة واحدة: «أنا بحاجة للعودة إلى إنغكور فقد مضى زمنٌ طويلٌ على وجودي هنا».

«أنت بحاجة لأن تأكل. أنت ثمل».

كان طفولياً ومشاكساً وهي كانت حائرة بسبب التّغيير الذي أصابه. رأت الأمر على أنّه صورة

من خوفها الخاص وحاولت أن تساعد بتعويذتها الخاصة.
فالخوف لم يكن خياراً متاحاً.

قال دارو: «علينا أن نستعيد ما كان لدينا في القرية».

«لكن القرية كانت كذبة، أليس كذلك؟».

نظر تانر إلى الطاولة وراهم، فغير اتجاهه ومشى طريقاً
طويلاً إلى الطاولة الخلفية.

قال دارو: «أتعرفين ما مشكلتك؟». قالها وهو يقوس ظهره
مع حضور تانر ويمرر أصابعه على مركز الطاولة كأه يمررها
على سلسلة أفكار.

«كان يجب أن تكوني محاسبة. أنت تستطيعين أن تصوّري
لكّك تصوّرين كما لو كنت محاسبة».

وقف لين وقال: «أنا مشغولٌ غداً. أراك باكراً يوم الجمعة».
تجاهلت هيلين محاولته الهرب وقالت: «أتعرف ماذا
تملك يا سام؟ الغرور العظيم للمراسل الأبيض. متى
أصبح الأمر كله متعلقاً بك وحدك؟ إن ما فعلته اليوم
كان متعلقاً بك وبتانر ولا يخص أولئك الناس، يا لك من
مسكين!».

رئت ضحكة تانر في الطرف الآخر من الغرفة بينما انضم
إليه الناس. جفل دارو كما لو أنه تعرّض لصفعة حادة واستمرّ
بالتحديق فوق كتفه. «يجعلني هذا أشعر بأنني غول يتغذى
على معاناة الناس. أنا متعبٌ وأشعر بالقرف المميت».

قالت هيلين: «أنا آسفةٌ لكّني لا أستطيع المغادرة فهذه
فرصتي». وعلى الرغم من إشفاقها عليه شعرت بالقوة.

«أنت محظوظة، كنت مثلك من قبل، لم أكن أهتم بأي شيء
لوقتٍ طويل».

رمت هيلين النقود على الطاولة راغبة بالذهاب قبل أن يصبح المشهد فضيحة أمام الموجودين وقالت: «ساعدني يا لين». أنزل دارو يديه إلى حضنه وقال: «جعلت من نفسي أحمق، أعرف ذلك».

وضع لين يده على كتفه واستدار ليرحل. لم يُرد أن يكون كجزء من قسوة هيلين.

تسللت إحدى طفلات الشارع إلى المطعم كما كانت تفعل عادة ملتقطاً قطعة نقدية بعشرين دولاراً وصاح النادل: «لصة». وأمسك بها رافعاً قدميها عن الأرض وبدأت هي بالصراخ. صرخت الطفلة مشيرة إلى اتجاه ما: «هو أعطاني.. هو أعطاني». في مؤخرة الغرفة كان تانر واقفاً وأشار إلى النادل أن يأتي إليه.

«نعم أعطيتها، فقط مجرد هدية صغيرة، حسناً؟ هي لها». أعلن قائلاً لجميع من في الغرفة على وسعها، ثم استدار إلى أصحابه ممتعضاً: «ربما عليّ أن أستأجر عربة لأقلها إلى بيتها ومن الأفضل لو قدتها إلى هناك أنا بنفسى».

اضطروا إلى جرّ دارو إلى الخارج بينما كان يتفوه بأشياء فارغة. أشارت هيلين إلى سيارة تاكسي في الشارع. وصلوا إلى مقدمة الرّفاق حيث كان مكان تجمع الحرير والمزهريات المصقولة. كان الحزن جافاً في الطريق، مشوا فيه إلى المبنى الملتوي. ذراع دارو كانت على كتف هيلين تحميها وتتكئ عليها.

استلقوا على غطاء السرير الأخضر بلون النعناع وكان ضوء المصباح يدقّ رقعة الحرير المتألّثة والغرفة القاحلة التي تليها. «المهام تتشابك كلّ واحدة مع الأخرى، حان الوقت لكي أذهب. أعاني من الكوابيس».

وضعت هيلين رأسها على صدره: «أثار قرفي مشاهدة تانر أيضاً، انس أمره». أرادت أن تقول شيئاً لتساعده لكنه كان في غاية البعد عنها الآن.

حزك دارو مرفقه ووضع يده على حنجرتها: «ماذا هناك لأفعله هير الحرب؟ لقد أصبحت هي حياتي». وضعت هيلين يده بالقرب من فمها وهي تقبل كل إصبع وقالت: «أنا حياتك».

«لا اعرف كيف أصلح الأمر؟» لم يتحدث هكذا من قبل وتساءلت ماذا ستفعل إن قال كلمات انتظرتها لوقت طويل. «اسم عائلتي كان (كوروبك).. عائلة هنغارية. كان عمري خمسة عشر عاماً وقررت أنني سوف أصبح مصوّر حرب أمريكياً مشهوراً. لكن أسماء مصوري الحرب المشهورين لم تكن بهذا الشكل، فحوّلت اسمي وجعلته سام دارو. من أكون إن لم أكن هذا الاسم؟ علي الآن أن أعيش لأكون جديراً به». «من قال ذلك؟»

عاد ليستلقي على الوسائد: «لو أنني التقيت بك منذ عشرين عاماً».

«التقينا الآن. لا بد أن ذلك يعني شيئاً. أنا المحاسبة. أنسيت؟»

أضاء الفجر السماء خارج نافذة الغرفة. رفرفت الأوراق المتوهجة بخدر في أواخر نسيم الليل. استيقظت هيلين على صوت ضجيج ورأت دارو يجلس عند النافذة ويدخن وعند قدمه منفضة مليئة بأعقاب السجائر.

«ألم تنم على الإطلاق؟»

«لم أستطع».

«لماذا؟».

«تركت وصية في مكتب غاري منذ عدة أسابيع».

استيقظت هيلين الآن وهي تشعر برعب كامل: «حديث كئيب

أول شيء في هذا الصباح».

«ليس الأمر هكذا، سبب إخباري لك بهذا هو انتشار إشاعة

بوجود أمنية لي قبل الموت وهي أنه لو حدث لي شيء لا أريد أن

أدفن، لدي زهاب من ذلك».

«هذا الحديث يجلب الحظ السيئ».

«يا قطتي المرعوبة هذا هو الواقع. أنا أراهن أن أعيش لأصبح

رجلاً عجوزاً».

نهضت عن السرير وسحبت ملابسها من فوق الكرسي

وارتدتها. منذ الليلة الماضية وهي تصوغ نوعاً من المعادلة، فكرة

المغادرة لإنقاذ دارو ستسمح لها أن تترك فيتنام دون الإحساس

بالدُنب ستكون فرصة ثمينة: «ألا تتساءل إن كان الأمر يستحق

ذلك؟».

«كل مرة أخرج فيها. ألا يكون الأمر طبيعياً لو لم تخرجي

معي. لا أحد يريد أن يقولها، لكن الزوج، الأب، لا شيء من هذه

الأشياء مهم في الحرب وإلا فلم نحن هنا؟».

«سنستقل الطائرة المغادرة التالية، أنت قلتها بنفسك، مضى

وقت طويل على وجودك هنا».

أوما دارو برأسه وأطفاً عقب سيجارته. وقال: «ربما سنفعل

ذلك».

ثم أخفض صوته أكثر وقال: «ربما يحدث ذلك قريباً».

زهرة حسن

- من مواليد سوريا عام 1987.
- حاصلة البكالوريوس في الأدب الإنجليزي من جامعة تشرين.
- تعمل معلمة لغة إنجليزية في مدارس وزارة التربية بالكويت.
- ترجمت العديد من المقالات الأكاديمية في شتى المجالات.
- لها العديد من الكتابات الإبداعية والأكاديمية باللغتين العربية والإنجليزية.

د. أحمد الهجري

- من مواليد القاهرة العام 1940.
- حاصل على دكتوراه من جامعة لندن في اللغويات التطبيقية (قواعد اللغة الإنجليزية) العام 1974.
- عمل استاذاً بجامعة الكويت - كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية من العام 1980 وحتى العام 1990.
- عمل استاذاً بجامعة السلطان قابوس - كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية من العام 1990 وحتى العام 2001.
- له عدة أبحاث في قواعد اللغة الإنجليزية منشورة في المجلة العربية للعلوم الإنسانية التي تصدر من جامعة الكويت.
- له عدة مؤلفات في قواعد اللغة الإنجليزية للطلبة العرب، وعدة مراجعات للترجمة في سلسلة «من المسرح العالمي».
- قام بمراجعة العديد من أعداد سلسلة «إبداعات عالمية» آخرها كان راوي مراكش (رواية) العدد رقم 415.



تاتيانا سولي

- تعيش في مقاطعة «أورانج
كاونتي» في كاليفورنيا.
- رُشّحت لنيل جائزة
بوشكارت.
- حازت هذه الرواية على جائزة
«James Tait Black memorial»
وجائزة «دانا».
- لها روايتان أخريان
هما «شجرة النسيان»
و«الفردوس الأخير».
- «أكلو اللوتس» صنّفتها
صحيفة نيويورك تايمز كأحد
الكتب المرموقة لعام 2010.
- ظهرت أعمالها الأدبية
في أهم المجلات الأدبية منها
«بوليفارد» Boulevard.

أكلو اللوتس

هذا الجزء من رواية «أكلو اللوتس» للكاتبة تاتيانا سولي، تلتقي بطلّة الرواية هيلين الشغوفة بزميلها سام دارو الصحفي الشهير المخضرم، وتقع في حبه ليصبح عشيقها ومعلمها في آن واحد، فيحاولان معاً حل لغز الحرب، تلك التي دفعت بالكثير من الرجال للمخاطرة بكل شيء، ثم تلتقي عن طريقه بمساعده لين الفيتنامي، فيعملان معاً ويقعان في الحب لاحقاً بعد موت سام دارو. بطلّة الرواية الصحافية التي تريد تصوير القصة الأهم في حياتها، أرادت أن تعرف النهاية وتعيشها وتكتبها بنفسها. فبقيت حتى آخر لحظة بعد خلو الشوارع التي أصبحت مشوهة بالغياب. قصة طموح وشغف وحب في ظل امتحان ظروف الحرب القاسية. جعلنا الكاتبة نتساءل:

ما الذي جعل شابة جميلة في مستقبل العمر مثل هيلين تترك وطنها كاليفورنيا وتذهب إلى فيتنام؟

ما الذي جعلها تدخل عالم الرجال وتخوض حروبهم عندما لم يصدّق أحد أنها قادرة على فعل ذلك؟

ما الذي شدّها إلى فيتنام حتى عجزت عن العودة إلى وطنها؟

هل كان الحب العاصف؟

هل كانت الحرب؟

ما السر؟